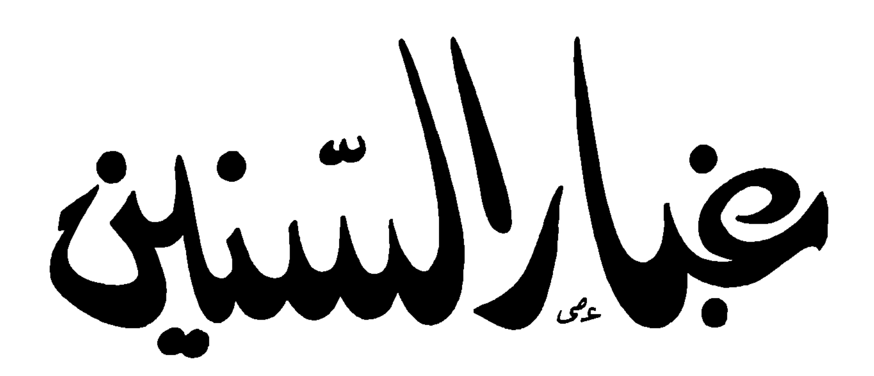


غبار السنين

بقلم
عمر فرّوخ

لمحات من حياتي بين ١٩١٦ و ١٩٨٢
في مقالات قصيرة في الثقافة والاجتماع
تورد وقائع ولا تبدي آراء

دار الأندلس



لمحات من حياتي بين ١٩١٦ و ١٩٨٢
في مقالات قصيرة في الثقافة والاجتماع
تورد وقائع ولا تبدي آراء

بقلم
عمر فروخ

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع


غبار السنين

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الأندلس - بيروت ، لبنان

هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ١١٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

فهرس الموضوعات

ملاحق

الكلمة الأولى

هذه قِطَعٌ نُشرتْ في جريدة السفير (بيروت) بعُنوانٍ عامٍ هو: عمر فرّوخ يَنفُضُ غُبارَ السِّنين. بدأ نَشْرُها في ٤/٨/١٩٨٠ وآستمرّ إلى أواسطِ آذارَ (مَارس) من عام ١٩٨٢.

كانت هذه القِطعُ تُنشَرُ يومَ السبت على الصفحة التاسعة. من أجل ذلك لن أذكُرَ رقم الصفحة إلاّ إذا اتّفق أنْ تكونَ قطعةٌ قد نُشِرَتْ في غير الصفحة التاسعة. وكذلك سأشيرُ إلى يومِ نَشْرها إذا كان قد اتّفق نَشْرُ إحداها في غيرِ يومِ السبت.

لكلّ قطعةٍ تاريخانِ: تاريخُ كِتابتِها وتاريخُ نَشْرها، إلاّ في حالاتٍ قليلةٍ غَفَلْتُ أنَا عن تدوينِ تاريخِ كِتابتها أو أهْمَلَ ذلك عاملُ المطبعة.

كانت هذه القطع تُكتَب في الأصل «كما يتّفق» لسببٍ واضحٍ: أنَا لم أقْصِدْ كتابتَها في زمنٍ معيّن أو على ترتيب معيّن.

كانت الغايةُ الأساسيّة من كتابةَ هذه القِطَعِ سردَ وقائعَ ذاتِ مغزىً تثقيفيٍّ آتّفق أن حدثْت في طريق حياتي، فَهِيَ واقعاتٌ تاريخيّةٌ وحقائقُ واقعةٌ، وليستْ آراءً شخصيّةً ولا تعليقاتٍ عارضةً. ولكنّها يُمْكِنُ أن تكونَ مُعبِّرةً عن رأيٍ لي. إلاّ أنّ الغَرَضَ الأوّلَ منها أن تكونَ «عَرْضاً» لحالةٍ ثقافيةٍ أوِ آجتماعية أترُكُ للقارىء أن يحكُمَ فيه بالأخذِ أو بالرَّدّ.

كُنْتُ أكتُبُ القطعةَ بعدَ القطعةِ في يومٍ بعدَ يومٍ، كما آتّفق أنْ كَتَبْتُ أحياناً بِضْعَ قطعٍ في يومٍ واحدٍ. أكونُ عادة في تأليفٍ في الأدب أوَ العلم أوَ التاريخ أو غيرِها

فأَمَلُّ من الاستمرارِ على موضوعٍ واحدٍ راتبٍ، فأتناولُ وَرَقَةً جديدةً وأضَعُها على الآلةِ الكاتبة ثمّ أكتُبُ قطعة يخْطُرُ لي موضوعُها. وقلّما أعَدتُّ كِتابةَ قطعةٍ منها. ولكنْ كثيراً ما تبدّلَ مَجْرى القِطعة وأنا أكتُبُها على الآلة الكاتبة مَمّا كُنتُ قد تخيّلتُ مَجْراها قبلَ أن بدأتُ بكتابتها.

هذه القِطَعُ قد نُشِرَتْ في هذا الكتاب كما كانت قد نُشِرَتْ في الجريدة يومَ نُشِرَتْ، بلا زيادةٍ ولا تحسين (ما عدا إصلاحَ الخطأ المَطْبعيِّ) لِتَظلَّ صورة صحيحة للحال النفسية التي أمْلَتْ عليّ تلك القِطَعِ يومَ كتبتُها وللفِكرة الأساسيّة التي أردتُّ التّعبيرَ عنها.

وسألني صديقي الدكتور علي زيعور: أَلَمْ يَكُن لكَ حياةً مستورةً فَتُخْبِرَنا بها؟

لم يكُنْ لي حياةٌ مستورةٌ بالمعنى الذي يَقْصِدُهُ نفرٌ من الناس عادةً. هنالك قِطَعٌ في هذا الكتاب تتكلّمُ في أشياءَ من ذلك. ثمّ أضَفْتُ في الصّفَحات التي بَقِيَ أكثرُها فارغاً عدداً من المُقَطّعات الشِّعريّةِ قُلْتُها في هذا الباب ـ وفي مطلعِ حياتي. ولا شكّ في أنّ كثيراً منها أوهامُ شاعرٍ. ومنها ما فيه رَصانةٌ بِرُغْمِ فَوْراتِ الشّباب.

* * *

أرجو أنْ يَسْتَمْتِعَ القارىءُ بهذه القِطَعِ مجموعةً في كتابٍ كما آستمتعَ نَفَرٌ كثيرون بقراءتها مفرّقةً على مدى عامَيْنِ في الجريدة.

في الثاني والعشرين من صفر ١٤٠٥ ـ ١٥/١١/٨٤ ع. ف.

مقدّمة:

هذه القِطعُ من «غُبار السنينَ» خُطُواتٌ في طريق الحياة تَعْرِضُ أحداثاً واقعةً ولا تُبدي رراءً. ولقد قصدتُ بها أن أقُصَّ جوانبَ من حياتي (أو على الأصحّ: من الوقائع التي آتّفقتْ لي في الحياة) في إطارٍ من الثّقافة ومن الاجتماع. إنّني لم ألجأْ هنا إلى تدوينِ حوادثَ شخصيّةٍ يتكرّرُ مثلُها يوماً بعدَ يـومٍ في كلِّ مكانٍ، من تلك الأمور التي تَصِفُ ظواهرَ الحياةِ الفرديّةَ. لقد أحبَبْتُ أن تكونَ تلك الوقائعُ المختارةُ ذاتَ صِلةٍ بنِطاق المجتَمعِ الإنسانيّ من جانبهِ القوميّ أو من جانبهِ العالميّ. وكذلك أحبَبْتُ أنْ أُؤكّدَ عند سَرْدِ تلك الوقائع جانباً من التّثقيف المُفيد، ذلك لأنّ التربيةَ الاجتماعيةَ إنّما هي نَقْلُ الاختبارِ من جيلٍ إلى جيلٍ في حياة البشر، أو مِنَ الفردِ إلى الفرد في الجيلِ الواحد.

وقد قصدتُ أيضاً أنْ أُذَكِّرَ بقوانينِ التاريخ، وبأن أعمالَ البشر محكومةٌ بتلك القوانينِ كثيراً أو قليلاً ـ بِحَسْبِ الأحوال المحيطة بأفرادِ الناس ـ فإنّ تلك القوانينَ تقرُبُ في عددٍ من الأحيان إلى أن تكونَ شبيهةً بالقوانينِ الطّبيعيّة. وفي الحياةِ أمورٌ يظنُّها جانبٌ كبيرٌ من الناس يسيرةً، بينما هي تنكشفُ بعدَ أمدٍ عن آثارٍ عميقةٍ في حياتنا الطبيعيّة وفي حياتنا الاجتماعيّة أيضاً.

إنّ نفراً من أبناء قومنا ـ وإنّ نفراً من غير قومنا أيضاً ـ لمّا وقّعوا على أنفُسِهم صُكوكاً ماديّةً وصُكوكاً مَعْنويّةً، ظنّوا أنّ ما نالوه يومَ توقيعِ تلك الصكوكِ ـ أو ما كانوا قد وُعِدوا بنَيْلِه ـ هِبةٌ كريمةٌ من مُحسنٍ كريم؛ فإذا بِهِمُ اليومَ يدفَعون مبالغَ تلكَ الصُّكوكِ مَعَ الفوائدِ عليها من أنفُسِهم في المناسباتِ القليلةِ أو من نفوسِ الناسِ في مُعْظمِ الأحيان.

إنّ هذا السوءَ غيرُ قاصرٍ على بلادِنا، ولكنّ مِثلَه موجودٌ في الهِند وفي أميركا الوُسطى وفي بولونيا وفي شَماليِّ إيرلندةَ وفي كلّ بلدٍ يعيشُ إلى جانبِ دولةٍ أقوى منه ثروةً وسِلاحاً. وإنّ هذا الواقعَ الذي لا مَفَرَّ لنا من الأخْذِ به هو أنّ المُحَرِّكَ واحدٌ، ولكنّ المُتحرِّكين بِفِعْلِ هذا المُحَرِّكِ الواحدِ ـ طَوْعاً أو كَرْهاً ـ كثيرونَ جِداً.

للولاياتِ المُتّحدةِ حقٌّ في أن تصنَعَ من الأسلحةِ ما تعتَقِدُ أنّه ضَروريٌّ للدِّفاعِ به عن نفسها. وللاتّحاد السُّوفياتيِّ مثلُ هذا الحقِّ أيضاً. أمّا إجبارُ إنكترةَ وإسبانيةَ وهولندةَ وألمانيةَ وغيرِها على أن تَقْبَلَ بِنَصْبِ هذه الأسلحةِ في بلادِها فأمرٌ لا يُسَوِّغُه إلاّ مَنْطِقُ القُوّة المادّية في مُعاملةِ الدُّوَل المُسْتَضْعَفةِ.

إنّ الأديبَ والمُفكّرَ والباحثَ والعالمِ والفنّان يُحاولون دائماً أن يُعبّروا عمّا يُحيطُ بهم. وكثيراً ما آضْطُرَّ هؤلاء جميعاً إلى أن يسلُكوا إلى غاياتِهم طريقَ الرَّمْز الجَليِّ أو طريق الرّمز الخَفيّ، وهَدَفُهُمْ من ذلك أن يُنَبِّهوا ذَوِي الفِطَرِ الفائقة إلى أنْ يَتَلافى هؤلاء في مُسْتَقْبَلِ حياتِهم ما آرْتَكَبَه آباؤهم وأجدادُهم في الماضي القريبِ أو في الماضي البعيد. غيرَ أنّ ثمّة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ قِلّةً من أولئك الذين يَحْسَبون كلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ. كتبتُ مرّةً قِصّةً عن مُعاويةَ بنِ أبي سُفيانَ وعنِ آبْنِهِ يزيدَ وأوردتُها كما تَرِدُ في كتب التاريخ. ومَعَ أنّ مُعَاوية قد مات منذ ألفٍ وثلاثِمائَةٍ وأربَعٍ وأرْبَعِينَ سنةً، فَقَد عدّ بعضُهم أن القصدَ منها غيرُ مُعاويةَ. القِصّةُ تقولُ إنّ مُعاويةَ أخذ البَيْعَةَ بالخِلافة في حياتِه هو لابنِهِ يزيدَ، وأنّ مأساةَ كربلاءَ التي حَدَثَتْ في أيامِ يزيدَ لم تكن لِتَحْدُثَ لو كان يزيدُ على مُستوَى أبيهِ مُعاويةَ في الحِكمة السياسيّة.

ليسَ هذا الكتابُ «تاريخَ حياتي»، وإن كان يقُصُّ أطرافاً غيرَ مُلتَحِمَةٍ من حياتي. ثم إنه يُمْكِنُ أيضاً أن يُفسِّرَ جوانبَ من حياة غيري. إنّه ـ على كلّ حالٍ ـ يجمَعُ ملامحَ من آثارِ خُطُواتي على طريقِ الحياة أو يجمَعُ ملامحَ من خُطى الحياة

على الطريق الذي خطّته لِيَ الحياةُ في هذه الدُّنيا.

ولقدِ آخْتَرْتُ أنا هذا الأسلوبَ، لأنّه ـ فيما أرى ـ نافعٌ، إذ يستطيعُ كلُّ فردٍ أن يُطبِّقَه على نفسِه إذا هو شاء وأن يُفسِّرَ به سلوكَ قومٍ آخَرينَ أيضاً. إنّه أسلوبٌ يَعْرِضُ الحقائقَ في لِباسٍ من الأمثلةِ المُنْتَزَعَةِ من الواقعِ الإنساني. وقد يَتّفِقُ أن ينطبقَ المثلُ الواحدُ على شخصينِ أو أكثَرَ من شخصين من أفرادِ الناس. وليس في ذلك شيءٌ من الغَرابة، لأنّ الناس أنفُسَهم يتقاربون ـ في الأمكنةِ المختلفةِ والأزمنة المُتباعدة ـ في سُلوكِهِمُ اليوميِّ العامِّ.

هنالك بلا ريبٍ أساليبُ أخرى في سِياقةِ التَّرْجَماتِ الشَّخصيّةِ، كما نرى في القِطعة التالية (مذكّراتي خلال قرن، للدكتور فؤاد غصن، بيروت ـ دار الريحاني للطباعة والنشر ١٩٦٩، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨).

يذكر القارىء ولا ريب أنّني كنت قد قبلت دعوة كريمة من قبل جلالة الملك غازي سنة ١٩٣٨ إبّان انعقاد المؤتمر الطبّي العربي العاشر على أن أقوم بهذه الزيارة في ربيع العام الذي يليه. فما أن هلّ الربيع وربيع العراق مشهور بجودته، حتّى شددت الرحال نحو بغداد ونزلت في دار ابن أخي الدكتور أنطوان غصن الذي كان طبيباً جرّاحاً في مستشفى الكرخ. وما أن وصلت حتّى توافد الأصدقاء والمحبّون وهم كثر للسلام عليّ أذكر منهم الدكتور ابراهيم عاكف الالوسي مدير الصحّة العام والدكتور عبدالله الدملوجي رئيس التشريفات في البلاط الملكيّ والأمير محمد الحبيب ربيعة والجرّاح الدكتور صائب شوكت وأخوه[1] الدكتور سامي شوكت وبعض أعضاء نادي المثنّى وغيرهم من كبار رجالات العراق. وبعد زمن فاجأني صباح يوم الدكتور ابراهيم عاكف الألوسي يطلب إليّ تلفونياً أن أنتظره في دار ابن أخي لأمر شديد الخطورة يريد أن يبلّغني إياه. وما هو إلاّ القليل

(١) كذا في الأصل.

حتّى دخل الدكتور الألوسيّ متجهّم الوجه شديد التأثر فصعقت بادىء ذي بدء[٢] فسألته عمّا به وهل أصابه شيء فقال والدموع تترقق في عينيه وصوته يتهدّج حزناً ولوعة «لقد مات غازي».

* *

وأعود إلى القِطَع الموجودة في هذا الكتاب:

إنّ جميعَ هذه القِطَعِ قد نُشِرَتْ في جريدة «السفير» (بيروت) في يوم ِ سَبْتٍ (إلّا قِطعةً واحدةً نُشِرَتْ يومَ آثنينِ، وقد أُشِيرَ إلى ذلك في خِتام تلك القطعة). وقد كانتْ هذه القِطَعُ تُنْشَرُ على الصفحة التاسعةِ، سوى عددٍ قليلٍ منها نُشِرَ على صفحات أُخَرَ. وقد أشرت إلى ذلك في مكانه (بعد تاريخ نشر القطعة).

ولكلّ قطعةٍ في العادة ثلاثةُ تواريخَ:

(أ) تاريخٌ يُذْكَرُ في أعلى الصفحة هو التاريخُ التقريبيُّ للحادثة (أو للحوادث) المذكورة في تلك القِطعةِ.

(ب) تاريخٌ يظهَرُ عادةً في آخرِ القِطعة (إلى يمين القارىء). هذا التاريخُ هو تاريخُ كتابةِ القِطعة).

(ج) تاريخٌ يظهَرُ عادةً في آخر القِطعة (إلى يَسار القارىء). هـذا التاريخُ هو تاريخُ العدِد الذي نُشِرَتْ فيه تلك القِطعةُ من جريدة «السفير».

* في عددٍ من الأحيانِ لا يكونُ هنالك تاريخٌ إلى يمينِ القارىء. وتفسير ذلك أن القِطعة متقدمة، ولم يكُنْ قد خَطَرَ لي أن أُؤرِّخَها في ذلك الطورِ المُتَقدّم (أو أنّ عاملَ المطبعة قد أهملَ ذكرَ ذلك التاريخ ِ من عندِ نفسِه ثمّ كُنْتُ أنا أيضاً قد فَقدتُ النُّسخة الثانية لتلك القطعة فلم أهتدِ إلى تاريخ ِ كتابتها. وعلى كُلٍّ فإن

(٢) الصعقة هنا من تجهّم وجه الدكتور الألوسي، لا من خبر موت الملك غازي.

الفرق بينَ كِتابةِ القِطعة ونَشْرِها قليلٌ جِدًّا، كما يرى القارىء أحياناً من مُقارنة تاريخِ كتابة القِطع بتاريخ نَشرها). ويحسُنُ أن أذكُرَ أنّني كنت أحياناً أكْتُبُ عَدداً من القِطعِ في يومٍ واحدٍ ثمّ يأتي من يأخُذُها إلى جريدةِ السفير.

* وفي عددٍ من الأحيان لا يظهَرُ تاريخُ نشرِ القِطعة (في آخرِ القِطعة إلى يَسار القارىء). ولذلك تفسيرانِ: إمّا أن أكونَ أنا قد غَفَلْتُ عن قطعِ القِطعة من الجريدة فأثْبَتُّها في هذا الكتابِ من النُّسخة الثانية لها، أو أنْ تكونَ الجريدةُ لم تنشُرْ تلك القطعة.

إنّ كلّ ما أنشره في الجرائد اليومية لا أتناولُ عليه أجراً (مَعَ أنّ بعضَ الجرائدِ قد عرضتْ عَليَّ دفعَ مثلِ هذا الأجر). وسَبَبُ ذلك أنّني إذا قَبِلْتُ أجْراً على ما أكْتُبُه كان من الواجب عَليَّ أن أكتُبَ ما يُوافِقَ سياسةِ الجريدة، بينَما أنا أُريدُ من نشر تلك القِطع وأمثالِها أنْ أُعَبِّرَ عن نفسي أو أن أدُلَّ على عددٍ من أحوالِ المُجتمع تَحْرِصُ الجريدةُ على ألاّ تَتَعرّض له (وقدِ آعتذرتْ الجرائدِ أحياناً عن نشرِ عدد من القِطع بأعذارٍ صحيحةٍ عندَها غيرِ صحيحةٍ عندي). ولم أعترضْ أنا على ذلك لأنّ من حقّ الجريدة أن تنشُرَ ما تُريد ما دُمْت أنا أيضاً أكتُبُ ما أُريد.

ثمّ لو أنّي قَبِلْتُ أجراً على كِتابةِ تلك القِطَعِ لَوَجَبَ علي أن أتقيّدَ بِزَمنٍ في تقديمِ هذه القِطع للنَّشْر. وهذا يتعذّرُ عليّ في عددٍ من الأحيان، لأنّي أكتُبُ هذه القِطعَ في أوقات فراغي (أقْصِدُ في الأوقات التي أمَلُّ فيها من «التأليف الرتيب». حينئِذٍ فقط أترُكُ التأليفَ الرتيبَ وأكتُبُ هذه القطع أو أكتُبُ قِطَعاً مِثْلَها، فتكونُ كتابتُها وسيلةً إلى شيءٍ من الاْستجمامِ من غيرِ أن يَضيعَ جانبٌ من وقتي من كَسَلٍ أو فَراغٍ (من قضاءِ وقتٍ لا عَمَلَ نافعاً فيه).

إنّ القِطَعَ المنشورةَ في هذا الكتابِ لا تزالُ في مجموعها قِطَعاً طويلةً. ومَعَ ذلك فإنّ فيها عدداً قليلاً من القِطَع القِصار. أنّ هذه القِطَعَ قد كُتِبتْ في السَّنوات

١٩٨٠ و١٩٨١ و١٩٨٢. وفي عام ١٩٨٢ بدأتُ أكتب قِطعاً قصيرةً جِداً. (كان بعضُها يُنشَر في جريدة «النهار»، وكان بعضُها الآخرُ يُنشَر في جريدة «اللواء». كانتْ قِطع جريدة اللِّواء تُنشَرُ يَوْمَ جمعةٍ. أمّا قِطَعُ جريدةِ النهار فكانتْ تُنشَرُ في أيامٍ مختلفة.

كانت تلك القِطَعُ مقروءةً:

- كانت قصيرةً جداً يقرأها الإنسانُ في بِضْعِ دقائقَ قليلةٍ.
- كان فيها صُوَرٌ لأحداثٍ جاريةٍ تُفسَّرُ تفسيراً صحيحاً واضحاً.
- كان فيها معانٍ سياسيةٌ مُغلَّفةٌ بأغشيةٍ أدبيّةٍ أو اجتماعيّةٍ.
- كان فيها موضوعاتٌ «صريحةٌ» مُعالجةٌ مُعالجةً حكيمةً.
- كان فيها أشياءُ يُحِبّ نفرٌ من الناس أن يقولوا مِثلَها في عالَمٍ لا يستطيعُ كلّ إنسانٍ أنْ يقولَ فيه ما يريدُ.

ومَعَ الأيامِ (في عام ١٩٨٤) أخذتْ إحدى الجريدَتَيْنِ تُباعد في النَّشْرِ بينَ قِطعةٍ وقطعةٍ ثمّ تَعلَّق النَّشر مُنْذُ مدّةٍ، ولا يزالُ إلى اليومِ (٢٤/٧/٨٤). ثم عادت إلى النّشر ثم قطعته.

ولكنْ في هذه الأثناءِ حَدَثَ أمرٌ مُهِمٌّ جِداً:

* أخذ نفرٌ يكتُبون «قِطعاً قصيرة» من حيثُ شَكْلُها الظاهرُ. وليس لي اعتراضٌ على ذلك، بل العكسُ صحيحٌ: لقد سَرّني أنْ بدأ نفرٌ يفعَلون ذلك ممّا يدلّ على أن تِلكَ القِطَعَ كان لها تأثيرٌ وأنّها كانت ذاتَ أثرٍ في التفكير. ولكنّ مُعْظَم الذين أخذوا يُقلّدون هذه القِطَعَ لم يكونوا يَمْلكون الثروة الثقافيّة الكافية. إنّ تَعْليمي في بَيتِنا قد بدأ على جَدّي، عام ١٩٠٩، ثمّ استمر على أيدي أبي وعَمّايَ وعَمّتايَ أيضاً، إلى جانب ما كُنْت أتعلّمُه في المدرسة.

* إن الذين أخذوا يكتُبون مثل تلك القِطع القصيرة كانوا يُريدون أن

يحْصُروا أنفسَهم في جُزْءٍ من بلدٍ مَجْموعُ ذَرْعِه جُزْءٌ من ثَمانِمائَةِ جُزْءٍ من مِساحة كَنَدا، مثلاً. أمّا أنا فأتناول هذه القِصَص والوقائعَ والأفكارَ من طُولِ هذه الأرضِ وعَرْضها. ثمّ إنّي أتناولُ ما أقولُه من التاريخ كُلِّه.

* أنا لا أُنكِرُ أن الذين يكتُبون كما كَتَبْتُ يَسْتَمِدّون ما يكتُبونه من اختبارٍ شخصيٍّ لهم. وأنا الآنَ لستُ في سبيلِ الحُكم على اختبارِهم هذا. ثمّ إنّي لا أَحمِلُ أحداً على قراءة ما كَتَبْتُ، ولا أنا أمنعُ أحداً من قِراءة ما يكتبون هم.

وأنا لا أدّعي أنّ القِطع التي آتي بها هنا قِصَصٌ مُبْتَكَرةٌ. إنّ عدداً منها معروف منذُ زمنٍ طويل. غير أني وضعتُ عدَداً من تلك القِصص القديمةِ في «تعبيرٍ جديدٍ عن أحوالٍ اجتماعيةٍ جديدةٍ. إنّ عبدالله بنَ المُقَفَّع لمّا وَضَع كتابه «كليلة ودِمنة»[1] أخَذَ قِصَصَ كِتابه هذا من الشرق (من فارِسَ والهندِ ومِن الصين أيضاً) ومن الغرب (من اليونان)، ولكنّه ساق تلك القِصَصَ القديمةِ في سِلْكٍ جديدٍ وفي إطارٍ اجتماعيٍّ جديد.

*

وعَهْدي بكتابةِ هذه القِطَعِ القِصار بعيدٌ. لقد بدأتُ نَشْرَ مثلِ هذه القِطَعِ في مجلّةِ «الأمالي»[2]. نشرت قِطعاً منها:

- الصدر الأعظم (٢٣/١/١٩٣٩)،
- كِسرى والحلّاق (٣/٣/١٩٣٩)،
- صلوة الجمل (٢٤/٣/١٩٣٩)،

(١) راجع: «أمنقول كتاب كليلة ودمنة أم موضوع؟» (تاريخ الأدب العربي للمؤلّف) (٢ : ٥٤).
(٢) مجلّة ثقافيّة اسبوعيّة (١٩٣٨ ـ ١٩٤١) أصدرتها مع نفر هم الدكتور محمّد خير نويري وعارف أبو شقرا ومحمّد علي الحوماني وعبدالله المشنوق وزكي النقّاش.

ـ قرية النمل (٢٨/٧/١٩٣٩).

وأُحِبُّ أن أُورِدَ فيما يلي القطعةَ التي كان عُنوانها: صلوة (صلاة) الجملِ (أي الدُّعاءُ الذي توجّهتْ به جماعةُ الجمال إلى الله تعالى):

تُسَبِّحُ له السمواتُ السبْعُ والأرضُ ومَنْ فِيهِنّ؛ وإنْ مِنْ شيَءٍ الاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه، ولكنْ لا تفقَهونَ تسبيحَهم. إنّه كان حليماً غفوراً» (١٧ :٤٣، سورة الإِسْراء).

رَوَى لنا السَّلفُ، ولا يزالُ المُتَقدّمون مِنّا في السِّنّ يَرْوُونَ القصة التاليةَ. إنهم قالوا:

آجتمعتِ الجِمالُ يوماً وشَكَتْ أمرَها فيما بينَها ثمّ بَثّتْ شكْواها ممّا يُحيقُ بها من الظُّلم وما يَنْزِلُ بها من العَسْف، حتّى خرجَ آحتمالُ حالِها عن طَوْقِها. ثمّ إنّ الجِمال رأتْ أنْ تَدْعُوَ الله وتشكُوَ إليه حالَها وتتضرّعَ إليه في مآلِها، لعلّ الله يجعَلُ بعدَ عُسْرٍ يُسْراً.

غيرَ أن نفراً من الذين رَوَوْا تلك القِصّة أخرجوها من طريقٍ آخَرَ وساقوها في أُسلوبٍ أبرعَ فزعموا أنّ الجِمالَ جَعلتْ وفداً مِنها يَعْرِض شَكْواها على رَبِّ العِزّة. كذلك قالَ الذين من قَبْلِهِم أيضاً.

إنّ الجمَلَ، وهو الصبور الحليم الأليف الوَدود الوديع الكريم، إذا بَلَغَتْ به الحال إلى ما بلغت بجماعة الجمال فإنّه يخْرُجُ عن طَوْرِه وينطلقُ من عِقال نفسه، ثمّ يُعلِنُ ما يُكِنُّه صدرُه. بعدئذٍ لا يُبالي ما فعَلَ. وإنّك لا تَدْري أيُّ خَلْقِ الله أقربُ إليه: «وأوْحى ربُّكَ إلى النَّحلِ أنِ آتّخِذي من الجبال بُيوتاً ومن الشَّجر وممّا يَعْرِشون. ثمّ كُلي من كلّ الثَّمرات فاسلُكي سُبُلَ ربِّك ذُلُلاً؛ يخْرُجُ من بُطونِها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شِفاءٌ للّناس. إنّ في ذلك لآيةً لِقومٍ يتفكّرون».

قالوا: لَمّا مَثَلَ وفدُ الجِمال في حَضرةِ ربِّ العِزّة، تكلّمَ واحدٌ منهم قائلاً:

«اللّهُمَّ، إنّنا نَبْتَهِلُ إليكَ وندعوك. وقد قُلتَ: آدعوني أسْتَجِبْ لكم. اللّهُمّ، اللّهُمّ، إنهم رأَوْنا قادرينَ على حملِ الأحمالِ فأثْقَلوا ظُهورنا، ولكنّنا صَبَرْنا. ثمّ إنهم رأَوْنا نَصْبِرُ على الجوع والعطش فأجاعونا وأظمأونا، غير أننا آحتمَلنا. ورَأوْنا نُطِيقُ الألَمَ فَعَلَوْنا بالعَصا. ورأونا حُلماءَ غيرَ سُفهاءَ، ودُعاءَ غير جُفاةٍ فسَلّطوا علينا سُفهاءَهم وغِلاظَ الرِّقابِ منهم. ومَعَ ذلك فقدِ آسْتَسْلَمْنا وآعْتَصَمْنا.

«اللّهُمَّ، إنّهم لم يَقِفوا عندَ هذا الحَدِّ، بل تَعَدَّوْهُ. لقد قالوا إنّ مَنشأنا الصحراءُ القاسيةُ الخَشِنة فتركونا على مِهادٍ قاسٍ خَشِنٍ، وأعْطَوْنا طعاماً خَشِناً ولِباساً خَشِناً. ثمّ إنهم رَأَوْنا ذواتِ نفوسٍ طَيّبةٍ نَصْبِرُ على الجَفاءِ فأهانونا في نُفوسنا ووَصَمونا بالمعايب والنقائص. وكانتْ أمورُنا من مَطْعَمٍ وملبسٍ ومشربٍ ومَبِيتٍ ومسرحٍ بأيْديهِمْ فساموْنا سُوءَ العَذابِ ولَمَزونا بالألقاب. وكانوا إذا أرادوا أن يتَفَكّهوا جعلونا أحاديثَ وآفْتَرَوْا الأكاذيبَ علينا. وإنّهم كُلّما رأَوْنا في نِعْمَةٍ مِنكَ حَسَدونا وكادوا لنَا.

«اللّهُمَّ، قدِ آبْتُلِينا بِكُلِّ هذا فصَبَرْنا. ولكنّ هنالك أمراً واحداً لا نَصْبِرُ عليه ولا نُطيقُ أن نَصْبِرَ عليه. إنّهم إذا أرادوا أن يَحْمِلوا علينا أثقالَهم جَمَعونا قِطاراً يبلُغُ خمسينَ جَمَلاً أو سِتّينَ ثمّ رَبَطونا إلى حِمارٍ يَقودُنا خلْفَهُ.

«اللّهُمّ، إنّنا لا نشكو إليك إلاّ ذلك. لِماذا أردتَّ أنْ يكونَ السائرُ على رأسِنا حِماراً؟»

*

ولا بُدَّ من كلمة في أُسلوب هذه القِطع:

سيَلْحَظُ القارىء بلا ريبٍ أن هنالك شيئاً من التّرديد في المعاني وفي التّعابير وفي الأحداث الجانبيّةِ أيضاً. إنَّ هذا مُنْتَظَرٌ في قِطَعٍ كُتِبتْ في مدى ثلاثِ سَنَوات كِتابةً مُتفرّقة. ولَعَلّك تقرأ أيضاً مِثلَ هذه الجُملة: «كتبتُ في الأسبوع السابق، أو في المرّة السابقة»... ثمّ لا تَجد مِثْل ذلك في قطعةٍ سابقة (في هذا الكتاب). إنّ سببَ ذلك أنَ هذه القطع قد كُتِبتْ في الأصل ِ على غيرِ سِياقٍ مُتَوالٍ وأنني أحْبَبْتُ أنْ أجعَلَها مَنْسوقةً في هذا الكتاب في سلسلةٍ تاريخيةٍ من أحداثِ حياتي قَدْرَ المُستطاع.

واللهَ أسألُ أن تكونَ خطواتُ حياتِنا جميعاً في رضا الله تعالى وفي خيرِ أُمّتنا. إنّه سميعٌ مُجيب.

٢٦ صفر ١٤٠٥ = ١٩٨٤/١١/١٩

ع. ف.

خمسة وستون عاماً في الصحافة (١)

في صيف عام ١٩١٦، وأنا في العاشرة من العمر، قال لي ابن عمتي ـ وكان عُمرُه كعمري واسمه كاسمي ـ: أتريد أن توزع جرائد؟ فقلت له: نعم.

ذهبنا إلى جريدة «الحقيقة» لصاحبها الشيخ احمد عباس الأزهري، وكان الشيخ احمد عباس خالُ أبيه. كانوا يعطوننا في كل يوم نحو عشرين جريدة نوزّعها في مِنطقة المرفأ، فقد كانت مطبعة جريدة «الحقيقة» على مقربة من محطة السكة الحديدية:

بعد أُسبوعين استحق الأجرُ: ثلاثَ ليرات في الشهر (وكان أجار بيتنا ـ في رأس بيروت قرب المنارة ليرة واحدة في الشهر). دخلت أنا وابن عمتي على الشيخ احمد عباس (وقد كان هو صاحبَ الجريدة ورئيسَ التحرير وأمين الصندوق) فأعطى ابن عمتي أوراقاً (من فئة الخمسةِ قروشاً والعشرة قروشاً) جديدة. وأعطاني أوراقاً قديمة. قلت له: أريد أوراقاً جديدة. فقال: ليس إلا هذه.

كل ما أذكره الآن أنني ألقيت هذه الاوراق القديمة أمامه على الطاولة (كيلا أقول شيئاً آخر) وخرجت.

هذه الحركة البريئة يومذاك قد طبعت في نفسي أمراً أعمل به الى اليوم. لا أذكر أنني في حياتي المدرسية ـ منذ عام ١٩٢٨ ـ كنت أحرص على قبض راتبي في زحمة الدفع في آخر الشهر. كنت عادة إذا مررت بأمين الصندوق ورأيت المعلمين مزدحمين عنده عُدتُ في اليوم الثاني أو الثالث أو بعد اسبوع. وفي أيام الاحداث (منذ عام ١٩٧٥) ـ وجمعية المقاصد لم تنقطع قط عن دفع رواتب المعلمين في حينها، حتى في الأيام التي كانت الدراسة فيها معطلة ـ كنت ربما قبضت راتب شهرين أو أكثر معاً.

لا أرى فائدة من مزاحمة المعلمين الآخرين يوم القبض الرسمي، فإن من الثلاثين الى الثلاثين شهراً، وإن من اليوم الخامس الى اليوم الخامس شهراً.

بقي أمر آخر: الحاجة الى المرتب الشهري.

لا شك في أن المعلم لا يستطيع أن يعيش حياة كريمة بمرتبه من التعليم فقط. وإذا شاء المعلم أن يحمل رسالة فلا بد من أن يكون له دخل آخر.

أريد من القارىء أن يتأمل الجملة التالية:

لي خمسة اولاد أتمّوا دراستهم: وأبنائي الثلاثة تابعوا الدراسة في مصر ثم في انكلترا وفي الولايات المتحدة. فهل من الممكن أن يقوم أب معلم بمثل هذا العبء من مرتب التعليم وحدَه، مهما يكن ذلك المرتب عالياً؟ وشيء آخر: لم اسأل أحداً معونة.

(٨١/١٠/١٧) ١٩٨٢/١/٩ (ص ١٠)

لَمَحات

لا يُـلامُ المـريضُ إنْ لَقِيَ المَـوْ ت، ولكنْ يُـلامُ فيـه الـطبيبُ.

١٩٨٤

خمسة وستون عاماً في الصحافة (٢)

في صيف ١٩١٩ قال لي عمّي حُسينٌ، رحمه الله، لماذا لا تعمل في الصيف عملاً تستفيد منه؟

أخذني الى جريدة «لا سيري» الفرنسية (لصاحبها جورج فيسيه)، ويبدو أنه كانت له معرفة بمدير الإدارة فيها جورج فاليري. سلّمني جورج فاليري الى العاملَيْنِ في مكتب الجريدة: محمد المغربي وجوزف قسيس، وعهد إليّ هذان بتنظيف الحمّام وما يتبع الحمّام.

كانت والدتي رحمها الله قد عوّدتنا العمل في البيت: كنا (أنا وأخي وأختي) نعجن، وكنا أيضاً نساعدها يوم الغسيل ويوم التمسيح في أمور نقدر عليها.

في اليوم التالي، بعد أن دخل جورج فاليري الى الحمّام سأل عن الذي نظّف الحمّام في ذلك اليوم؟ فقالا له: عمر.

استدعاني جورج فاليري (وكان فرنسياً تربى في مصر مدة طويلة) وقال لي بلهجته المصرية الممزوجة بالفرنسية بتعرف (بفتح الراء) فرنساوي (بفتح الفاء والراء وبتفخيم الكلمتين) فقلت له: نعم (ولم أكن أعرف يومذاك من اللغة الفرنسية إلا بضع كلمات). استكتبني عدداً من الكلمات والجمل فرضي معرفتي، فأمر بأن توضع لي طاولة في الدار وأن أتولى إعداد لفائف المشتركين (أوراق مستطيلة عليها عناوين المشتركين في الجريدة، تلف بها الجرائد لترسل إلى أصحابها بالبريد). وكتابة اللفائف (إذا كان جانب من تلك اللفائف قد نَفِد أو إذا كان هنالك مشتركون جدُد لم تطبع لهم لفائفُ بعد).

كان مرتبي الشهري ثلاثة جنيهات (وكان المعلم يبدأ راتبه بجنيهين وربع). ولما انتهى الصيف وأردت الالتحاق بالمدرسة الابتدائية التابعة للجامعة الأميركية

قال لي جورج فاليري: بإمكانك أن تستمر في العمل عندنا وتأتي في كل يوم ساعتين بعد المدرسة لإعداد لفائف المشتركين (وجعل اجري على تَيْنِكَ الساعتين جنيهاً واحداً في الشهر ـ حتى جاء الصيف التالي فعاد مرتبي الى مبلغه القديم أو زاد).

في ذلك الحين كانت الحرب دائرة بين اليونان وتركية. وكنت أنا أحمل موادَّ الجريدة الى مطبعة جدعون (وراء التياترو الكبير) وكان العمال هناك نصارى. ففي اليوم الذي تأتي فيه أخبار بانتصار اليونان كانوا يسمعوني كلاماً نعرف مثلَه في مثل تلك الأحوال في هذا البلد. فكنت أسكت ويكثرون هم الكلام. وأما في اليوم الذي كانت الاخبار آتيةً بانتصار الأتراك فكانوا لا يقولون شيئاً. وكنت أنا أيضاً أسكت.

ولكن كان هنالك فرق كبير بين سكوتهم وسكوتي.

(٨١/١٠/١٧) ١٩٨٢/١/١٦ (ص ١٠)

لَمَحات

سَألوني عَن الصِّبا بعد شَيْبي لا رَعَى اللهُ للصِّبا أيامَهْ.
زَمَنٌ غادِرٌ وعهدُ غُرورٍ ونَدامَى قد أوْرَثوني نَدامَهْ.
يُسْرِعُ الدّهرُ في الصِّبا والمَلاهي فكأنّ الشّبابَ يَبْغي السَّلامَهْ

خمسة وستون عاماً في الصحافة(٣)

في العام المدرسي ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ كنت في الصف الرابع من الدائرة الإستعدادية في الجامعة الأميركية، وقبيل عطلة نصف السنة (شباط ـ فبراير ١٩٢٣)، طلب منا أستاذ اللغة العربية ـ نجيب نصار (ت ١٩٣٠) ـ أن نكتب موضوعَ إنشاء طويلاً في «الطيران»* وأن نقدمه بعد العطلة مباشرة.

ولما بدأت عطلة نصف السنة بدا لي أن الحالة الاقتصادية في بيتنا لا تجعل الأمل كبيراً في الرجوع الى الجامعة. ومعَ ذلك فقد عُنيت بهذا الموضوع عناية كبيرة (بحسب سني يومذاك، سبعةَ عشرَ عاماً). ولكن قبيل انتهاء العطلة يسّر الله الأمور فأعطاني والدي القسط الثاني فدفعته.

في يوم رجوعنا إلى المدرسة جمع الأستاذ نصار الأناشي، فكان منا من كتب الموضوع طويلاً، وكان منا من لم يكتب الموضوع (واعتذر للأستاذ بضيق الوقت وبأن أشغالاً عرضت له فمنعته من كتابة الإنشاء المطلوب).

وبعد بضعة أيام ردّ الأستاذ نصار الموضوعات إلى تلاميذ الصف، ولم يردّ إليّ موضوعي. ولكن بعد الدرس قال لي إنه أعطى الموضوع لجريدة «الأحوال» (أصدرها خليل البدوي عام ١٨٩١) وكانت في ذلك الحين ـ عام ١٩٢٣ ـ من أمهات الصحف. وبعد يومين أو ثلاثة أيام صدرت جريدة «الأحوال» وفيها مقالي (موضوعي في الإنشاء) وقد نشر في عددين متواليين لطوله. وكانت المفاجأة لي أن جانباً من كل قسم قد نشر في الصفحة الأولى.

وفي أواخر السنة المدرسية، طلب الأستاذ نصار منا أن نكتب موضوعاً طويلاً عن «الحرير». وحمل الأستاذ نصار موضوعي الى جريدة «الاحوال»، فنشرته الجريدة في عددها ٨٠١٩ والصادر في ١٣/٦/١٩٢٣. وكانت المفاجأة

هذه المرة أكبر، إذ بدأ نشر المقال في صدر الصفحة الأولى ابتداء من أعلى العمود الأيمن، وقد جعلت جريدة «الاحوال» عنوان هذا المقال: بحث جليل في صناعة الحرير.

لقد دلّني الأستاذ نجيب نصار على طريقي إلى الصحف، فكنت أرسل المقالات المختلفة إلى جرائد البلد: إلى «الرأي العام»، إلى«البيان»، إلى «المعرض» وغيرها (وإذا أنا رتبت القصاصات الكثيرة فسأعرف بالتفصيل أسماء الصحف والمجلات التي كنت أرسل إليها المقالات منذ عام ١٩٢٣).

إن عمل المعلم لا يقتصر على إلقاء الدروس في الصف، ولكن المعلم يجبُ أن يكون أباً للتلاميذ، وعليه أن يكتشف مواهبهم وأن يُعدّهم ـ بعد التأمل في هذه المواهب ـ لحياتهم المقبلة.

(١٨/١٠/١٩٨١) ٢٣/١/١٩٨٢

لَمَحات

كم يُـريـدُ الصِّبا . فـأَمْلِكُ نفسي ... فَيَهُـزُّ الشّبـابُ نحـوي حُسـامَـهْ .
فـأنــا بَـيْـنَ سَـقْــطةٍ أَتّـقـيـهــا ... وجَـوًى ثـارَ لا أُطِيقُ ضَـرامَـهْ .
فَيَمُـرُّ الشَّبـابُ حَـرْبـاً سِجـالاً . ... هـلْ تَراني من بَعْـدُ أبْغي دَوامَـهً؟

البطاطا والمرآة

في عام ١٩٢٥ كان يعلّمنا اللغة الانكليزية في الدائرة العلمية من الجامعة الأميركية في بيروت معلم شابٌّ لا أظن أنه كان قد وصل إلى الثلاثين من عمره. كان اسمه ماكي (بتشديد الكاف). لا أدري كم تعلمنا منه من الانكليزية. فقد كان لفظه على خلاف لفظ سائر الأساتذة. كان يلفظ كلمة «دفجن» (بكسر فكسرفكسر) دفيجن (بكسر فمد طويل فكسر).

ولكنه كان أستاذاً مرحاً، وكانت له في أثناء الدروس لَمَحات برّاقة (وفي ذلك نفع للنبهاء من التلاميذ). قال لنا مرة إن - جَدّته كانت تقول: إن البطاطا في أيام صباها كانت أطيب من البطاطا في تلك الأيام من شيخوختها، وكذلك كانت تقول إن صانعي المرايا أصبحوا جهلة، فالمرآة الجديدة لا تري الوجهَ جميلاً كما كانت تريه المرآة المصنوعة في أيام صباها. وضحك المستر ماكي، وضحكنا معه طبعاً.

لقد كنا مخطئين حينما ضحكنا في ذلك اليوم، كما كان أستاذنا أيضاً مخطئاً. أما الصواب فكان ذلك الذي قالته جدته. إن البطاطا في أيامنا هذه لا طعم لها (ولا أعلم مقدار النفع الذي فيها). أنا أذكر أننا حينما كنا نقلع شيئاً من البطاطا (يوم كنا نسكن في رأس بيروت - في أيام الحرب العالمية الأولى) كانت تلك البطاطا طيبة يلَذ (بفتح اللام) لك أن تأكلها مسلوقة أو مشوية أو مقلية وبلا خبز. كانت البطاطا صغيرة الحجم، فكان طعمها مركزاً فيها. أما اليوم فإن التجار (والتجار في الدنيا هم الفجار يوم القيامة) يرغبون في تسميد نبات الخضار وأشجار الفاكهة بالسماد الصناعي، فتكبر حبات الثمر ويتوزع الطعم الذي كان في الثمرة الصغيرة على حجم الثمرة التي أصبحت اليوم أضعاف ما كانت عليه في الماضي. والذين كانوا يعجنون في بيوتهم ويأكلون الخبز القمح (الأسمر) الذي لم

يُجَرَّدْ من نخالتهُ (بالضم)، يذكرون أن ذلك الخبز كان ذا رائحة زكيّة وطعم لذيذ ونفع صحيح. ومثل ذلك أطعمة كثيرة، كالدجاج مثلاً (وهو يربّى اليوم على عناصر الفيتامين).

كنت أريد أن أضرب أمثلة من صنائع مختلفة، كالبناء والحدادة والنجارة و. و. . . لأدلّ على الرغبة في الربح المادي بلا اتقان ولا نصح للناس. غير أني لا أريد أن يظن قوم من الناس أنني أعرض بهم أو أشير اليهم من طرف (بفتح فسكون) خفي.

١٩٨١/٥/٢١

١٩٨١/٦/٢٠

لَمَحات

إن شَكَوْتُ الغَرامَ قالوا: جَبانٌ ... هامَ دَهْراً وباتَ يخشى هُيامَهْ.

لا تُقَدْ إنْ سَمِعْتَ رأياً غريباً ... فَغَريبُ الآراء قَيْدُ المَلامَهْ.

هم يقولون لي: الوِصالُ حَلالٌ. ... خَلِّ عَنّى حَرامَهُ وحَلالَهْ.

الفقر والغنى

هذا موضوع دفعته عن قلمي مدّة طويلة ثم وجدت أن أكتب فيه هذه القطعة. الفقر والغنى أمر نسبي.

في نحو عام ١٩٢٥ جاء الأمير سليم بن السلطان عبد الحميد (بعد إلغاء الخلافة العثمانية) لاجئاً إلى لبنان وسكن في بيت كان قبيل مدخل جونية (إلى يمين القادم من بيروت ـ وقبل مفرق الزوق). ولعل هذا البيت هو الذي سكنه، فيما بعد الحاج أمين الحسيني.

قال لنا الدكتور أسد رستم (أستاذ التاريخ في الجامعة الاميركية) يحسن أن نزور هذا الأمير ونرى ما عنده من مصادر التاريخ. وكان قد جُعِلَ لسليم بن عبد الحميد إعانة (لأنه لاجيء ومحتاج).

لم يكن قد مضى على قدومه زمن كاف لترتيب بيته. وأدهشني ـ لما دخلنا مسكنه ـ أن نرى قرب المدخل قطعاً من الأثاث الثمين (لا تزال مهملة، إذ لم يكن لها مكان في داخل البيت). وكان في تلك القطع من الأثاث واحدة أوِ آثنتانِ أغلى ثمناً من كل شيء كان موجوداً في بيتنا.

من الغريب والمألوف معاً أنك إذا ذكرت الفقر والغنى لم يذهب فكر معظم الناس إلا إلى قلة المال وكَثرته. مع أن الفقر الحقيقي إنما هو في عقول الناس لا في جيوبهم.

حينما كان راشد الحوري (بالحاء بلا نقطة) يبني مدرسة البِرِّ والإحسان في الطريق الجديدة ذهب إلى غنيّ من أغنيائنا الكبار (كان له قصر على طريق المطار وتولّى رئاسة الوزارة في عشر الستّين ـ ولا تقل: في الستينات) وطلب منه أن يساهم بثمن غرفة في تلك المدرسة (وثروته كانت تزيد على ستين... مليوناً

بالإضافة إلى تجارته في بيروت والسعودية). فقال ذلك الغني لراشد الحوري: «والله، يا راشد، الأحوال الآن ضيّقة».

وكنت أعرف رجلاً (هو الآن في رحمة الله) وكانت ثروته تزيد على ثروة صاحب القصر على طريق المطار خمسمائة ضعف). جاء هذا الرجل إلى صديق له ولأبيه من قبله، وصديق لي أيضاً،وقال له: يا فلان، خذ كل ما لي من مالٍ وتولَّ عني الإنفاق على ما أحتاج أنا إليه.

ثم أنْحَدِرُ معك إلى تلك الطبقة التي تسمى ـ ظلماً وعدواناً ـ كادحة. يجلس أحدهم طول نهاره في المقهى أو يتنقّل من مكان إلى مكان يشكو الزمان ويسبّ الدولة ويتمنّى السوء لمن أنعم الله عليهم بحبّ العمل. وأمثال هذا الرجل لا يعرفون قول عمر بن الخطاب: «إنّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة».

لو أن هؤلاء الناس آنصرفوا الى العمل المنتج ـ بدلاً من الجلوس في المقاهي، وبدلاً من شتم الدولة وبدلاً من عرقلة أعمال الناس وإضاعة الوقت في منع العاملين عن العمل ـ لما كانوا يشكون مما يشكون في العادة منه.

إن الجاهل هو الذي لا يريد أن يتعلّم،

وإن المريض هو الذي لا يطلب الشفاء،

وإن الفقير هو الذي وهبه الله عقلاً ثم هو لا يستخدم ذلك العقل الذي وهبه الله إياه.

إن ابن خلدون لا ينكر أن الفرد بعد الفرد يمكن أن يقع في حين بعد حينٍ على ركيزة (كنز في باطن الأرض) ولكن لا يجوز لكل إنسان أن ينام في الشمس طول حياته وهو يَحلُم بأنه سيقع على كنز كبير.

ولا نكران أيضاً في أن في باطن الأرض كنوزاً كثيرة، ولكن يجب على الإنسان في سبيل الحصول على هذه الكنوز أن يَحْفِرَ في الأرض حتى يصل إلى الكنز.

(١٩٨١/٩/١١) ١٩٨١/١٠/٢٤

صورة بالكلمات

كنـا تلميذين في الجـامعة الأميـركية في بيـروت : كان هـو أكبرَ مني سنّـاً وأعلى في صفوف الدراسة. وكان بيننا مودَّة. فلما ذهب إلى فرنسة لمتابعة علمه أرسل الي ـ كما أرسل الى نفر آخرين من رفاقه في بيروت ـ بـطاقة يعلمني فيهـا بـوصولـه وآستقراره. وذهبت أنـا إلى المانيـا لمثـل غـايتـه ، ولكن بعـده بسبـع سنـوات. وزرت ، وأنا في المـانية ، بـاريس مرتين ومكثت في كـل مـرة منهمـا اربعين يـوما. كـان هو لا يـزال في باريس، ولكن لا اذكـر أنني اجتمعت به مَـعَ رغبتي في ذلك.

كانت له في الحيـاة فلسفة مخـالفة لـرأيي. أنا عـرفت ثلاثـاً وخمسين مدينـة وبلدة وقرية في المانية ـ فان العلم ليس مقصورا على الكتب المـطبوعـة، ولكنه يؤخذ أيضاً من «كتاب الطبيعة». أما هو فقد قال الذين كانوا جيرانه بيتَ بيتَ إنـه لم يعـرف في فرنسـة كلها غيـر الغرفـة التي كان يسكنهـا، ولـم يعرفـوا هم عـدد الدروس آلّتي حضرها في الجامعـة. كانت فلسفتـه في الحياة أن يكـون في كل حين وإلى جانبه شخصية (بفتح الشين. والشخيص في القاموس الانسان العظيم الجسم).

ومكثت في المانية عامين رجعت بعدهمـا الى بيروت. ثم عـاد هو بعـدي بثلاثة أعوام يحمل ورقـة مثل الـورقة التي عـدت انا بهـا. غير أنـه لم يستطع ان يعمل العمل الذي كان مـذكورا في ورقتـه. ولكنه استـطاع ان يعيش على شيء من الراحة والرفاهية، لأن أهله كانوا على شيء من الوجـاهة والمكـانة والثـروة. ولعل وفاته كانت منذ نحو عشرين سنة، ولـم يتزوج.

أن نفراً كثيرين من التلاميذ لا يفهمون قولي حينما أقول لهم : أن الشهادة لا فائدة منها في نفسها ، إنها مفتاح يفتح لك بـاب الحياة. وبعـدئذ يصبـح هذا

المفتاح لا قيمة له ولا عمل.

وفي كـل مرة يسـأل نفـر من التـلاميـذ: مـاذا تقـدّر أن يـأتينَـا من الاسئلة في الامتحان؟ هم يظنون أن الجواب الذي يرضي الفـاحص، فيضع الفـاحص عليه في ورقة الامتحان علامة مرتفعة، هو كل شيء في العالم وكل ما في الحياة.

من الأفضل أن يكون مَعَ الانسان وثيقة بعمله الذي حصله لا بـالمدة التي قضاها منتسباً إلى المدرسة يجلس على مقاعدها أحياناً.

٨١/٥/٣٠ ١٩٨١/٦/٢٧

أساتذتي . . . في بيروت

حياتي المدرسية قبل عام ١٩١٩ تحتاج إلى كتاب. لقد كان كل شيء فيها أساساً راسخاً في التربية، ولكن إلى ذلك الحين لم تكن شخصيتي قد بدأت تردّ على التحدّي، كما حدث فيما بعد. غير أني أريد أن أذكر أسماء، لعل نفراً من القراء لا يزالون يذكرونها. تعلّمت أشياء على الشيخة حليمة الفيل ـ الشيخ يوسف الحلواني ـ الشيخ عثمان العيتاني ـ الشيخ راشد عليوان ـ الشيخ محمد ناصر (رحمهم الله جميعاً) ـ الأستاذ منير اللاذقي (مدّ الله في حياته)، وغيرهم.

في العام ١٩١٩ دخلت المدرسة الإبتدائية التابعة للجامعة الأميركية في بيروت (مدرسة رأس بيروت). وفي العام ١٩٢١ آنتقلت إلى الصف الثالث (من الدائرة الإستعدادية) في الجامعة الأميركية.

كنا في ذلك الحين سعداء من جانبين: كانت الجامعة الأميركية لا تزال تَفرِض على طلابها فنوناً كثيرة، وكانت الرياضة البدنية (السباحة وألعاب القُوى) لا تزال مادةً في الامتحان ولها علامات. وفي الدائرة العلمية لم يكن الطالب يبدأ التخصص قبل السنة الثالثة: من أجل ذلك تعلمت في الجامعة الأميركية (١٩٢١ ـ ١٩٢٨) أربع لغات: العربية والإنكليزية والفرنسية والألمانية، ثم الحساب والجبر والهندسة . . . وسمعت أشياءَ من علم الحيوان (هذا إذا نحن ذكرنا كبار الموضوعات). إن هذا التنوّع في الموضوعات يوسّع أفق الطالب.

ثم كنا أيضاً سُعداءَ فيما يتعلق بالأساتذة. كان من أساتذتنا في الدائرة الإستعدادية: الدكتور فيليب حتي (للتاريخ) وبيارد ضودج (للأخلاق) وقد أصبح فيما بعد رئيساً للجامعة، ثم والتر رايت وقد أصبح فيما بعد أيضاً رئيساً للجامعة الأميركية في استانبول. أما الأساتذة في الدائرة العلمية فحدث عن البحر

ولا حرج. ثم أن الجامعة كانت تستقدم نفراً من المشهورين لإلقاء محاضرات عامة: سمعنا حافظ ابراهيم وأمين الريحاني ومي زيادة وخليل مطران والمؤرخ براستد والمستشرق مـارغوليـوث وغيرهم.

هنالك استدراك. سيقول لي بعضهم: «ونحن أيضاً سمعنا فلاناً وفلاناً وفلانة وفلانة». ولكن آسمع مني قصتين:

في السنة الأولى التي دخلت فيها إلى القسم الثانوي (الدائرة الاستعدادية)، كنت في الخامسةَ عشرةَ، وكانت الجامعة لا تزال تدرس التوراة. فاجتمعنا نحن وقلنا للمدير: نحن لا ندرس التوراة. فأقرت الجامعة تدريس الأخلاق مكان درس التوراة، ولكن قررت علينا كتاباً كله قصص مأخوذة من التوراة.

دخل الاستاذ إلى الصف فأغلقنا كتبنا وتكلمت عن التلاميـذ كلامـاً واضحاً. بعد الدرس استدعاني المستر وليم هول (مدير الدائرة الاستعدادية)، وقال لي: أنت تثير الشغب في الصف. فقلت له ومن قال لك ذلك؟ فقال: أنا أقول ذلك. ثم أبلغني أنني سأحجز (أي سآتي إلى المدرسة يوم الأربعاء بعد الظهر. ويوم الاربعاء بعد الظهر كان لا دروس فيه). جئت إلى الحجز، وسلكت في الحجز مسلكاً صحيحاً سليماً. وفي يوم الخميس آستدعاني المدير وقال لي: أنا لم آمر بحجزك لأنك طلبت تبديل الكتاب. أنت كنت في ذلك على حق، وقد بدّلنا الكتاب. ولكني أمرت بحجزك لأنك فعلت ذلك بشيء من العنف (ومن ذلك الحين تعلمت عملياً أن أتوسل إلى غاياتي باللين، ذلك لأن العنف يولد مقاومة، والمقاومة المتبادلة مضيعة للوقت وللجهد وللغايات).

وبعد ظهر ذلك الخميس دعا معلم درس الأخلاق تلاميذ الصف إلى جلسة في غرفته، وكان في الجلسة طعام خفيف وشراب خفيف حلال، وكلام أخف

وأحلى. كان التلميذ جزءاً من المدرسة، وكان المعلم أباً للتلميذ، وكان الجميع أسرة واحدة سليمة صحيحة.

والقصة الثانية من الدائرة العلمية (١٩٢٦):

كان يعلمنا الأخلاق أدورد نيقولي عميد كلية الآداب (أو الدائرة العلمية). وفي أحد الأيام كان عندنا درس عن «الخلق» أو «الطبع». دخلت إلى الصف باكراً وكتبت على اللوح موضوع الدرس هكذا Karakter .

دخل الأستاذ نيقولي إلى الصف. فلما نظر الكلمة مكتوبة على اللوح، آلتفت الينا وقال: «من كتب هذا؟» فرفعت أنا يدي. فقال لي: «تعال إلى مكتبي بعد الدرس». ثم محا تلك الكلمة وبدأ تقرير الدرس.

وبعد الدرس ذهبت إلى مكتب الأستاذ نيقولي، فقال لي: «هل تريد أن تتعلم اللغة الألمانية؟» قلت له: نعم. فقال: اذهب وجئني بأسماء خمسة من التلاميذ يريدون أن يتعلموا اللغة الألمانية. فذهبت ثم رجعت إليه بعشرة أسماء. ومنذ ذلك اليوم أصبح تدريس اللغة الألمانية من منهاج الجامعة الاميركية مادة في برنامجها.

التربية والتعليم ليس الحضور إلى مباني المدارس، ولا الجلوس فقط بين يدي الأساتذة، ولكن التربية والتعليم أن يحتك التلاميذ بالأساتذة وأن يعنى الأساتذة بالتلاميذ كما لو كانوا يعتنون بأولادهم.

١٩٨٠/١٢/١٣ ٨٠/١٢/١

خمسة وستون عاماً في الصحافة (٤)

صدرت جريدة «الأحرار» عام ١٩٢٢، أسّسها موسى نمّور وخليل كسيب وجبران التويني، ثم صارت ملكيتها عام ١٩٢٤، إلى جبران التويني وخليل كسيب وسعيد صباغة (قاموس الصحافة اللبنانية ليوسف داغر، ص ٥٣)، ويبدو أن جريدة «الأحرار» أصبحت في هذا الطور الثاني شركة مضاربة: الجهد الأدبي لجبران التويني وخليل كسيب والبذل المالي لسعيد صبّاغة. وفي عام ١٩٢٦ أصدر جبران التويني «الأحرار المصورة» مجلة أسبوعية. وفي عام ١٩٣٣ أنشأ جبران التويني جريدة «النهار». وفي هذا العام نفسه بقيت جريدة «الاحرار» على عاتق سعيد صباغة وحدَه. ويبدو أن خلافاً على ملكية الاسم جعل سعيد صباغة يسمي الجريدة «صوت الأحرار». ثم انتقل ملك «صوت الأحرار» عام ١٩٤٩ إلى كميل يوسف شمعون.

وبدأت أنا الكتابة في جريدة «الأحرار» باكراً ثم استمررت أكتب فيها وفي وليداتها: «الأحرار المصورة» و«صوت الأحرار» و«النهار» ففي طبعي أمران لا أعرف كيف جاءا أليّ وأنا أحمَد الله على وجودهما في: الوضوح في العمل والثبات في المسير. في إحدى المرات التي كنت أحمل فيها مقالاتي إلى «صوت الأحرار» وجدت سعيد صباغة غاضباً. فسألته عن سبب هذا الغضب. فقال: ... جبران وخليل، كل واحد منهما أصبح «من هذه الجريدة» وزيراً، وأنا لا أزال هنا مكاني أدفع مالاً.

كانت طريقي إلى جريدة «الأحرار» برأي عمي حسن (ت ١٩٦٦)، كانت جريدة «الأحرار» ماسونية، واسمها «الأحرار» (الماسونيون الأحرار) واضح جداً، وكان جبران وخليل وسعيد من أعضاء هذه الجمعية، لما توفي الأب لويس شيخو

اليسوعي (١٩٢٧) ـ وكان شديد الكره والحملة على الماسونية والماسونيين ـ كان جبران التويني وزيراً للتربية ومثّل الدولة في مأتم شيخو. وعوتب جبران التويني في ذلك، فأجاب بذلك الجواب السياسي: رافقته لأَتَيَقَّنَ أنه لن يَرْجِعَ.

وكان عمي حسن، في مدة ما، «داخلاً في الماسونية»، ولكنه فيما بعد انقطع عن هذه الجمعية، وكان في جريدة «الأحرار» يكتب «مباسطات السبت» لم يكن يوقّعها باسمه، بل باسم ابن عمه سليم فروخ (ت ١٩٨٤). وقبل نشر «المباسطات»، كان عمي حسن وابن عمه سليم يراجعانها ويبدلان فيها أشياء تقلّ أو تكثر، ذلك لأن عمي كان عنيفاً أكثر مني (وهذا كان مما دعاه إلى جعل المباسطات بتوقيع غير توقيعه). وكذلك كان عمي يكتب في جريدة «الأحرار» مقالات متفرقة وتعليقات مختلفة بامضاء «طُفيلٍ الغَنَويّ».

ولما بدأت أنا الكتابة في جريدة «الأحرار» بدأت أيضاً بالكتابة بتوقيع مستعار «صريع» أو «صريع الغواني».

كان لهذا التوقيع قصة:

كان نفر منا في الجامعة الاميركية: أنا وحافظ وجميل ابراهيم طوقان ونديم بارودي (رحمهم الله) ووجيه بارودي نؤلف: «دار الندوة»، نجتمع في الحين بعد الحين فننظم قصائد معاً (وكان اهتمامي بالدروس أكثر من اهتمامهم. من أجل ذلك كان اجتماعي معهم قليلاً). في «دار الندوة» اختار ابراهيم طوقان لقب العباس بن الأحنف، واختار حافظ جميل لقب أبي نواس (وحافظ جميل من بغداد) واختار وجيه بارودي لقب ديك الجن (وديك الجن أو عبد السلام بن رغبان شاعر من حمص)، و(وجيه بارودي من حماة). فلم يبق لي من تلك الكوكبة من شعراء العصر العباسي الأول سوى لقب صريع الغواني مسلم بن الوليد. أما نديم بارودي فلم يتّخذ، فيما أذكر، لقباً لأنه كان يدوّن وقائع الجلسات فقط.

وربما سمّيناه الأصمعي لأن الاصمعي كان يروي أخبار الشعراء.

وفيما بعد تركت التوقيع بلقب صريع الغواني (إلا في الحين بعد الحين) وأخذت في توقيع مقالاتي باسمي الصريح. وكُنْتُ في عددٍ من الأحيان أُوَقِّعُ بالحرف «ع» أو بالحرفين «ع. ف».

كانت مقالاتي في الادب والتاريخ وفي الرُّدود (وخصوصاً على الأب لويس شيخو والأب هنري لامنس). كان لويس شيخو قد تُوُفِّيَ (عام ١٩٢٧)، ولكن الأب هنري لامنس كان لا يزال حياً (ت ١٩٣٧)، كان الأب لويس شيخو مغرماً بجعل كل شاعر عربي مسيحياً. وأما لامنس فكان يريد أن يُشَكِّكَ القارىء في كل جُهد إسلامي.

أما التفصيل فيما كنت أكتب في «الأحرار» و«النهار» فيحتاج الى مقال آخر.

٨١/١٠/٢١ ١٩٨٢/١/٣٠

لَمَحات

رُبَّ يومٍ كِدتُّ في ظَلْمائهِ أقتُلُ نفسي.
إنّما يَهْدأُ رَوْعُ الـ ـمَرءِ حيناً بالتَّأَسّي.
أنتَ لا تُدعى حليمَ الـ ـقَوْمِ في ليلةِ أُنْس.
فلقدْ يُعْرَفُ قَدْرُ الـ ـحِلْمِ في ساعةِ يأسِ.
يخرُجُ الإنسانُ في دُنْـ ـياهَ من بُؤسٍ لِبُؤس.

١٩٣٠/٩/١٢

خمسة وستون عاماً في الصحافة (٥)

في عام ١٩٢٧، وكنت لا أزال تلميذاً، عملت في جريدة «الحضارة» (وكانت قبل عام ١٩٢٧ تصدر في بغداد) لصاحبها منير اللبابيدي (وفي قاموس الصحافة اللبنانية. ص ١١٤ لصاحبيها طبارة ولبابيدي. ولعل طبارة هو صاحب المطبعة التي كانت تطبع «الحضارة» فيها). كنت أساعد في نقل (ترجمة) أشياء من اللغة الأجنبية، ولم يكن اسمي يظهر في هذه النقول، ولكن كنت أوقع باسمي أشياء من الشعر أو من المقالات التي لا تدخل في نطاق عملي الرسمي.

وبعد أحد عشر عاماً (١٩٣٨) انشأت مع نفر من أخواني (عبد الله المشنوق وزكي النقاش (مد الله في عمرهما) مجلة أسبوعية سمّيناها الأمالي ثم كان معنا محمد علي الحوماني والدكتور محمد خير النويري والأستاذ عارف أبو شقرا (رحمهم الله). راجت المجلة ثقافياً، أما في العام الأول فكانت الخسارة المالية ظاهرة، فلم يثبت لسد تلك الخسارة سوى الدكتور نويري وسواي. وأما في العام الثاني فقد غطت المجلة نفقاتها، تلك النفقات التي كانت في الأصل يسيرة. وأما في العام الثالث وكانت الحرب العالمية الثانية قد خطت خطوتين، فقد تركت المجلة وراءها رصيداً صغيراً.

وأصبح للمجلة مكانة: فُصِلَ في دعوى نَسَبٍ في بغداد بناء على سلسلةِ مقالاتٍ نَشَرَهَا الدكتور محمّد خير النويري في المجلّة في الأعداد ١٣، ١٨، ٢١، ٢٧ من السنة الأُولى، وكانت عناوينَها: الدّمُ وأنواعه في البشر وفوائدُ نقلِهِ من شخص لآخرَ - (في قسمين) - الدور الذي يلعبه الدَّمُ في الأُبُوّة والأُمومة - الزُّمرة الدَّمَويّةُ تَكْشِفُ حقيقةَ الأُبوّة والأُمومة المَشْبوهَتَيْنِ. وكذلك بَعَثَ أمين الريحاني بمقال وصورة وكلمة هي: أُرسِلُ هذا المقال لمجلة تحفظ حقوق الذين ينشرون فيها. لم نكن نوزع ألقاباً: الاستاذ كان عندنا من حصل على رتبة

أستاذ. والدكتور من كان يحمل هذا اللقب العلمي (في الطب أو في غير الطب). أما المستشرقون الذين نشروا في الأمالي فنفر عدة.

وكان لهذه المكانة ثمن باهظ: بدأت أنواع من الضغط تحيط بنا، المفوضية العليا الفرنسية عرضت أن تقدم الورق مجاناً (كان ماعون الورق، ورق الجرائد الأسمر، قد ارتفع إلى مائة وعشر ليرات)، وعرض آخرون غير ذلك. غير أنني قررت وقف المجلة عن الصدور، ذلك لأن الذين يَعرضون مساعداتهم اليوم سيطلبون «بدلاً» منها غداً. وكان ذلك علامة على أني سأصبح قطعة في آلة تتحرك (الآلة تتحرك لا القطعة) ثم إنني وجدت أن الصحافة (مع أن مجلتي كانت أسبوعية)، «رهان مع الزمن»، يجب أن تسابق الشمس في مسيرها حتى تظل أنت واقفاً في وجه العواصف.

من أجل ذلك كله أغلقت المجلة واتّجهت إلى تأليف الكتب. ولكن ما زلت أكتب في الصحف والمجلات إلى اليوم.

١٩٨١/١١/٢ ١٩٨٢/٢/١٣

أساتذتي . . . في البيت

لا شك في أن البيت هو المدرسة الأولى، ولا شك أبداً في أن الأمّ هي الأستاذ الأول في حياة كلّ طفل. ثمّ إنّ الأعمام والعمات والأخوال والخالات والأجداد والجدات والجيران والزوار، والرفاق والأصدقاء، كلّ هؤلاء يؤلفون المدرسة الكبرى التي يبدأ كلّ طفل بتلقي دروسه فيها. ثمّ إنّ هؤلاء جميعاً (ولو قلّ احتكاك الطفل بهم) أشد تأثيراً في نفس الطفل الغضة (الطرية) من الأساتذة الذين يجلس أمامهم طَوعاً أو كَرهاً على مقاعد الغرف في المدرسة المبنية بالحجارة.

لقد كان من حسن حظي أن نشأت في بيت فيه علم وفيه مكتبة (على قلة مثل هذا البيت في بيروت خاصة - وقديماً قالوا: بيروت مقبرة العلماء). كان جَدّي وأبي وعمّاي وعمتاي يقرأون ويكتبون (على قلة مثل ذلك بين المسلمين في القرن الماضي). وكان في بيتنا ثلاث لغات مُتْقَنَة (العربية والتركية والفرنسية) ثم لغتان ملموحتان (الإنكليزية والألمانية).

تعلمت من جَدّي لأبي الصلاة وقراءة القرآن والسباحة وشراء أغراض البيت من السوق.

وتعلمت من والدي السير الصحيح السليم في طريق الحياة. إن جانباً من أصدقائي، إلى اليوم كانوا من أبناء أولئك الرجال الذين كانوا أصدقاء والدي. وفي يوم من الأيام (عام ١٩١٠) أرسل والدي عربة أقلتني وحدي إليه ثم أخذني هو إلى مقهى فيه شيء من الرقص العربي.

كنت كثيراً، بعد ذلك، أتعجب من فعل أبي: «عربة» خاصة تحملني وحدي إليه، ثم حضور رقص في المقهى. أما اليوم فإني لا أعجب من ذلك. إنّ معاملة الطفل على أنه (اليوم) طفل وعلى أنه سيصبح (غداً) رجلاً هي المعاملة

الصحيحة في بناء شخصية الطفل. ثم إن حضور أماكن فيها أشياء من اللهو (بإشراف الآباء والأمهات) ينزع من نفوس الأطفال ذلك الفُضول الذي يرغب فيه الطفل، أن يعرف ما وراء الستور والجدران ثم يحول بعد ذلك، إذا شبّ الطفل، مراهقة أو كبتاً. ولقد سلكت مع أولادي مثل هذا المسلك. وأنا أحمَد الله على أن كان والدي منشرح الصدر للحياة وعلى أنه نقل أشياء من اختباره إلينا.

أما والدتي فلم تكن تخط أو تقرأ الخط. ولم يكن بالإمكان أن أتعلم منها شأناً من شؤون الثقافة. غير أن والدتي كانت ربة بيت من جميع النواحي (حتى من الناحية الاقتصادية): الجِد في التحصيل والحكمة في الإنفاق. ثم أن والدتي علمتنا الخدمة في البيت: كنا نعجن (لم يكن الناس في أيام طفولتنا يشترون خبزاً من السوق) وعلمتنا المساعدة في شؤون المنزل من الطبخ والغسل والمسح. ولقد انتقل ذلك كله إلى أولادنا. إن أبنائي الثلاثة قد تابعوا دراستهم في مصر وانكلترة والولايات المتحدة، فكانت معرفتهم بالشؤون المنزلية خير معين لهم على التغلب على مصاعب «تدبير المنزل» في الغربة.

وكان عماي وعمتاي يساعدونني في إعداد دروسي كثيراً أو قليلاً:

ومن عمي حسين (ت ١٩٣٦)، رحمه الله، تعلمت - فيما تعلمت منه - هذه القاعدة: الاقتصاد الصحيح أن تنفق في ما تحتاج إليه كلّ مبلغ مهما يكنْ كبيراً، وإياك أن تشتري شيئاً لا تحتاج إليه مهما يكن ثمنه متدنياً.

ومن عمي حسن (ت ١٩٦٦)، رحمه الله، تعلمت - فيما تعلمت منه أيضاً - هذه القاعدة الاجتماعية: كان يودعني وأنا أغادر بيروت (في خريف ١٩٢٨) ذاهباً الى نابلس (فلسطين) لأعلم هناك، فقال لي: لا تعمل في الغربة عملاً لم تعمل مثله وأنت في بيروت.

ومثل هذه النصيحة أسداها إلي أيضاً أنيس النصولي

(ت ٢٤/١٠/١٩٥٧)، حينما قال لي، وهو يودعني في مرفأ بيروت في اليوم الذي سافرت فيه إلى المانيا، قال لي: أنت تذهب الآن واحداً، فارجع إلينا واحداً.

ولا أعلم أنني كنت ألعب في الشارع: كنت أخرج إلى بستان البيت (وكان في أحد البيوت التي سكناها ثلاثة بساتين كبيرة مزروعة أزهاراً ومغروسة أشجاراً) أو أخرج إلى الحقل المجاور لبيتنا وآخذ معي الحمل (الخروف الصغير) ليرعى فيه، تحت إشراف أهلي طبعاً. ولا أزال أذكر أن أهلي كانوا يستقدمون مرة طفلاً من أسرة مثل أسرتنا أو يرسلونني إلى تلك الأسرة فيكون لَعِبُنا في البيت باشراف الأهل، خوفاً من أن يحتك أحدنا (أنا أو أحد أطفال تلك الأسرة) بطفل لا تُرضي سيرته. ولقد نشّأت أولادي على مثل ذلك. وكنا ننصحهم بأن يصحبوا في المدرسة أطفالاً معينين.

لا فائدة من أن نترك الطفل (ادعاء بالانفتاح والتقدم والعصرية) عشرين سنة يفعل ما يشاء هو أو ما يشاء له نفر آخرون، ثم نأتي إليه يوماً فنعاقبه على أمر ما أو نعاتبه.

ولا أنسى أن أقول: إن الأساس الأول في التربية إنما هو «القدوة الحسنة». فعلى الأهل أن يسلكوا السلوك الصحيح في حضور الطفل وفي غيابه. إنّ كل شيء يفعله الأب في ستر سيعرفه طفله في يوم ما.

١٩٨٠/١٢/٦

الوضوح والجزم والنجاح

تخرجت عام ١٩٢٨، وذهبت إلى بلد عربي للتعليم. كانت سني اثنتين وعشرين سنةً، وكان وزني ثمانية وأربعين كيلوغراما. طلبت المدرسة مني أن أعلم الجغرافية الطبيعية (في الصف الرابع الثانوي، باللغة العربية)، وجغرافية بلاد آسية العربية (في الصف الخامس، باللغة الإنكليزية) والتاريخ العام (في الصف السادس ـ أعلى صفوف المدرسة، باللغة الإنكليزية).

كنت يوماً في الصف السادس، وفي أوائل عهدي بالمدرسة، فنهض تلميذ وسأل سؤالاً خارجاً عن نطاق الدرس (والتلاميذ عادة يحبون أن يختبروا المعلم الجديد). فقلت له: هذا سؤال لا صلة له بدرسنا. فإذا بقي وقت في آخر الدرس أجبتك عليه. فقال: أريد أن أعرف جوابه الآن. فقلت له: اجلس (بكسر اللام)، فقال: لا أريد. فقلت: ابق واقفاً. فجلس.

أصبح الأمر واضحاً جداً. إما أن أبتَّ في الأمر فتكونَ دروسي في حياتي القادمة هادئة ناجحة، وإما أن أترك الأمر غائماً فتضطرب حياتي التعليمية.

ذهبت إلى باب الغرفة وفتحته فأبصرت في باحة المدرسة خادماً اسمه أمين (وكان شاباً كبير الجسم قوي البناء) فناديته وقلت له: أخرج فلاناً. كنت أظن أنه سيذهب إلى الناظر وسيأتي به، أو أنه، في أسوأ الأحوال، سيخرج الطالب من الصف بالمعروف. ولكن استغربت كثيراً حينما رأيت ذلك الخادم يسرع الخطى إلى مكان التلميذ وينتزعه من مقعده كأنه ينتزع جزرة من أرض لينة. بعدئذ جره جراً. ولما وصل إلى باب الغرفة رفع ذلك التلميذ إلى ما فوق رأسه ثم ضرب به الأرض ضربة خلت أن عظام التلميذ قد اختلطتْ بلحمه.

وقفت مشدوهاً لا أدري تفسير ما حصل. أما التلميذ فنهض يجأر (كما

تصوّت البقر) ثم مضى على وجهه حتى خرج من المـدرسة (ولا أعلم أوَجَـدَ هو باب المدرسة مفتوحاً أم فتح الباب له؟ فإن المدرسة كانت نصف داخليّة).

وانتهى الدرس وخرجت من الصف. وكانت العادةَ أن يكون الأساتذة حلَقات في باحة المدرسة وأن يكثر عدد الأساتذة في الحلقة (بسكون اللام) التي اختار الوقوف فيها. في ذلك اليوم أبصرت الأساتذة متفرقين يروحون ويجيئون فُرادى (كأنهم رهبان على سطح دير يقرأ كل واحد منهم صلاته في «الشحيمة»). فأخذت طريقي إلى غرفتي في الطابق الثاني. أظن أن خبري مع ذلك التلميذ كان قد انتشر قبل أن أخرج أنا من الصف.

واستمرّت تلك الحال طول اليوم. وبعد الدرس الأخير صعدت أيضاً إلى غرفتي رأساً. ولكن بعد قليل سمعت قرعاً على باب الغرفة.

كان الطارق أستاذاً قال لي:

- في غرفة المدير اجتماع.

كان في غرفة المدير: المدير وخمسة أساتذة أو ستة من الأساتذة الكبار في المدرسة ثم رجل لم أكن قد رأيته من قبل.

ساد صمت مقدار دقيقة خلته عاماً. ثم التفت المدير إلى ذلك الرجل وقال: الأستاذ عمر. وساد الصمت مرة ثانية «جزءاً من دقيقة» حسبته عامين. ثم تكلم المدير ثانية، بعد أن التفت إلي وقال: فلان، جَـدّ التلميذ ورئيس عمدة المدرسة.

والتفت ذلك الرجل إلي وقال:

- بارك الله فيك. من الآن وصاعداً، كلما فعل «شوكت» (اسم التلميذ)

شيئاً في البيت خارجاً على اللياقة سنقول له: سنخبر الأستاذ عمر.

* * *

ربما خطر لك، أيها القارىء العزيز، هذا السؤال فقلت لي:

ـ لو كنت تعلم أن ذلك التلميذ كان حفيداً لرئيس عمدة المدرسة، أكنت فعلت ما فعلت؟

أعتقد أنني كنت فعلت ذلك الذي فعلته. والدليل على ذلك أنه اتفق لي حادثة شبيهة بهذه الحادثة، في بيروت. وكنت أعلم أن ذلك التلميذ ابن مدير الإدارة في المؤسسة التي كنت فيها. ومع ذلك فقد توليت عقابة في الصف بيدي، ولم استدع خادماً أو ناظراً أو مديراً. كان ذلك يوم خميس. وفي اليوم التالي لقيت والد هذا التلميذ في الشارع اتفاقا فقال لي أيضاً: «سلم الله يديك». من الآن فصاعداً كلما فعل فلان شيئاً في البيت سنقول له إننا سنخبر الأستاذ عمر. ولا أزال أحتفظ ببطاقة من ذلك الوالد يسألني فيها عن سلوك ابنه في المدرسة.

ستقول لي: مرة ثانية: إن العقاب الجسدي ممنوع. وسأقول لك: إن القحة (بكسر ففتح بلا تشديد) ممنوعة أيضاً. ثم إنني لجأت إلى مثل هذا العقاب أربع مرات في مدى ثلاث وخمسين سنة، وليس في تلك النسبة شيء يذكر.

هنالك أسئلة أخرى عندي وعندك، أيها القارىء، ربما جاء دورها في المستقبل.

(٨١/٨/٨) ٨١/٩/٥

الآباء والأبناء

لعلك لا تصدق أحداً (إذا لم تكن واسع الاطلاع على الآداب القديمة والحديثة) إذا قال لك: أن نفراً من الآباء يفسدون أبناءهم. سأكتفي بعدد من الأقوال المشهورة:

- في الحديث الشريف: «كل مولود يولد على الفِطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجسانه» (ولا شك أيضاً في أنهما يعلمانه ويجهلانه، ويعزانه ويُذلانه، الخ). هذا القول وحده كاف في هذا المقام. ولكن إليك أقوالاً أدنى طبقة ولكنها تشرح هذا القول:

- إن قطعة المنفلوطي (ت ١٩٢٤ م) مشهورة: «شريكك في الجريمة أبوك...» (من لا يعرف القطعة فليقرأها، فإن قراءتها مفيدة).

- وقال شوقي (ت - ١٩٣٧ م):

ليس اليتيمَ مَنِ آنتهى أبَواهُ مِنْ ... هَمِّ الحياة وخَلّفاهُ ذليلا.
إنّ اليتيمَ هو الذي تَلْقَى لَهُ ... أُمّاً تَخَلَّتْ أو أباً مشغولا.

- واذكر أنني وجدت في أواسط الحرب العالمية الأولى كتاباً في مكتبة «بيت جدي» عنوانه الآباء والبنون لرئيس الجمهورية الفرنسية بول دومر، وقد نقله إلى اللغة العربية عبد الغني العريسي (أقول هذا الآن من ذاكرتي - وسأرجع إلى مكتبتي لأرى مكان ذاكرتي بعد هذا العهد الطويل) - اسم الكتاب «كتاب البنين»، ومؤلفه بول دومر وقد كان في ذلك الحين (١٩١٦) رئيساً لمجلس الأمة ثم أصبح (١٩٣١) رئيساً للجمهورية. قرأت أشياءَ في هذا الكتاب لا أذكرها الآن (في ذلك الحين كنت قد ختمت القرآن وحفظت قسماً صالحاً منه غيباً).

الأب الذي يفسد أبناءه هو الأب الذي يحملهم على كتفه ليخفف عنهم «في

ظنه» مشاقّ الحياة فيظلون طول حياتهم عاجزين. وطريقة هذا الفساد أو الإفساد أن يقول الأب أو يعتقد أن أولاده «غير شكل»، وأن ابنه أذكى الطلاب. وأن كل الأولاد مخطئون وابنه فقط على صواب. يجب أن يُعَدّ (بالبناء المجهول) كل طفل للحياة المقبلة. سأترك القصص المحزنة وأكتفي بهذه القصة المشرقة:

كان في الصف الثالث الابتدائي من مدرسة البنين الثانية لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية - بيروت - القنطاري، تلميذان (عام ١٩٢٩ - ١٩٣٠)، كان أبوهما صاحب ذكان صغير يبيع فيه جبناً وما يتبع الجبن. مات الأب في ذلك العام واضطر ذانك الطفلان إلى أن يأخذا في ذلك الدكان الصغير مكان أبيهما. تحصيلاً للرزق. وهما الآن يملكان أكبر «سوبر ماركت» في هذا الوطن. ولولا هذا «السوبر ماركت» لَمَاتَ نِصفُ أهل بيروت جوعاً، عامَ ١٩٨٢، في أثناء الحِصارِ المزدوج: الحصار الإسرائيلي العامّ والحصار ...... الخاصّ.

١٩٨١/٣/٢١

لَمَحات

وظَبْيٍ مِنْ ذَوِي حَسَبٍ ظَرِيفٍ	أشارَ إليَّ بالطَّرْفِ الأثيمِ.
ولَمْ أكُ قد كَلِفْتُ به، ولكنْ	جديدُ الوَجْدِ كالوَجْدِ القديمِ.

نابلس ١٩٢٨.

بين الإدارة والتعليم

في عام ١٩٣٤ زارني الأستاذ عبدالله مشنوق (وكنا نصطاف في فيترون ـ كسروان)، وقال لي: «إنهم يفكرون في أن يعهدوا إليك بإدارة بعض مدارس الجمعية»، فقلت له: أنا لا أصلح للإدارة، وأذا جعلتموني مديراً فإنكم تفسدون مكاني في التعليم ولا تصلحون إدارة المدرسة التي تريدون أن تعهدوا بها إلي. وتكرر هذا الإقتراح مراراً، وكنت في كل مرة أعتذر، والسبب الحقيقي أن الإدارة تقتضي من صاحبها اتجاهاً (هو المحافظة على الشكل والهيبة الخارجية، ولو أضر صاحب المَنصِب بالجانب الفني من حياته). وهذا أمر لم أكن أطيقه. ثم إن الإدارة طاعة المرؤوس للرئيس في كل صغيرة وكبيرة وسير على سكة من حديد لا تحيد يميناً ولا يساراً.

* * *

سأبقى في الكلام على سنواتي الأولى في المقاصد (١٩٢٩ ـ ١٩٣٥).

لما أصبح في المقاصد صف فلسفة أصبحت المدرسة بحاجة إلى مكتبة يستفيد منها طالب البكالوريا في الأدب والفلسفة، وقد أنشأت جمعية المقاصد مكتبة في كلية المقاصد (مدرسة البنين الأولى ـ الحرج)، ولكنّ هذه المكتبة على قيمتها لم تكن تضم المصادر والمراجع التي يحتاج إليها الطالب... إن رأي الجمعية في المراجع والمصادر النافعة للتلميذ غير رأي معلم الأدب والفلسفة.

ذهبت إلى المكتبة الأهلية لصاحبها محمد جمال (وكان بيننا مودة)، واخترت من مكتبته كتباً بأربعمائة ليرة (نحو ثمانين ليرة ذهباً) وقلت له: أرسل الكتب إلى كلية المقاصد واحجز «الفاتورة» (القائمة بالأسعار) إلى حين أخبرك بإرسالها.

وصلت الكتب إلى كلية المقاصد فسجلناها وختمناها ورقمناها ووزعناها في

الخزائن، وبعد أسبوعين قلت للسيد محمد جمال أن يرسل القائمة بالأسعار إلى مكتب الجمعية. استدعاني حسن القاضي ـ مدير الإدارة في الجمعية، وكان رجلاً صريحاً عنيفاً مع كرم في النفس وإخلاص في الخدمة ـ وقال لي: ما هذا (وأراني الفاتورة)؟ فقلت له (وقد أدركت غضبه): لقد أخطأ محمد جمال في إرسال الفاتورة، فقال: أنا لا أدفع ثمن هذه الكتب التي لم يؤخذ فيها رأينا. قلت له: لا تدفع، عُدَّ هذه الكتب هبة من محمد جمال.

وبعد أسبوع آخر استدعاني حسن القاضي وقال: يا عمر، ليس من الحق أن نأخذ هذه الكتب من غير أن ندفع ثمنها. فقلت له: إذا شئت أن تدفع ثمنها فافعل. فقال لي: ولكن لا تفعل ذلك مرة ثانية.

واحتاجت المدرسة إلى آلة نسخ (فإن معظم مناهج البكالوريا كانت لا تزال تعتمد محاضرات الأساتذة ـ ولم يكن هنالك بعد كتب للتدريس وافية بالمقصود).

اشتريت آلة نسخ جيدة (وكان ثمنها خمسين ليرة: عشر ليرات ذهبية)، ولكن لم أرسل الفاتورة إلى مكتب الجمعية، بل أخذت من عبدالله المشنوق، خمساً وعشرين ليرة وأضفت إليها خمساً وعشرين ليرة من جيبي. وكان لآلة النسخ هذه مفتاح احتفظت به أنا. وكنا ننسخ بهذه الآلة كل ما كانت المدرسة تحتاج إلى نسخه.

وفي آخر السنة المدرسية استدعاني عبدالله المشنوق وقال لي: حسن بك على التلفون، وهو يريد أن يكلمك.

قال لي حسن القاضي على التلفون: يا عمر، عندنا غداً الحفلة الرياضية، ونريد طبع منهاج الحفلة. فقلت له: وهل عندي أنا مطبعة للطبع؟ فقال: وآلة النسخ التي في المدرسة. قلت له: هذه لي أنا. فقال اطبع لنا منهاج الحفلة الرياضية بالأجرة. فقلت أفعلْ. قال: كم تريد أجرة طبع المنهاج؟ فقلت خمسون

ليرة. فقال خمسون ليرة مبلغ كبير. فقلت له: يا حسن بك، التجارة عرض وطلب. قال لا بأس، اطبع لنا المنهاج وغداً أرسل لك خمسين ليرة. فقلت له أريد الأجرة سلفاً.

وفعلاً، أرسل حسن القاضي خمسين ليرة مع نسخة برنامج الحفلة. رددت إلى عبدالله المشنوق خمساً وعشرين ليرة ورددت إلى جيبي خمساً وعشرين ليرة ثم سلمت مفتاح آلة النسخ إلى كاتب الإدارة في المدرسة.

١٩٨١/٩/٦ ٨١/١٠/١٠ (ص ١٠)

لمحات

مَنْ رأى الغِيدَ الظِّباءَ ... يَتَنَزَّهْنَ عِشاءَ؟
يَتَسَارَعْنَ إلى اللَّهْـ ... ـوِ دَلالاً ورَخاءً.
تَضْحَكُ الآمالُ عَنْهُنْـ ... ـنَ إذا مِسْنَ آزْدِهاءَ.
يتسابقن وجفنيـ ... ـي ابتساما وبكاء.
انّ في نَفسيَ منهنّـ ... ـن عذابا وشقاء.

لماذا ذهبت إلى أوروبة؟

حينما كنت في أوروبة أتابع الدراسة؛ سألني نفر كثير من الأساتذة الذين درست عليهم: لماذا جئت إلينا؟ إنك لا تحتاج إلى هذا الذي تدرسه علينا.

كنت أقول لهم ما قاله ابن خلدون: إن الرِّحلة في طلب العلم مَزيدُ (بفتح الميم) كمال في التعلُّم، إن العاقل يرحل في طلب العلم (كما يقول ابن خلدون أيضاً) للقاء المشيَخَة (الأساتذة الكبار) ليحتك بهم، فيستفيد من اختبارهم، ويَعْرف طرق تفكيرهم؛ وأساليبَ بحثهم (لا ليعرف عشر حقائق عن المتنبي، مثلاً، بعد أن يكون في بلده قد عرف خمساً منها).

سيعجب القارىء إذا قلت له: إنني زرت ثلاثاً وخمسين مدينة وبلدة وقرية في المانيا وحدَها (كنت وأنا أسافر ربما قطعت سفرتي ساعة أو ساعتين ثم تابعت طريقي بالقطار التالي). رأيت مستشرقين كباراً كثيرين فتلقيت عليهم أشياء من اختبارهم. وكان في المانية في ذلك الحين نفر من المستشرقين الكبار قد بلغوا السن القانونية وتركوا التعليم. لقد زُرتُ من هؤلاء أوغست فيشر (وكنا في ليبزغ نسكن في شارع واحد). زرت مِتْقُخْ (مع أنه كان قد نحي في أيام هتلر عن الجامعات لأنه يهودي). وعدني ماكس فايسفايلر (أمين مكتبة برلين) أن ألقي بروكلمن حينما يزور المكتبة، ولكن بروكلمن كان في زيارة خاطفة فرأيته ولم أحدثه.

حضرت دار الأوبرا مراراً، ومواسم الموسيقى والمسارح المألوفة والحديثة (في المانية وفرنسة) وكذلك حضرت معظم حَفَلات الأولمبياد في برلين (١٩٣٦)، ومَعرض باريس الدولي (١٩٣٧)، والأعياد القومية في المانية (بقدر ما يسمح الزمن)، وعقدت صداقات مع أناس بارزين. وبينما كان نفر من الطلاب يستأجرون غرفاً بثمانية ماركات في الشهر أو بعشرة ماركات أو باثني عَشَرَ ماركاً،

كنت أستأجر غرفة (أو غرفاً) بأربعين ماركاً أو بخمسين ماركاً، وفي مرتين كان أجار سكني اثنين وسبعين ماركاً في الشهر. ولا شك في أن الخدمة التي كنت ألقاها في سكني والطعام الذي كان يُقدّم لي لم يكونا ممكنين في الغرفة ذات الثمانية ماركات.

لما ذهبت إلى باريس في المرة الأولى (١٩٣٦) حضرت على أساتذة كثيرين حضوراً جيداً، كنت أحضر على ليفي بروفنسال «الخطوط على الخشب» (وفي كثير من الأحيان لم تكن تلك الخطوط مقروءة أو واضحة). كنت أجلس في أواخر الغرفة (وكنت عند لويس ماسينيون في صدر القاعة ـ أما وليم مارسيه فكنا نجلس معه على طاولة مستديرة).

مشى إلي ليفي بروفنسال يوماً وقال لي: أنت لست تلميذاً. فمددت يدي إلى جيبي وأخرجت بطاقة جامعة برلين، وبعد أن تأملها قال لي: ولكن أنت غير هؤلاء (وأشار إلى طلبة في صدر القاعة أعرفهم). قلت له: طبعاً، أنا غير هؤلاء، هؤلاء حصلوا على البكالوريا (ومن الخير ألا أذكر نوع تلك البكالوريا) وجاءوا تواً إلى هنا، أنا أحمل شهادة بكالوريوس علوم (فوق البكالوريا بثلاث سنوات) من الجامعة الأميركية. ثم إني علمت سبع سنوات، وقد ألفت عدداً من الكتب المدرسية والأدبية. وأنا أحسن أربع لغات وأُلِمُّ بلغة خامسة.

حينئذ قال لي ليفي بروفنسال: وما جئت تفعل عندنا؟

دعاني عبدالله المشنوق يوماً إلى الإدارة وقال لي: هذا «الدكتور» فلان (جاء في نطاق البعثة للأساتذة في جمعية المقاصد). سألته: في أي الجامعات كنت؟ قال: في جامعة لندن. فقلت وعلى من حضرت؟ فقال على جِب (المستشرق هـ أ. ر. جب)، أو كذلك قال لي. فقلت وماذا درست عليه؟ قال كتاب تاريخ اللغات السامية لولفنسون.

لا حاجة إلى التعليق على هذا، فاسمع القصة التالية:

دعاني عبدالله المشنوق مرة ثانية وقال: الدكتور يريد أن يدرس في الصف الأعلى عندنا، ويريد أن يدرس الفلسفة. فقلت له لا مانع عندي (وكنت أنا أدرس الفلسفة). وبعد أيام قليلة دعاني عبدالله المشنوق للمرة الثالثة لهذا الأمر وقال: الدكتور متضايق من تدريس الفلسفة: إنه يسهر كل ليلة إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل في إعداد محاضرته. ولم يقل لي عبدالله المشنوق أن التلاميذ لم يكونوا يفهمون شيئاً مما كان في تلك المحاضرة. واستعفى «الدكتور» من تدريس الفلسفة فرجعت إلى تلاميذي. ويكفي أن أقول إنّ المذكور لم يكن حائزاً على الرتبة التي آدّعـاها.

من الناس من يتعلم ليحصل على شهادة، ومن الناس من يريد الحصول على شهادة ليقال إنه متعلم (والعلم عند الله).

(٨/٨/٨١)

٢٩/٨/١٩٨١ (ص ١٠)

شروط تعجيزية

العرب اليوم ـ والطلاب خاصة ـ فريسة نفر بارعين يحسنون سكَّ الألفاظ والجمل ويستطيعون نشرها بسرعة. والكلام في الشروط التعجيزية «زِيّ شائع اليوم». أقول لطلاب البكالوريا: يجب أن يكون جوابكم على الأسئلة بلا أخطاء في اللُّغة أو في الإملاء، فيقولون لي: «هذا شرطٌ تعجيزي». وتقولُ لهم: أجيبوا على السُّؤال المطروح في وَرَقةِ الاسئلة فيقولون: وهذا أيضاً شرط تعجيزي. وتقول لهم: اكتبوا بخط واضح، فيردون عليك بالنغمة نفسها.

أنا لن أنتقد طلابنا اليوم. سأسرد على مسامع الذين يقرأون منهم قصتي أنا:

قبل أن أذهب إلى المانية (١٩٣٥) لمتابعة دراستي العالية كنت أحمل شهادة بكالوريوس علوم من الجامعة الأميركية في بيروت ـ وكنت قد علمت سبع سنوات ـ وكنت قد ألّفتُ عدداً من الكتب المدرسية (بالاشتراك مع أخوان لي) وكانت هذه الكتب تدرس من الخليج إلى المحيط (فعلا) ـ وكنت أعرف عدداً من المستشرقين معرفة شخصية أو من طريق المراسلة...

وفي برلين كان لا بد من مقابلة مع الإدارة التي تقبل الانتساب للجامعة وتسجيل الرسائل لنيل شهادة الدكتوراه.

قال لي الذي يجري المقابلة: تحتاج إلى أربع لغات. فقلت له: عندي العربية والانكليزية والفرنسية والالمانية (ولم أقل له: هذا شرط تعجيزي).

قال: ولكن هذا وحده لا يكفي. يجب أن يكون معدل «علاماتك» عالياً. فكتبت إلى الجامعة الأميركية في بيروت، فجاء الرد: ستة وثمانون في المائة (ولم أقل: هذا الشرط تعجيزي).

ثم قال: يجب أن نعرف فروع العلم التي تلقيتها والأساتذة الذين تعلمت عليهم. . فكتبت ثانية إلى الجامعة الأميركية في بيروت. أما فروع العلم فكانت ـ بالإضافة إلى اللغات الأربع ـ الرياضيات بمجملها (حساب، جبر، هندسة، مثلثات، رسم ميكانيكي) وطبيعيات (فيزياء ونبات) ثم الأدب والمنطق وعلم النفس والاقتصاد والأخلاق إلى جانب السباحة والفوتبول والهوكي (كابتن وحامي المرمى) والركض والقفز (وكان على ذلك كله علامات، في ذلك الحين). أتيت إلى جامعة برلين بهذه التفاصيل (ولم أقل لهم: هذه شروط تعجيزية).

ومثل ذلك الأساتذة: بيارد دودج الذي أصبح فيما بعد رئيس الجامعة الأميركية في بيروت ـ والتر رايت الذي أصبح فيما بعد رئيس الجامعة الأميركية في استانبول ـ فيليب حتي ـ أسد رستم ـ الفريد داي (اختصاصي في نبات سورية ولبنان وفلسطين) ـ أنيس المقدسي ـ بيرون سميث (العالم بأدب شكسبير وفي الألفاظ العربية في اللّغة الإنكليزية) الخ (ولم أقل هذه شروط تعجيزية).

وبعد هذا كله، قال لي صاحبنا: طيب. خذ الآن هذه الورقة واجلس إلى تلك الطاولة واكتب في هذا الموضوع (باللغة الالمانية، طبعاً). معك نصف ساعة.

أخذت منه الورقة وقمت إلى تلك الطاولة وكتبت ذلك الموضوع في نصف ساعة. ولم أقل له: تلك مفاجأة ـ أو هذا تعجيز. أو أنا غير مستعد، أريد مدة أستعدّ في أثنائها.

لما انتهى الفصل الثاني وصل الي من وزارة المعارف رسالة تقول: إذا كان بامكانك أن تنجز رسالتك في وقت قريب فيمكنك أن تتخرج في نهاية العام التالي (في سنتين).

ولم أكن أريد أن أقول لك إنّ نفراً من الذين كانوا متمسكين بالقول: «شروط تعجيزية» قد نالوا شهادة الدكتوراه في المانية بعد ستة وعشرين فصلاً (ثلاث عشرة سنة).

يجب أن نذكر دائماً أن كل شيء محسوب على الإنسان.

(١٩٨١/٢/٣) ١٩٨١/٣/١٤

لَمَحات

رُدّي عَلَيَّ الهــوى حتّى أُجَلِّيهــا قصيـدةً تمـلأ الـدُّنيـا قَــوافيهـا.
كــأنّني يـومَ ذُقتُ البَين في حُلُمٍ أطـوفُ بالأرض والأيـامُ تطويهـا.
أُدافِعُ النّفسَ جُهدي عن مَخاوِفِها وأخـدَعُ النَّفسَ حيناً عن أمـانيها.
ونَصْبَ عَيْنَـيَّ والأيــامُ ظــالِمَــةٌ والـدّهرُ يلعبُ بـالدُّنيـا وما فيهـا،
سمراء ما عَرَفَتْ طَعْم السُّهادِ لهـا عَيْنٌ، ولا مَــرُّ العَيْشِ في فيهـا.
تَلْقَى الصبـاح بـأعـطافٍ مُنْعَّمَـةٍ، وتَغْتَلي في الـدُّجى أعطافُها تيها.

١٩٤٣/٨/٨

اتّخذ رفيقة لصقل لغتك

هذا جانبٌ مِنَ آختباري يُكثِرُ أصدقائي ـ وجانبٌ من القُرّاء أيضاً ـ سُؤالِيَ عنه. ولكنْ لا بدّ قَبل السَّرْد من إبداء ملاحظةٍ كان قد مرّ شيءٌ منها من قبلُ.

لمّا ذهبتُ إلى المانيا لمتابعة الدِّراسة، كنتُ في الثامنة والعشرين، وقد جاوزت مرحلةَ العاطفة، تلك المرحلة التي يمرُّ بها نفرٌ كثيرون مَرّاً بَطيئاً. لا أذكُرُ أن هذه العاطفة قد عرقلت آتّجاهِيَ السليمَ في الحياة. من أسبابِ ذلك أن تربِيَتي البيتيّة كانت «واضحة». (كانت قائمةً على الدّين والعَقل). ثمّ إنّي أبتدأتُ بالعمل وتحصيل المال باكراً (منذُ كنت في الثالثةَ عَشْرَةَ من العُمُرِ، فأصبح لي آهتمام بأمورٍ أساسيّة في الحياة أخذتْ مكانَ تلك الأمورِ الجانبيةِ التي يهتمّ بها المُراهقون. وكذلك ذهبتُ إلى أوروبة لطلب العلم بمالٍ أنا جمعتُه، فكان علي أن أحسب (وأنا في الغُربة) حِسابَ كلّ دينارٍ وكل دِرْهم أُنْفِقُهُما.

منذُ وصلتُ إلى ألمانيا وأخذتُ بمقابلةِ الأساتذة الذين آخترْتُ أن أدْرُسَ عليهم، قال لي واحد منهم ثمّ ثانٍ ثم ثالثٌ: يحسُنُ أن تَتّخذَ رفيقةً لك يُساعِدُكَ التحدُّثُ إليها على صَقْلِ لُغْتَكَ الألمانية التي تَعَلّمْتَها في بيروت معَ العلم بأنّني كنت قد تقدّمتُ إلى آمتحانِ اللغة الألمانية ونجحتُ نجاحاً طَيِّباً.

وقيّضَ الله لي فتاتين شَقيقتين من مدينة هانوّفر (المدينة التي تتكلّم اللغَة الألمانية الفصيحة). كنتُ مرّةً في القطار بين برلين وليبزغ. وآتّفق أني كُنتُ أتحدّثُ مَعَ مسافرٍ بِقُربِ مَقْعَدى، فقال لي بعَد بضعِ دقائق: أأنتَ من هانوّفر؟ فقلتُ له: لستُ من هانّوفر ولا من ألمانيا. فقال: على لغتك نَفْحةٌ من لغة هانّوفر.

لِنَرْجِعْ إلى حـديث الأُختين الشّقيقتين. لقد حَمِـدتُ الله على أنّهما كـانتا آثْنَتَيْنِ وشَقيقتينِ (فإنّ كلَّ واحـدةٍ منهما كـانت رَقيباً على الثانية). ولم اكُنْ أنـا ـ بحَمْدَ الله ـ محتاجاً إلى مثل هذه الرقابة كثيراً.

يصعُبُ على كثيرينَ أن يُدركوا أنّ شابّـاً يمكن أن يكونَ رفيقـاً لفتاةٍ مثلَمـا يكون رفيقاً لِفَتًى مثلِهِ. لقد كنتُ أنا قَـدِ آتّخذتُ هـاتين الرّفيقتين لِصَقْـل لغتي. وكانت رُفْقتي لهما تَقِفُ عند هذا القصد.

جـاءتِ الصغرى يـوماً إليّ تقـول: أريد أن أعتـذرَ إليك. فقلت لهـا: مِمّ تُريدينَ الآعتذار؟ فقالتْ: لقد كَذَبْتُ كِذْبة ذكـرتُ فيها آسْمَـكَ. أرادتْ صديقـةٌ لي أن أُرافِقَهـا لِتَشْتَـرِي ثـوبـاً. فـاستـأذنتُ أُميّ في ذلـك فلم تـأْذَنْ لي. ولكّن الصديقةَ كانت تُلِحّ عليّ بالتلفون إثْرَ التلفـونِ. ففي اليوم التـالي قلت لأمّي: أنا ذاهبةٌ إلى عمر. فأذنْت لي. ولكنّي لم آتِ إليك، بل ذهبتُ إلى صديقتي.

وفي يوم من الأيام جاءت صاحبةُ البيت تقول لي: فلانةٌ (الفتـاةُ الصغرى) بالباب، فهل آذَنُ لها بالدَّخول؟ (كانت صاحبةُ البيت تعلم أنّـه لا يَزورني فَتَيـاتٌ في غـرفتي). فقلت لها: لا، لا تسمحي لهـا. فَعَلْتُ ذلـك تَصـديقـاً للحـديث الشّـريف: من حامَ حَـوْلَ الحِمى يُوشِكُ أن يَقَـعَ فيـه. وآنصـرفتِ الفتـاة. ولم أسْمَعْ منها كَلِمَةَ عِتابٍ بعد ذلك.

ولكن حـدثتْ مِنّي غفلةٌ يومـاً. كنتُ في جامعـة لَيْبْـزِغ (في فصـل الشتاء، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧). كنتُ أحضُرُ ـ فيما أحضر من الـدروس، درسَ باول شوارتز (أوسع الناسِ عِلماً بِعُمِرِ بن أبي ربيعـةَ وشعره. ولكّنـه كان يعـطي شيئاً من تَفسير القرآن. فقالت لي فتاة ذاتَ يومٍ، وكانت تحضُرُ «درسَ باول شـوارتز» أيضاً، إنّها تَوَدُّ أن تستفهم منّى أشياءَ» من الإِسـلاميّات مُستغلقةً عليها. فقلتُ: لا

مانع عندي. فسكتت. ثمّ سألتني أأكونُ في البيت بعد الظهر. فأجبتها بالإيجاب. وفوجئت بها تدخل عليّ في الساعة الثانيةِ بعد الظهر.

كانت صاحبة البيت في ليبزغ تعلم عِلْمَ اليقين أنّه لا يزورني في غرفتي فَتَيات. فلم أعلَمْ كيف سَمَحَتْ لهذه الفتاة بالدخول.

وفي المساء ـ وبعدَ أن غادرتِ تلك الفتاةُ المنزلَ ـ جاءت صاحبة البيت إلَيّ معتذرةً تقول: هذه الفتاةُ من أُسرةٍ وجيهةٍ معروفةٍ في ليبزغ، وإن بينَ أُسْرِتِها والأُسرة التي أسكنُ أنا عِندها زياراتٍ متبادلةً. فلمّا طرقتْ هذه الفتاةُ البابَ وقالتْ إنّها آتيةٌ لزيارتي، لم يكن بإمكان صاحبة البيت أن تَرُدَّها ولا أن تطلُبَ منها التَمَهُّلَ كي تَسأَلني رأيِيَ.

(٨١/٧/٥) ١٨/٧/١٩٨١.

أساتذتي . . . في المانية

قبل أن أذهب إلى أوروبا كنت أعرف نفراً من المستشرقين من طريق المراسلة أو من طريق اللقاء بهم في بيروت. ثم كنت قد علّمت سبع سنوات وألفت عدداً من الكتب المدرسية والأدبية. إنني لم أذهب إلى أوروبا شاباً فطيراً، بل شاباً ناضجاً، وفي الثامنة والعشرين من العمر.

استقبلني المستشرق يوسف هل (وهو الذي أشرف على دراستي) في مُنشِنْ (ميونيخ) وبعد أن مكثت معه أُسبوعاً، قال لي: من الخير أن تذهب في الفصل الأول (فصل الشتاء ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦) إلى برلين وبعدئذ ترجع إلي في أرلنغن (في فصل الصيف شباط ـ تموز). ثم قال لي: هنالك الآن نفر من الأساتذة المستشرقين يجب أن تحضُرَ دُروسَهم. وفي برلين درست على يوليوس روسكا وشايدر وبيوركمن وروست وفرانكل وغيرهم ورأيت بروكلمن (ولم يكن في ذلك الحين يدرِّس) وزرت مِتْفُخْ (وكان قد نُحِّيَ عن التدريس ـ أريد أن أستخدم التعبير الصحيح ـ لأنه كان يهودياً). وكثيراً ما كنا نذهب إلى بيت الأستاذ أو نذهب إلى مكان آخر (حينما يكون عددنا قليلاً) نستمع فيه إلى شرح الموضوعات أو نناقش فيها.

وفي يوم من الأيام قال لنا روست (أستاذ العهد القديم): غداً مساء سنتناول طعام العشاء في بيتي. ثم التفت إلي وقال: أريد أن أراك بعد الدرس. وبعد الدرس قال لي: أنا دعوتكم كلَّكم دعوة عامة. ولكني أريد أن أقول لك: كن واثقاً من أنه لن يكون على المائدة خمر ولا خنزير، ولا شيء آخر يدخل في إعداده خمر أو خنزير.

وفي برلين كان على جدولي أربع ساعات في الأسبوع في الرياضة البدنية.

وكان معلم الرياضة طبيباً. ففي الدرس الأول فحصنا الأستاذ ووصف لنا ما نفعله. وقال لي: يجب أن يرتفع وزنك إلى ثلاثة وستين كيلو (لما تخرجت في الجامعة الأميركية كان وزني ثمانية وأربعين كيلو ثم ارتفع إلى سبعة وخمسين). وكان اشراف الأستاذ علينا دقيقاً جداً. وفعلاً أصبح وزني في ذلك الفصل ثلاثة وستين كيلو، ثمّ استمر ثابتاً نحو أربعين عاماً. ومنذ نحو سبع سنوات بدأ وزني ينخفض. وقد قال لي الطبيب: من حسن حظك أن وزنك يَقِلُّ.

وكان أستاذ الرياضة يشرف علينا (في الملعب أو في المسبح)، وكان في يده ورقة عليها أسماؤنا وصفاتنا ومدى طاقاتنا ـ فكان بين الحين والحين يقول: يا فلان، اخرج أنت الآن من الماء أو توقف عن التمرين. ـ أنا أنتقل بفكري الآن إلى نفر من الأساتذة اليوم من أولئك الذين لا يعرِفون أسماء تلاميذهم، وإلى جماعات من الطلاب لا يحضُرون إلى الجامعة إلا في أسبوع تقديم الامتحان.

والطالب الجامعي يقضي معظم أوقاته في المكتبة، وكانت المكتبة العامة في برلين تفتح أبوابها من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة التاسعة مساء. كان كل طالب منصرفاً إلى عمله أو مطالعته لا تسمع منهم همساً. وكثيراً ما كنا (في أيام العطل أو في الأيام التي لا دروس عندنا فيها، نقضي الساعات الآثنتي عَشْرَةَ في المكتبة. فإذا أراد أحدنا في نصف النهار أن يأكل ترك كتبه وأدواته على الطاولة حيث كان يدرس ثم نزل إلى استراحة المكتبة ليتناول شيئاً من طعام.

منذ بضعة أيام كنت في مكتبة الجامعة الأميركية (في بيروت) فاتفق أن جلس على الطاولة التي كنت أشتغل عليها طالب ثم فتح جريدة وبدأ يتطلع فيها. ودفعني الفُضول إلى أن أعرف ما يقرأ، فإذا به مجتهداً في قراءة صفحة الاعلانات.

لقد تغير الزمن، كما يقولون. لا، إن الزمن لا يتغير: لقد فسدوا وما فسد

الزمان. أنا أمرّ الآن في بيروت بثلاث جامعات: لا نكاد نرى تلميذاً إلا وهو يأكل أو يشرب أو يدخن أو ترى يده في يد تلميذة، فمتى يدرسون؟ (غير أن هذا لا يمنع من أن قِلَّةً من الطلاب اليوم يسلُكون المسلك الصحيح، كما أنه كان في أيامنا قِلّةٌ تسلك المسلك القبيح).

وقضيت فصل الصيف الجامعي في أرلنغن معَ يوسف هل. وفي فصل الشتاء (١٩٣٦ - ١٩٣٧) أشار علي بالذهاب إلى جامعة ليبزغ، وهنالك درست على بروينلش وشوارتز وأرنست برغمن وزرت فيشر (لأنه كان قد بلغ سن التقاعد). سألني فيشر: عم تكتب رسالتك؟ قلت له عن أثر الإسلام في الشعر العربي (في السنوات العشرين الأولى من صدر الدعوة الإسلامية). فقال لي: فهل وجدت الألفاظ التي تريدها في اللغة العربية؟ (إن الكثرة من المستشرقين يعتقدون أن الألفاظ الإسلامية: صلاة، صياماً، زكاة، الخ) جاءت من العبرية أو من الآرامية بتأثير اليهود والنصارى - ولكن هذا لم يكن رأي أستاذي المشرف على رسالتي يوسف هل). فقلت نعم، وجدتها كلها. فقال: وكلمة «صيام». قلت هذه وردت أيضاً عند النابغة: «خيل صيام وخيل غير صائمة» (صام الحصان: وقف على رجل واحدة). فقال لي: لعلك أخذت ذلك من ديوان في طبعة غير علمية. قلت له: أعطني ديوان النابغة من مكتبتك. فجاءني بديوان النابغة في طبعة لمستشرق. ففتحت ذلك الديوان إلى الصفحة المطلوبة.

إن الرحلة في طلب العلم، كما يقول ابن خلدون، ليست للتعلّم، ولكن - كما يقول ابن خلدون - «لمزيدِ كمالٍ في التعلم». وهذه غاية لا تَتِمّ إلا بالاحتكاك بين البشر لينتقل الاختبار الإنساني من فرد إلى فرد (في نطاق الاستعداد الفطري الفائق وفي نطاق الجهد البشري).

وفي جامعات المانية لا يناقشون الرسائل، لأن الرسالة تكتب بإشراف

الأستاذ فصلا فصلا وصفحة صفحة (بخلاف الأمر في فرنسة، إذ يتفق أن يرى الأستاذ رسالة طالبه بعد أن تنتهي). وفي المانية توضع الرسائل في متناول الأساتذة والباحثين، فإذا ظهر فيها ضعف ما ـ وقل ما يحدث ذلك، لأسباب كثيرة ـ ألغيت الرسالة جملة.

كنت مرة في بيت أستاذي يوسف هل أقرأ عليه فصلا من رسالتي، فمر في أثناء الكلام ذكر محمد رسول الله. قال: يا عمر، أنت تكتب رسالة علمية وتقول محمدٌ «رسول الله»! فطويت الأوراق التي كانت بين يدي ونهضت قائماً. فقال لي: لم فعلت ذلك؟ قلت له: لأنني أريد أن أرجع إلى بيروت. فقال مستغرباً: لماذا؟ قلت له؛ لا أريد أن أدرس على أستاذ يضيق صدره إذا إنا قُلتُ «محمد رسول الله»، وهو يعتقد (وكان يوسف هل كاثوليكياً) أن المسيح هو الله بالذات.

قال لي: اقعد واكتب ما بدا لك.

وفي الامتحان أتى دوري للدخول إلى غرفة الاستاذ هرّيكل (عميد دائرة الفلسفة وأستاذ الفلسفة). سألني سؤالاً واحداً (رأى أرسطو في الله). أجبت بما أعرفه في موضوع علّمته بضع سنوات (ولا فائدة من ذكر تفاصيله في جريدة سيارة). فأثار نقطة تخالف جوابي، فرددت عليها. وطالَتِ المناقشة ساعة كاملة، وأنا مصر على رأيي الأول. ثم خرجت فتلقاني الطلاب المنتظرون أدوارَهم. فقصصت عليهم القصة. فقالوا لي: إن للأستاذ هريكل كتاباً يرى فيه ما يخالف الرأي الذي دافعت أنت عنه.

ورأيت في عيون أولئك الطلاب أن نجاحي في مادة الفلسفة مستحيل.

وفي المساء أخبرني أستاذي يوسف هل القصة التالية. قال: لقد طلب لك

هريكل في اجتماع العمدة أن تكـون شهادتـك من الدرجـة الأولى. فكان الاعتراض الرسمي أنّ الشهادة من الدرجة الأولى تعطى لمن كانت لغة الأم عندهم هي اللغةَ الالمانية. فقال هريكل أن لغة عمر صحيحة. فقيل له: إذا أعطي طالب شهادته من الدرجة الأولى ثم طلب أن يعين أستاذاً في جامعة المانية كان لزاماً على الدولة أن تفعل ذلك (ولا نَنْسَ أن ذلك كان في عام ١٩٣٧ ـ في ذروة الحركة الوطنية الالمانية والنزعة الجرمانية).

فكانت شهادتي من الدرجة الثانية.

١٩٨٠/١٢/٢٠

لَمَحات

لَمّا طَلَعْتُ على أترابِها آلْتَفَتَتْ — كما أُثَرْتَ ظِباءً عَنْ مراعيها.
وزادَهـا فَـتنَـةً فـي العَـيْنِ أنّ لـهـا — دَلّاً تُنـاغيـه حينـاً أو يُنـاغيـهـا.
قـد لَفَّنـا العَيْشُ لا نَلْوِي على أحدٍ، — ولا نَـقولُ لِشَـيْءٍ جازنـاً: إيهـا.
فـلا نُبـالي مِنَ الأيـامِ مُقْبِلَهـا، — ولا نَـعُـدُّ مِنَ الأيـامِ مـاضِيهـا.
نَمْشي على الـدَّهْرِ نَشْوَانَيْنِ تَغْمُرُنـا — فيـه الأمـاني تُـرَوِّينـا ونُـرْوِيهـا.
ثمّ آفترَقْنا، فـلم أَنْسَ الهَوى، وعَدَتْ — على البـرايـا مـن الـدُّنْيـا عَـواديهـا

١٤٣/٨/٨

جسر برلين

كان في برلينَ جسرٌ من قِرميدٍ يمرّ عليه القِطارُ الحديديّ لِيدخلَ محطّةَ شارع فريدريك. كان سير القطار على هذا الجسر متوالياً، ففي كُلِّ دقيقتينِ يمرّ عليه قطارٌ آتِياً إلى تلك المَحطّة أو مُنطلقاً من تلك المحطّة.

كانت صِلتي بهذا الجسر وثيقة، فأنا كنت أمرّ تحتَه في كلّ يوم مرّتينِ على الأقلّ: مرَّةً في الصباح وأنا ذاهبٌ إلى الجامعة ثمّ مرّة في المساء وأنا راجع إلى غرفتي في شارع ألْبِرْشْتْ.

وخطر في بال الدولة الألمانية أن تُعيدَ بناء هذا الجسر وتجعل بناءه من حديد مكان القِرميد. ولم يكنِ العمل في ذلك سهلاً (كما أرى أنا ويرى أمثالي)، فبالإضافة إلى آثنينِ وسبعين قطاراً تمرّ على هذا الجسر ـ ذَهاباً أو إياباً ـ في كلّ أربعٍ وعشرين ساعةً، كانت هنالك السيّاراتُ التي تمرّ تحته في ذلك الشارع الرئيسِ (شارع فريدريك) ثمّ السياراتُ الأخرى التي تقطعه من الشَّمال إلى الجَنوب. وكان هنالك أيضاً أولئك المُشاةُ الذين يمرّون بذلك الجسر أو تحته من الشرق إلى الغرب ومن الشَّمال إلى الجَنوب في الاتّجاهين معاً.

كنت في طريقي يوماً فرأيت العُمّال يعملون على نصب هيكل من الحديد للجسر القديم...

وفي اليوم التالي (بعد أربعٍ وعشرين ساعة) أصبح (ذلك الجسرُ من حديد بعدَ أن كان، في اليوم السابق، من قِرميد..... ولم يختلَّ في تلك

المدّة موعدُ سير القطار الحديديّ: قطاراً كـلَّ دقيقتينِ يدخُـل المحطّة أو يخـرُج منها على هذا الجسر والعمّال يعملون في تبديل هيكلهِ قِطعةً قطعة.

لن أُحَـدِّثك عنِ الجسـور التي تُبنى في وطني، ولكنني سأقـول لك: إن إلى غرب جامعة بيروت العربية حُفرةً واسعة في منتصف الطريق (ولعلّ هنـالك عـلى مقـرُبة من بيتـك حفرةً مثلَهـا أو أكثر من حُفـرة). هذه الحفـرة يمرّ عليهـا الناس وتغـوص فيهـا السيّـارات (من الشـرق الى الغـرب ومن الغـرب إلى الشـرق) في طريقهم إلى الأونسكو أو وهم راجعون من طريق الأونسكو. وكذلك يمرّ الجميـع عليها (من الشَّمال إلى الجَنوب ومن الجَنوب إلى الشَّمال) في طريقهم من صيـداءَ إلى العاصمة أو من العاصمة إلى بِقاعٍ مختلفة من هذا الوطن.

هذه الحفرة المملوءة بالماء (القَذِر، فيما أحسَبُ) ـ ومن حسن الحظّ أنّهـا ليست عميقة جدّاً ـ ما تزال على حالها هذه منذ عامين على الأقل.

١٩٨٢/٣/١١

أنت أمير عربي

حينما كنت في ألمانية أتابع دراستي العالية سئلت بضع مرات، أأنت أمير عربي؟

وكنت أُجيب: لا. وخطر لي أن أسأل أحد هؤلاء السائلين: ما الذي يحمله على هذا الاعتقاد؟ فقال: نراك تنفق عن سعة، حينئذ أخرجت جواز سفري من جيبي وأريته أن مصرف الدولة يسمح لي في كلّ شهر بمائتي مارك.

كان المارك الألماني في السوق الدولية يساوي اثنين وثلاثين قرشاً سورياً لبنانياً، وكانت ألمانيا تعطي المارك للطلاب بستةَ عَشَر قرشاً. والمبلغ كان يسجّل في جواز السفر لئلا يسيء أحد آستعمال هذا الحق فيشتري المارك على أنه تلميذ ثم يبتاع به بضائعَ للتصدير. أما الذي كان يحوّل المال من طريق السوق الدولية (باثنين وثلاثين قرشاً) فكان بإمكانه أن يُدخل ما شاء من المال لحسابه في ألمانية.

كنت أنفق على كل ما أحتاج إليه. وفي المناسبات كنت أدفع كل ما يجب علي، بلا تأفف. ولعل الذي جعل نفراً من الناس يظنون بي ذلك الظن أن بعضنا كان يرد إليه من بلده ألف مارك في الشهر (بالإضافة إلى حقه بمائتي مارك بالسعر المخفض) ثم تجده يشكو العسر ويبخل في عدد من المناسبات.

وقال لي سائلي: فكيف تنفق أنت من «مائتي مارك» هذا الإنفاق الكريم، وفلان لا يستطيع أن ينفق من «الفٍ ومائتي مارك»، إلا إنفاقاً عسيراً؟

فقلت له: يا صاحبي، ليس في الأمر سر، أنا أعيش هنا وحدي. وهو هنا يعيش مثنى وثُـلاثَ ورُباع.

ولم يفهم محدثي الالماني هذا التعبير، ففسرته له قائلاً: انا هنا أنفق على

نفسي وحدَها، أما فلان فينفق على نفسه ثم على اثنتين أخرَيَيْنِ أو على ثلاثٍ أو أربعٍ أُخْرَياتٍ.

وسألت أنا طالباً من مثل فلان فقلت له: انا سأنتهي في هذا العام بعد سنتين من الدراسة، وأنت هنا منذ ثلاث سنوات ولا تعلم متى ستنتهي، فقال لي:

«إذا أنا أنهيت دراستي ورجعت الى بلدي فان دولتي ستعينني في وظيفة يبدأ راتبها باثني عشر جنيهاً ونصف جنيه. وهي الآن تحول الي في كل شهر خمسين جنيهاً».

١٩٨١/٩/٦ ١٩٨١/٩/٢٦

لَمَحات

حـلَّ الثّقيلُ بِداري ، قُـلتُ مُبْتَدِراً : هَلاَّ آنصَرَفْتَ ؟ فقال: مَهْلاً ، يا وَفي ،

إنّـي مـن القَـوْمِ الأعـاجـمِ نَسْـلُهُ. أَعَرَفْتَ مَنْعي ، قبلُ ، أم لم تَعْـرِفِ؟

فـأَجَبْتُهُ : حـقّـاً عَـرَفْتُ . وإنمّـا أنـا شاعرٌ لي صَرْفُ ما لـم يُصْـرَفِ.

ليلة ساهـرة

يوم السبت، في السادسِ من شهر شباط (فبراير) من عام ١٩٣٦، أقام نادي جامعة برلين (همبولت كلوب) حفلةَ تعارفٍ جمعتِ الطلاب الأجانب مع عدد من الالمان أيضاً، شباناً وشابات.

بدأت الحفلة في الساعة الثامنة مساء. والعادة في مثل هذه الليالي أن يتناول الساهرون أنواعاً من المشروبات الروحية، ظناً منهم أن هذه المشروبات تساعد أعضاءهم على التنبّه وعيونهم على السهر. أما أنا فكنت أتناول في كل ساعة قدحاً من عصير البرتقال (وشهر شباط هو شهر البرتقال)، والبرتقال يبعث النشاط في الجسم، وفيه أيضاً أشياءُ من الغذاء.

بدأت الليلة بعدد من المشاهد العربية في الأكثر (كان في ذلك الحين مائة طالب عربي في جامعة برلين) وبأنواع من الكلام والتعارف. وكان من المنتظر أن تنتهي الحفلة في نصف الليل أو بعده بقليل. ولكنّ الساهرين استمروا في ليلتهم هذه إلى الرابعة صباحاً، حينما طلب المشرفون على النادي إخلاء المكان.

لم أُرْبِطْ وجودي في تلك الليلة بأحد رباطاً دائماً: لقد أحببت أن أتجول في طول النادي وعرضه: أردت أن أدرس طبائع الناس، حينما يخرجون من قوانين المجتمع الرتيبة.

في أثناء تطوافي، في أول الليل، تقدمت مني بهكنة (كما يقول طرفة بن العبد) أو هركولة (كما يقول الأعشى) ـ أي فتاةٌ عظيمة الجسم ـ وكانت تلبس في تلك الليلة الساهرة (للتنكر) «شورتاً» (سروالاً قصيراً) وقالت لي: أتريد أن تسقيني كأساً؟ فقلت لها: حباً وكرامة. ثم ذهبنا إلى المشرب وقلت لصاحبه أن

يسأل الفتاة عما تريد. وبعد أن أخذت هي المشروب الذي تريده دفعت أنا ثمن «ذلك الشراب» ثم تركتها تشرب كأسها وحدها.

وفي منتصف الليل جاء إليّ صديقان وقالا: أسرع، أسرع. فلان الياباني يريد أن ينتحر، فقلت لهم: وما صلتي بذلك؟ لست شرطياً ولا محققاً عدلياً. قالوا ولكن الأمر يتعلق بك. هذا الشاب الياباني، معه فتاة ينفق عليها منذ عامين. وهي الآن تريد أن تتركه في سبيلك.

وخفت أن ينفذ الشاب الياباني عزمه فيبقُر (بضم القاف: يشق) بطنه (هيراكيري). قلت للفتاة: هل التقينا من قبل؟ فقالت: لا. فقلت لها: هل تعرضت أنا لك الليلة بسؤال أو بكلام، فقالت ايضاً: لا. ثم تركتها مع صاحبها، وأنا أقول في نفسي: إذا بقر هذا الياباني بطنه الليلةَ، فلن يكون ذلك بسببي.

وفي الصباح (٣٦/٢/٧) كنا كلنا نقف عند باب النادي ننتظر وسائل النقل التي يمكن أن تنقلنا شيئاً فشيئاً إلى أماكن سكننا. الثلج يغطي الارض وسطوح الأبنية وأغصان الأشجار، وحركة النقل خفيفة (اليوم يوم أحد في برلين، والساعة لم تشرف بعد على الخامسة صباحاً)، وكل الناس ينتظرون. وفي هذا الحشد الواقف تانك الفتاتان الشقيقتان اللتان حدثتكم عنهما في الأسبوع الماضي: الكبرى جرمانية ذات بسطة في الجسم شقراء زرقاء، والصغرى معتدلة القامة سمراء أشبه بأهل اسبانيا أو بأهل ايطاليا ـ وكانت فوق ذلك من اللواتي أشرفن على الإعداد لتلك الليلة الساهرة. ولم أكن أنا أقف الى جانبهما.

ولما طال الوقوف، قال شاب لهما: لنأخذ «الاوتوبوس» القادم، وإذا نحن وصلنا إلى العمران (فالنادي كان في غربي برلين) أخذنا وسيلة النقل التي تصل بنا إلى حيث تريدان. وقال آخر: يمكن أن أستدعي «سيارة تاكسي». وقال ثالث:

يمكن أن أتصل بصديق لي عنده سيارة خاصة فيأتي وننتقل معه إلى حيث تَقصِدان.

ويبدو أن الكبرى قد ملّت هذا الكلام، فقالت: إذا أراد عمر أن يذهب معنا، فنحن نذهب ماشيتين.

إنني أكره المزح كرهاً شديداً، ولا أحب من الإنسان أن يقول كلاماً لا يَقصِده، ناولت ساعدي الأيمن للكبرى وساعدي الأيسر للصغرى، ثم سرت بهما على ذلك الثلج الذي كان يغطي الارض من غربي برلين إلى جنوبي برلين، حيث تسكنان، ثم تركتهما وتابعت سيري إلى الشمال الشرقي من برلين، إلى غرفتي.

٨١/٧/٥ ١٩٨١/٧/٢٥

لَمَحات

ويَكْفيك من سَلْمى على البُعْدِ نَظْرةٌ إذا هِيَ بالإِيماء نَصّتْ يَمينَها.
فواللهِ ما أدري، وسلمى مُطِلّةٌ، أشمسٌ تراءتْ أم رأيتُ جَبينَها؟

أساتذتي . . . في باريس

بعد أن قضيت الفصل الاول (١٩٣٥ ـ ١٩٣٦) في برلين كتب إليّ أستاذي يوسف هل من أرلنغن أن عطلة نصف السنة ستطول أربعين يوماً، فمن الخير أن أذهب إلى باريس في هذه الفترة. وكتبت بذلك إلى اخوان لي في باريس يدرسون في السوربون. فجاء ردّهم سريعاً بأن أستعجل القدوم. وصلت إلى باريس في الساعة الثامنة مساء. وفي صباح اليوم التالي جاء أربعة من أخواني يقولون: هيا، إن وليم مارسيه ينتظرك، وهو من مدة يسألنا كل يوم: متى يصل عمر فروخ. ولما التقيت وليم مارسيه في باحة السوربون، قبض بكفه على لحيته الصغيرة الشقراء وقال: أأنت عمر فروخ؟ فقلت له: نعم. قال: كنت أظنك شيخاً بجبة وعِمامة.

إن وليم مارسيه رجل ذكي مشرق الوجه بارع في الحديث يعرف لهجات العرب: يتكلم باللهجة الشامية فتحسبه من حي الميدان، ويتكلم باللهجة المغربية فتحسب أنه من كندافة في جبال الاطلس. كنا ندرس عليه نصوصاً عربية مختلفة، وكانت تعليقاته غاية في التثقيف. وهو مثل سقراط في القدماء والشيخ محمد عبده في عصرنا: يشع عليك من شخصيته أكثر من الجديد الذي تتعلمه منه. أذكر أنه كان معنا راهب يقولون له: الأخ فلايش (لعله الاب فليش ـ بامالة الياء، والموجود عندنا في بيروت في اليسوعية). ـ وبما أنني كنت قد علّمت سبع سنوات قبل ذهابي لمتابعة دراستي في أوروبا، فإن «مهنة التعليم» صحبتني إلى صف وليم مارسيه. وكثيراً ما كانت صناعة التعليم تَغْلِبُني فلا يكاد طالب يخطىء في القراءة حتى أسرع إلى تصحيح الخطأ كما كنت من قبل أفعل في صفوفي، فالتفت إليّ وليم مرسيه مرة وقال لي: أنت مزعج.

وتلقيت أيضاً شيئاً قليلاً من العلم على ديمونبين (وكان شيخاً هادئاً طُوِيَ على علم كثير بالحضارة الإسلامية، له كتاب عنوانه «المؤسسات الإسلامية» ـ نقل

إلى اللغة الانكليزية ـ وكنت في أواخر عشر الخمسين أضعه في يد الطلاب في جامعة دمشق لدراسة نصوص تاريخية باللغة الانكليزية).

وكان لويس ماسينيون ذكياً جداً، كما كان لبّاساً أنيقاً في ثيابه وكما كان في كلامه. غير أنه كان يهتم (إلى جانب اهتمامه بالسياسة ـ فقد كان المستشار الشرقي في وزارة الخارجية الفرنسية أيضاً) بالتصوف المتطرف وباللمَحات النادرة. وكان ماسينيون، في دروسه، يجلس (في كوليج ده فرانس) على منصة عالية، بخلاف مارسيه الذي كان يجلس معنا حول طاولة مستديرة (أو مربعة ـ والشك مني). ومنه سمعت، مثلاً، أن فاطمة بنت محمد ﷺ، كانت عوراء. لا أعلم من أين أتى ماسينيون بذلك، ولا أنا بحثت عن صحة ذلك فيما بعد، إذ لا فائدة من مثل هذا البحث في تاريخ الحضارة. إن الحجاج بن يوسف كان أعور، وأن أبا العلاء المعري عمي في طفولته، كما عمي الطبيب أبو بكر الرازي في آخر أيامه. ثم أن بشار بن برد قد ولد أعمى.

ودرست قليلاً على قولان (في مدرسة الدراسات العليا) ـ وكان لا يزال شاباً، أما بلاشير فحضرت (١٩٣٦) مناقشة رسالته عن المتنبي.

وكان ليفي بروفنسال أنيقاً لباساً مثل ماسينيون، ولكنه كان أكثر اختلاطاً بالطلاب، ولا شك في أنه كان واسع المعرفة بتاريخ الإسلام في الأندلس، وكان منصفاً برغم أنه كان يهودياً. كنا ندرس معه «باليوغرافي» (قراءة الخطوط القديمة). كان يأتي في كل درس لكل طالب بنص لمحاولة فك رموز ذلك النص (وكانت النصوص بطبيعة الحال مختلفة). وقد كنت سريعاً جداً في فك الرموز على الرقعة التي كانت تقع إلي. وفي يوم من الأيام قال لي: في المرة المقبلة سآتي لك بنص خاص. وفي المرة التالية أتى إلي بصورة نص منقور على خشب، وقد ضاع كثير من معالمه. أعطاني النص، وقال لي أجلس في آخر الغرفة. ولكنه ما كاد

يستقر في كرسيه حتى رفعت يدي. فقال لي: ماذا تريد؟ قلت: أريد أن أسمعك النص. وجاء إلى مكاني وقرأت له النص فقال لي: عجيب، هذا النص مشوّه، ولو لم أجد أنا أصله في كتاب مخطوط لما كان لي سبيل إلى قراءته. ثم قال لي: أنت لست تلميذاً. مددت يدي إلى جيبي وأبرزت له بطاقة جامعة برلين فتأملها طويلاً (طالب في السنة الاولى). ردّها إلي، وهو يقول: ولكنك تختلف عن هؤلاء (وأشار بيده إلى نفر من رفاقي في الصفوف الأمامية). فقلت له: نعم، أنا أختلف عنهم: هم نجحوا في البكالوريا في العام الماضي (وفي بلد لا يجيد طلابه اللغة الفرنسية) وأنا أحمل بكالوريوس علوم من الجامعة الأميركية، وقد درّست سبع سنوات، ولي عدد من الكتب المدرسية والكتب الأدبية، وبيني وبين نفر من المستشرقين معرفة شخصية ومراسلات.

وفي صبيحة اليوم الذي غادرت فيه باريس راجعاً الى ألمانية ودعت الأساتذة، ولم أستطع أن أرى لويس ماسينيون. وبعد أسبوع تلقيت من ماسينيون بطاقة يعتذر فيها من شغل طرأ عليه وحال دون توديعي. ولما توفي ماسينيون وصل إليّ في بيروت نشرة بنعيه.

أما وليم مرسيه فطال وقوفي معه يوم ودعته. وفجأة التفت الي وقال: يا عمر، لماذا تَـرْجِع إلى ألمانية، ابق عندنا فتتعلمَ مجاناً ونعطيك منحة، ثم إذا أنت رجَعت إلى بيروت وجدت منصباً ينتظرك.

لقد لسعتني كلماته كأنها عقارب سوداء، ونسيت وَقار العلم وأدبَ الحديث وقلت له: أنا في باريس منذ أربعين يوماً، ولو كنت أعلم أن في فرنسة علماً يحجزني أكثر من أربعين يوماً لبقيت من تلقاء نفسي.

إن الذي قلته في تلك الحال لم يكن صحيحاً، ففي فرنسا علم كثير يقضي الإنسان في تحصيل بعضه عمره كله ثم لا يبلغ الى مداه. ٢/١٢/٨٠

ولكن وليم مارسيه أدرك ما كنت أعني. ١٩٨٠/١٢/٢٧ (ص ١٢)

من أيام هتلــر

من حسن حظ نفر من الناس أن يعيشوا في زمن رجل عظيم أو رجل مشهور. ومعَ أن الشهرة حظوظ (كما يقول ابن رشيق)، ومعَ أن الناس مختلفون في تعريف «العظمة»، فإن هنالك تعريفاً واحداً على الأقل يجب أن يُقِرَّ به جميع الناس: إن الرجل العظيم هو الذي يترك بعده أثراً نافعاً.

وأنا الآن لست في معرض الحكم على هتلر وأيام هتلر، ولكني سأروي عدداً من الملاحظات العابرة لأنني عشت في ألمانية من أيلول (سبتمبر) ١٩٣٥ إلى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٧، في ذِروة حكم هتلر.

الاستبداد: إذا كنت تعني أن التنظيم وضبط الأمور هما من الاستبداد، فإن ألمانية كان في ذلك الحين في ذِروة الاستبداد. يتفق مثلاً أن ينقطع ورود البيض من بلغارية أو تقصِّر المزارع الالمانية في صنع الزبدة في فصل ما، ثم تدخل أنت دكاناً ليس فيه إلا بيضة واحدة وربع كيلو من الزبدة فتشتري تلك البيضة وهذه الزبدة بالثمن الذي كنت تشتري مثلها بالأمس أو قبل الأمس.

وكانت محطة فريدريك تقع بين المنزل الذي أسكنه وجامعة برلين، وكنت أمر من تحت جسر هذه المحطة مراراً في كل يوم. وكانت تلك المحطة تستقبل كل دقيقتين قطاراً أو تودِّع قطاراً. وكان ذلك الجسر من القرميد. وخطر للدولة أن تبدل القرميد في الجسر بحديد. وفي أربع وعشرين ساعة أصبح الجسر من القرميد جسراً من حديد، ولم يتأخر قطار عن موعده جزءاً من دقيقة.

الخمر والبرتقال: أفضل الفواكه البرتقال (لأنه لا يختمر في المعدة)، وهو عندي فاكهة مفضلة (في الحضر والسفر)، وربما أكلت البرتقال ثلاث مرات في النهار بعد وجبات الطعام الثلاث. خرجت في ١٩٣٦/٤/٢٠ أريد أن أشتري

شيئاً من البرتقال، فلم أجد في السوق حبة منه. فسألت البائع عن سبب ذلك فقال: اليوم مولد هتلر تقام الاحتفالات به في جميع أنحاء ألمانية، والبرتقال اليوم تشتريه الدولة، لأن هتلر لا يشرب الخمر ولا يقدم الخمر في مثل هذه المناسبة.

السيارة ورقمها: يستخدم هتلر سيارة مرسيدس بنتز ذات رقم عادي على لوحة باللون الذي تكون منه جميع لوحات السيارات الأخرى.

هتلر الخطيب: كان هتلر يطيل في خطبه (ساعة أو ساعتين أو ثلاثاً). كانت هذه الخطب تذاع بالراديو. ولكنّ كثيرين من الناس كانوا يفضلون - إذا هُم آستطاعوا - أن يسمعوا هتلر يخطب وهم يَرَوْنَه. وكنا نذهب قبل موعد الخطبة بساعة أو أكثر حتى نستطيع أن نجد مكاناً قريباً من الشريط الذي يفصل باحة الخطابة عن موقع النظّارة. وكان هتلر يَهدِر في خطابه هدراً، فلا تسمع في تلك الأثناء صوتاً غير صوته. وكنت مرة قريباً جداً من الشريط، وكان قربي نفر من الأمهات يحملن أطفالهن، فلم أسمع طفلاً بكى، ولم أر شخصاً تحرك من مكانه.

الصورة والعلم والنشيد: هذه ثلاث شارات رسمية للدولة، فلا يجوز لأحد أن يرفع في متجره صورة هتلر ولا أن يعلق علماً على شرفة داره أو سيارته. ولا يجوز أن يُنشد النشيد الوطني إلاّ في المناسبات الرسمية التي تتولاها الدولة بنفسها.

هتلر والنصرانية: كان في ليبزغ محل كبير للصور الفنية والمطبوعة. وكنت كثيراً ما أقصِده لشراء بطاقات البريد أو لعمل إطار لصورة مائية أحتاج اليها لمناسبة ما. ونشأت بيني وبين صاحب ذلك المحل أُلفة، فسألني يوماً: هل تدرس على أرنست برجمن؟ فقلت له: نعم، أنا أدرس عليه (في جامعة ليبزغ) تاريخ الدين والأديان. فقال لي: أهو الذي يقول إن للغابة روحاً، وأن للنهر روحاً؟ قلت له: نعم، هو يقول ذلك. واتصل الحديث بيننا إلى موقف ألمانية من الدين

فقلت له: لو أصدر هتلر أمراً اليوم بإلغاء النصرانية من المانيا، فما تقول؟ فأجابني (وكان كاثوليكياً): لو أصدر هتلر هذا الأمر لقلت إن أمره صحيح.

المطاعم والمقاهي والناس: كان لكل إنسان أن يدخل المطعم الذي يريد أو المقهى الذي يختار بقطع النظر عن المبلغ الذي يحمله في جيبه. كان مفروضاً على المطاعم والمقاهي أن تُعِدَّ قوائم الطعام والشراب في تدرج تصاعدي فيبدأ ما ثمنه عشرين بفنكاً (ستة قروش لبنانية، في ذلك الحين) بالرقم واحد ثم تنتهي القائمة بقارورة من الشراب الفاخر عندهم بأربعين ماركاً (اثنتي عشرة ليرة). وكثيراً ما كان يدخل الناس العاديون أحد المقاهي الفخمة ثم إذا جاءه الندل (بنون ودال مهملة ساكنة ولام: خادم المقهى) إليهم قالوا له: رقم ١.

النازيون واليهود: لا أعلم من ذا الذي اخترع كلمة نازي. الحركة الألمانية كانت تدعى ناتسيونال سوسياليسموس (الاشتراكية الوطنية) فاقتطع قوم «نازي» من «نازيونال» (بتقليد اللفظ الفرنسي).

ثم إني في أول نزولي في برلين سكنت في شارع ألبرشت. وكان الحي اليهودي على نحو ثلاثمائة متر من مسكني. وكان عليه حراسة من الشرطة لحمايته، إن النِّقمة على اليهود كانت عارمة. قبل هتلر كانت الصحافة كلها تقريباً في يد اليهود، كما كانت مهنة المحاماة في أكثرها لليهود. في تلك الأيام حرم على اليهود التدريس في الجامعات والمدارس الرسمية. وكان الطلاب في الجامعة يحملون بطاقات ملونة: اللون الابيض للألمان، اللون الازرق للأجانب من غير اليهود، واللون الأسمر لليهود.

تنظيم السير: حضرت أكثر حفلات الاولومبياد في برلين (١٩٣٦) وكان ملعب القوى (الركض والقفز وكرة القدم) يتسع لثلاثمائة ألف أو يزيدون. وكان على كل بطاقة رقم المقعد ورقم الباب الذي يدخل حامل البطاقة منه ورقم القطار

أو الاوتوبوس الذي يمكن أن ينقله إلى قلب المدينة (لأن كثيرين من النظارة كانوا أجانب). وتنتهي الحفلة، وبعد نصف ساعة تفرغ مقاعد الملعب من النظارة ولا تسمع صراخاً أو أحداً يسأل كيف يسير أو إلى أي جهة يذهب.

كل هذه وغيرها كانت نافعة من جهة، ولكنها كانت أيضاً قيوداً على الحرية الشخصية من ناحية ثانية. غير أن هذه القيود كانت نعمة على أصحاب الاستقامة في الحياة. وقد كان الجهاز الحكومي يخدم المواطن والغريب على أنهما انسانان.

١٥/١١/٨٠

لمحات

ذَكّـرِوني عَهْـدَ الصَّبــابـة إنّي وَاجِدٌ من شَذاهُ بعضَ الحَنينِ.

أَنْشِدوني ما كُنتُ أُنْشِدُ في الرَّو ضَةِ، والطَّيْرُ مُنْشِدٌ في الغصونِ.

يَـوْمَ كُنّـا نَميــلُ ذاتَ يَسـارٍ، وتَميلُ الأغصانُ ذاتَ اليَمينِ.

وآتّخَـذْنا من الـرِّياضِ بِسـاطاً ثَمَّ مِنْ نَـرْجِسٍ ومِنْ نِسْرينِ.

ولَهَوْنا، والدَّهرُ يُمْعِنْ في السَّيْـ ـرِ وكُنّا مَعَ الدُّجى في سُكونِ.

فـانْقَضَتْ غَفْلَةُ الصِّبا وتَـراءَتْ شَمْسُ مُسْتَقْبَلِ الهُدى المَرْهون.

أنتَ تَبْني مُسْتَقْبلاً لَكَ فـارْغَبْ بِبِنــاءٍ على الـزَّمــانِ مَكينِ.

٩٩,٩٩٧ بالمائة

حينما كنت أتابع دراستي في ألمانية (١٩٣٥ ـ ١٩٣٧)، كانت ألمانية الهتلرية في عنفوان قوّتها. وكان قد نشأ فيها جيل يرفع هتلر فوق كل شيء في هذا العالم. كان هتلر خطيباً في جماهير الناس من الطبقة الأولى ـ كان يطيل، ومع ذلك فإن الناس كانوا يجلسون إلى الراديو لسماعه كأنهم في معبد لهم.

خطر في بالي يوماً أن أسمع هتلر يتكلم وأنا أراه. كان موعد الخطاب الساعة الواحدة بعد الظهر (وفي ذلك امتحان لتعلق الناس به). ذهبت إلى الباحة التي يلقي فيها خطبه في العادة، وكنت سعيداً لأنني وجدت موطىء قدم على بعد متر واحد من الشريط الشائك الذي يفصل جماهير الناس عن الرجال الرسميين وعن الجنود المكلفين بالحماية.

ولم يَحِنْ موعد الخطاب حتى كان الناس قد ملأوا الساحات والباحات والواحات وشرفات المنازل المطلة على مكان الاجتماع. وطال الخطاب ساعتين لم تكن تسمع في أثنائهما صوتاً ولا همساً. وكان إلى قربي امرأة تحمل طفلاً رضيعاً لا أذكر أنه بكى.

ما كان هتلر بحاجة إلى استفتاء، ومع ذلك فقد أحب يوماً أن يكون في ألمانية آستفتاء في رغبة الناس في آستمراره في الحكم ـ أو في طريقة الحكم، على الأصح. أذكر أن ذلك الاستفتاء كان وقته من الثامنة صباحاً إلى السادسة بعد الظهر.

وأعلنت النتائج فكانت ٩٩,٩٩٧ بالمائة... وكان إعلانها في الساعة الخامسة.

* * *

في أيام الإنتداب الفرنسي على لبنان كان في لبنان مجلس للنواب، وكانت السلطة الفرنسية تتولى الإشراف على الانتخابات من خلال رجال الدرك اللبنانيين.

في أحد الأعوام تقدم روكز أبو ناصر وجورج عقل لخوض الانتخابات النيابية اللبنانية عن مِنطقة المتن (أواسط جبل لبنان)، وكان هوى الدولة الفرنسية مع روكز أبي ناصر. وعند فتح الصناديق لفرز الأصوات جلس حول الطاولة التي يجري عليها جمع النتائج نفر من رجال الدرك يقرأ أحدهم قوائم الترشيح ويدوّن أحدهم ما يسمعه. وكان إلى جانب الدركي الذي يقرأ القوائم ممثل للسلطة الفرنسية (وهو بطبيعة الحال فرنسي وعسكري أيضاً). وحضر جورج عقل فرز الأصوات قرب الدركي الذي يقرأ القوائم (وذلك حق له). ولم يحضر روكز أبو ناصر تلك الجلسة.

وجعل الدركي يتناول قوائم الترشيح من الصناديق ويقرأ: روكز أبو ناصر، روكز أبو ناصر، روكز أبو ناصر... وتمر قائمة فيها جورج عقل، فيقرأ الدركي: روكز أبو ناصر. وجعل جورج عقل ينبّه الدركي إلى أنه يخطىء في قراءة الأسماء، ولكن الدركي آستمر في القراءة كما يشتهي (ولعله لم يكن يعرف القراءة). ولما فقد جورج عقل الأمل في حمل الدركي اللبناني على أن يقرأ الأسماء بأمانة، شكا أمره إلى الضابط الفرنسي. فقال له الضابط الفرنسي: «باستطاعتك أن تتقدم بدعوى للطعن في الانتخابات بعد إعلان النتائج».

* * *

في أحد أيام الصيف ـ وكنا نصطاف في بلدة جديتا (في البقاع) خرجنا بالسيارة لنقوم مع الأولاد بنزهة في الأماكن المجاورة. لما وصلنا إلى الطريق الرئيسة (لا تقل: الرئيسية) في شتورا، كان هنالك نفر من رجال الدرك يستوقفون

السيارات ويفتشونها. ووصلت سيارتنا فأشار إلينا دركي بأن نقف إلى جانب الطريق. واتفق، في هذه اللحظة أن مرت سيارة سوداء كبيرة (طولها ستة أمتار) تسير بسرعة عظيمة. فقلت لذلك الدركي: أنظر هذه السيارة...

فرد علي قائلاً: وأنت، ما يعنيك من هذا الامر؟... تابع سيرك.

٨١/١٠/١٠ ١٩٨١/١٠/٣١

لَمَحات

هـذا الـبُعادُ. فكيفَ فَقْـدُكْ؟ قـد أهلَكَ العُشّـاقَ صَـدُّكْ.

يـا ظـالـمـاً مَـلِكَ الـنُّـفـو سَ، ألَمْ تَجِـدْ أحَـداً يَرُدُّكْ؟

إرْفِـقْ. وإنْ لـم تَـبْـتَـغِ الـ ـحُسنَى، أما أعْيـاكَ كَـدُّكْ؟

إنّـي أعُـدُّ ذُنـوبَ نَـفْـ سي في الـحيـاةِ ولا أعُـدُّكْ.

أنَـا ضِـمْـتُ أكبـادَ الـرِّجا لِ. وضـامَني، يا حُلْوُ، بُعْـدُكْ.

قـلبـي يَـرِفُّ إذا ذَكَـرْ تُـكَ وَهْـوَ يعلَمُ أينَ مَهْـدُكْ.

كـم قُـبـلَةٍ نـازَعْـتَـهـا ثَغْـري ومِثْلُ الجَمْـرِ خَـدُّكْ.

هـل كُـنتَ تَـخْشـى أن يَـبـو حَ بِها، وشَذْوُ الطَّيْرِ شَـذْوكْ؟

ـد طـابَ زَنْـدُك في الأنـو فِ، وطاب في الأفواهِ شَهْدُكْ.

برلين ١٦/١١/١٩٣٥

ولادة الراديو والتلفزيون

لقد شهدت ولادة الراديو والتلفزيون.

في عام ١٩٢٦ كنت لا أزال تلميذاً في الجامعة الأميركية في بيروت. فقيل لنا يوماً: إن أساتذة الفيزياء سيذيعون الصوت على الهواء. فاجتمعنا في مبنى (وست هول). وكان الأساتذة في غرفة والباب مغلقاً عليهم (حباً في نجاح التجربة التي كانت أخبارها قد وردت من العالم الغربي). ودخلنا نحن إلى غرفة ثانية (ولم يكن بين الغرفتين سوى جدار). ثم سمعنا كلام الأساتذة ينقل إلينا بغير «سماعة».

وبعد أحد عشر عاماً (في خريف ١٩٣٧) كنت قد أنهيت دراستي في ألمانية وأحببت أن أقضي مدة في باريس قبل الرجوع إلى بيروت. في ذلك الحين كان «معرض باريس». زرت المعرض مراراً. وفي مرة دخلت مع صديق لي (كان يدرس في باريس) إلى الجناح الألماني، وكان فيه غرفة عليها «نقل الصور عبر الهواء». دخلنا تلك الغرفة فإذا فيها طاولتان وكرسيان يفصل بينهما حاجز رقيق (من الخشب فيما أظن) وكان على كل طاولة أداة تلفون. جلسنا على الكرسيين. ولما رفعت السماعة لأكلمه (وكان هو قد فعل مثل ذلك) سمعت كلامه ورأيت صورته على شاشة أمامي (ورآني هو أيضاً وسمع مني وسمعت منه).

وبعد السنين الطوال أصبح الراديو على ما نعهد اليوم، وأصبح التلفزيون على ما نعهد أيضاً.

لقد كان المقصود من الراديو ومن التلفزيون نقل الأخبار بصدق وبسرعة. ونقلها لخير البشر وخير البشرية. ومن قبلُ كان غوتنبرغ الألماني قد اخترع الطباعة بالأحرف المتحركة ليستفيد البشر منها بطباعة الكتب المقدسة وتراث البشر العلمي

والأدبي واللغوي والفني باتقان وبثمن قليل (فكانت النتيجة في العدد الأكبر من وجوهها طبع الأكاذيب وأخبار السوء بلا إتقان وبأثمان مرتفعة). ومثل ذلك كان حظ الفرد نوبل الأسوجي الذي وقع في مختبر الكيماوي (في مصنعه) اتفاقاً على طريقة تحضير الديناميت (المادة المتفجرة) ثم وضع قبل موته الجوائز المعروفة باسمه لتمنح للعلماء الذين يخدمون الإنسان والإنسانية بجهودهم. وكان نوبل قد قصد (في ظنه) أن يُستخدم الديناميت في تكسير الصخور توفيراً لجهود العمال وعوناً لهم على تحطيم المواد القاسية. ولكن الديناميت يستخدم اليوم لما تعلمون ولما لا تعلمون.

لنرجع إلى الراديو وإلى التلفزيون فإن الكلام عليهما أسلم من الكلام على الديناميت.

في صباح هذا اليوم (الذي كنت أكتب فيه هذه «الغبرة») كنا قد قضينا ليلة فتحت بها أبواب جهنم بالديناميت (والقذائف العشوائية). أحببت في تلك الليلة أن أعرف من الراديو شيئاً من خبر هذا «التدهور» الذي طال. كان الوقت قريباً من الساعة السوية (ولندن تذيع باللغة الإنكليزية في الليل كل ساعة حتى الواحدة من صباح اليوم التالي). نقلت إبرة الراديو إلى محطة لندن فلم تذكر لندن شيئاً. قلت: لندن معذورة فإن المسافة بينها وبين بيروت بعيدة. ولعل مراسلها في بيروت نائم الآن ولم يسمع أصوات الانفجارات.

وبعد مديدة حان وقت الأخبار من إذاعة بيروت. فقالت إذاعة بيروت: «يخيم على بيروت الآن هدوء تام. ومنذ الظهر إلى الآن لم يسمع صوت انفجار».

٨١/٥/٣١ ١٩٨١/٦/١٣

أنتم، المسلمين، سعداء . .

ذكرت في قطعة سابقة أنني، حينما كنت أدرس في المانية. سكنت غرفاً في عدد من البيوت كان فيها (وفي جوارها بطبيعة الحال) فتيات في مثل سني. ومعَ ذلك فإنني في كثير من الأحيان لم أتحدث مرة إلى فتاة من هؤلاء الفتيات، ولا أذكر أنني ألقيت على واحدة من اللواتي أعنيهن سلاماً. ولقد سبق لي في تلك القطعة التي أشرت إليها أن استشهدت ببيت شوقي:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وقلت في التعليق عليه: «ما دمت لا أحاول أن أصل إلى «اللقاء» فما الفائدة من البدء بالسلام والكلام؟»

غير أن لكل قاعدة شواذّ (والشاذُّ يؤكد القاعدة).

في الليلة الأخيرة التي بِتُّها في المانية انتبهت من النوم، بعد منتصف الليل، على قرع شديد على الباب. كنت في «أرلنغن» أسكن في بيت تحيط به جنينة واسعة، وكانت الغرفة التي أنام فيها مطلة على الجنينة في اتجاه الباب. وأدركت أن يوسف فايس (صاحب البيت) وامرأته (وكانا فوق الثمانين من العمر) يجب أن يكونا مستغرقين في النوم. وكذلك «كوني» (الخادم) يجب أن تكون تعبة (بفتح فكسر) جداً ومستغرقة في النوم أيضاً. إنها كانت امرأة في نحو الأربعين من العمر ضخمة الجسم وعرجاء وكانت مسؤولة عن كنس البيت وغسل الثياب وترتيب الغرف وعن شراء الأغراض من السوق وعن العناية بالزروع التي في الجنينة وعن الأشجار المثمرة أيضاً.

نهضت من فراشي وذهبت إلى الباب فراعني أني رأيت وراءه فرنسيسكا (بنت صاحب البيت). لم يكن بد من السؤال والحديث (فأنا ابن الشرق المسلم لم تغير المانية من أخلاقي شيئاً). فقلت لها: أين كنت إلى الآن؟ قالت: أنا راجعة من سويسرة.

قلت لها: أما كان الأفضل أن تنتظري قليلاً في سويسرة ثم تأتي بقطار الصباح. فأجابت (وفي عينها دمعة غير عزيزة): كنت مع خطيبي في رحلة إلى سويسرة ثم اختلفنا أمسِ بعدَ الظهر اختلافاً حملني على أن أتركه نهائياً، من أجل ذلك جئت بقطار الليل. فسألتها وما سبب الاختلاف الذي أدى إلى هذا الفراق العاجل؟ فقالت (ودمعة ثانية في عينيها) ـ وسأورد كلامها حرفاً حرفاً: لقد بطل إعجابه.... بصفاتي الجسدية...

وفي الصباح كانت فرنسيسكا وأمها وأبوها يقفون عند باب الدار لتوديعي وأنا راجع إلى الوطن. ولقد كان في عَيْنَيْ فرنسيسكا دُموعٌ غير الدمعتين اللتين كانتا في عينيها بالأمس.

هذه الحادثة ذكرتني بقصة قصها أستاذي علي.

كنا في نزهتنا المسائية المألوفة (ولم تكن ابنته عائشة معنا) فحكى لي الحكاية الأولى من شبابه (كان يوم أن حكى لي هذه القصة في الواحدة والستين من العمر، وكنت أنا في الثلاثين). والأستاذ يحاول أن ينقل آختباره إلى طلابه لينتفعوا بذلك الاختبار (تلك ناحية من نواحي لقاء المشيخة: كبار الأساتذة والغاية الأساسية من التعليم الجامعي).

ثم سرنا بضع خطوات ونحن صامتان.

بعد ذلك التفت إلي وقال: أَنْتُمْ، المسلمين، سعداء.

فقلت له: «في أي الأمور؟».

فقال: أن المسلم (في العادة المألوفة) حينما يتزوج ينتقل من عالم ضيق إلى عالم أوسع، إلى عالمٍ أكثرَ تنوعاً وأزهى ألواناً. أما عندنا فإن أحدنا إذا تزوج لم يجد بعد الزواج شيئاً لم يكن يعرفه قبل الزواج.

١٩٨١/٩/١٧ ١٩٨١/١١/١٤

لَمَحات

خَـلِّ الـصِّبـا يـتـريّـثُ ودَعِ الـهـوى يـتـحـدّثُ
عـن لـيـلةٍ طـاب الـلِّقـا ءُ بِـهـا وغـاب الـخُـنْبُـثُ.
وقُـبـالـتـي جَـيْـداءُ لَـوْ تَلْقى القُسـوس تَحَنّثـوا:
تـتـرنّـمُ الأطـيـارُ فـي ألـفـاظِـهـا وتُـوَثْـوِثُ.
وتـبُـثُّ لـي لَهْـوَ الـحـديـ ـثِ مُـنَـغَّـمـا يـتـبَـجّـثُ.
مـا كنت أدرى أن طيبَ الـ ـعـيش سِـحـرٌ يُـنـفَـثُ.
حتّى سـمعـتُ حـديثَـهـا ومضى الـظلامُ يُحَثْحِث.
فـي خـدّهِـا بَـرْدٌ، ولا كِـنْ قُـلبـهـا يَـتـأرَّثُ.
وفُـتـونُـهـا عـيـنٌ تَـرِفُ ـفُ مُـنَـى وخَـدٌّ مَـيِّـتُ.

برلين ١٩٣٥/١١/٣٠

الخيال السليم والخيال السقيم

في كل أسبوع أرى نفراً من الذين يقرأون هذه الكلمات فيرغبون إليّ في أن تكون هذه الكلمات أكثر تَعَلُّقاً باختباري الشخصي الخاص منها بالملاحظات الاجتماعية العامة وأن تكون أيضاً أكثر صلة بالسياسة. وهذا أمر صعب، فالحكمة القديمة تقول: لا تعاشر الملوك، فإنهم إن أحبوك أهانوك وإن أبغضوك قتلوك. ومعَ ذلك فسأحاول قريباً أن أستجيب لتلك الرغبة مع شيء من الحكمة.

ثم هذه ملاحظة مرّ شيء قريب منها من قبل. في المانية لا يناقشون الرسالة الجامعية، ذلك لأن الرسالة الجامعية تكتب باشراف استاذ، فمناقشتها ـ في الحقيقة ـ مناقشة للأستاذ. غير أنهم يوجبون وضع اثنتي عشرةَ نسخة (أو كانوا يوجبون ذلك) في مكتبة الجامعة مدة ستة أشهر (في أثنائها لا يجوز لصاحب الرسالة أن يضيف اللقب العلمي إلى آسمه). فكان إذا أتى على هذه الرسالة انتقادات وجيهة حُجبت الرتبة عن الطالب.

ولكنهم يطلبون (أو كانوا يطلبون) امتحاناً شفوياً غايته معرفة مدى النضج الذي بلغ إليه الطالب في أثناء دراسته الجامعية.

في امتحان الفلسفة الالمانية سألني الأستاذ عن لب فلسفة هيغل. أردت أن آتي بجملة تكون شبه المقدمة لكلامي فقلت: «أراد هيغل أن يوجد لنفسه عالماً من خياله يعيش فيه».

هذه الجملة لم تعجب الأستاذ ولم يكن من الأدب أن أصر عليها، وأنا بين يدي أستاذ فاحص. انتقلت إلى أشياءَ من التفاصيل: في الحق، في السياسة، في الفن، في الأخلاق، في التاريخ.

سأضرب المثل في التاريخ.

يرى هيغل أن البشرية مرت في أربعة أدوار: الدور الشرقي (وفيه مستبد حر واحد يحكمه) ـ وزال هذا الدور فخلفه الدور الثاني اليوناني (وكان فيه عدد من المستبدين) ـ ثم زال الدور اليوناني فحل محله الدور الروماني (وكان الناس فيه يعيشون في ظل نظام سائد). ثم زال الدور الروماني وجاء بعده الدور الجرماني (فكان فيه الرجل الذي يملك الحرية ويخط وحده تاريخ العالم، ذلك لأن الرجل العظيم يمثل روح الأمة، وبذلك يمثل ـ هو وأنداده ـ الرأي العام). هذا الدور الرابع الجرماني عند هيغل أرقى الأدوار وخاتمتها. وكلما انتهى هذا الدور زمنياً عاد في نفسه من جديد.

في هذا الرأي خطأ واضح: إن الخط (في الرياضيات) إذا كان منتهياً من طرفٍ فلا بد من أن يكون مُنتهِياً من الطرف الآخر. وما دام الإنسان يولد، فلا بد من أن يموت. أما الذي لا يولد، فيمكن ألا يموت. من هذا قلت في ذلك الامتحان إن هيغل أراد أن يوجد عالماً من خياله يعيش فيه. كذلك كان أفلاطون قد فعل من قبل (ولامه على ذلك تلميذه أرسطو). وكذلك يفعل اليوم الرسامون التشكيليون، والشعراء التشكيليون والفلاسفة التشكيليون (إذا شئت) وجميع الأشخاص التشكيليين.

من ذلك مثلاً، ذلك الرجل الذي يقول لك: لا أجد لذة في الحياة إلا إذا دخنت سيكارة من النوع الفلاني. ومثله تلك المرأة النصف (بفتح ففتح: التي جازت الخمسين) والتي تصبغ شفتيها وخديها وجفنيها وحاجبيها وشعرها أيضاً ثم تعتقد أنها قد عادت بذلك إلى العشرين من العمر (إنها ـ بلا ريب ـ امرأة تعيش في عالم خيالها السقيم). ومثلهما ذلك الرجل الذي كان يحرص على أن يكون في الجيب الأعلى من سترته منديل من حرير، وفي ذلك الجيب، على ذلك المنديل،

قلم حبر ذو غطاء ذهبي، بينما هو لا يحسن الكتابة ولا القراءة. ومثله ذلك الرجل الذي كان يكثر من السير في ساحة البرج (في بيروت) وتحت إبطه رزمة من الصحف وقد جعل الصحيفة الظاهرة صحيفة باللغة الأجنبية (وهو لا يعرف اللغة الأجنبية ولا يحسن اللغة التي يتكلمها في بيته).

الواقعُ أنّ كل واحد منا يعيش في عالم من صنع خياله، مع فرق واحد: هنالك أفراد لهم خيال سليم، وأفراد لهم خيال سقيم. الأولون استطاعوا أن يجعلوا من خيالهم السليم حركة اجتماعية أو اقتصادية أو علمية نفعت البشر. والآخرون لا تعجبهم العين في مكانها فيجعلونها بخيالهم في أسفل الحنك (ولو كانت هي في أسفل الحنك لرسموها في أعلى الوجه). ومن هؤلاء الآخرين من لا يعجبه أن يقال: اقليدس واضع علم المساحة (بكسر الميم: الهندسة المستوية) فيقول هو: اقليدس مخربش أشكال. وإذا أنت أخبرته أن الشمس قد طلعت (لأنه لا يرى الشمس ولا القمر)، صرخ قائلاً: حبل الليل بالنور ونام العصفور في القلق.

وسألت أحد هؤلاء مرة: أتفهم ما تقول؟ ـ فقال: ليس من الضروري أن أفهم الكلام، ولكني أرغب في أن يكون للكلام تأثير...

٨١/٧/٤ ١٩٨١/٧/١١

لماذا لم أتزوج ألمانية؟

يحسن أن أبدأ بالملاحظة التالية: أعرف أنا في زمني، أفراداً، تزوجوا أجنبياتٍ ثم بَنَوا بيوتاً سليمة وآستطاعوا أن يعيشوا سعداء.

حينما ينتقل الشاب الشرقي من بيئته المغلقة، أو شبه المغلقة، إلى بيئة مُشرعةِ الأبواب والنوافذ، فإنه يتعثر في مشيه كثيراً، وربما زلت قدمه في الحياة الاجتماعية، كالذي قيل عن شكسبير (من أنه رزق ولداً بعد زَواجه بستة أشهر).

منذ غادرت بيروت إلى أوروبة كنت عازماً في نفسي على ألا أتزوج أجنبية. واصطدمت، كما اصطدم غيري بأحوال مختلفة، لا عِداد لها، سأكتفي بالكلام على حالين منها.

الحال الأولى تتعلق بالفتاة التي رافقتني في ألمانية خمسة وعشرين شهراً. والرفقة الطويلة تولد شيئاً من المودة ومن الألفة. قالت لي مرة واحدة، في أواخر أيامي في ألمانية: لماذا لا نتزوج؟ فقلت لها: هذا غير ممكن: أنا مسلم وأنت بروتستانتيه. فقالت لي: أعتنق الإسلام. فقلت لها: إن الحياة في الشرق حياة قاسية على فتاة نشأت في أوروبة.

وما كدت أتم جملتي حتى قالت: ساتحجّب وسألزم البيت فلا أخرج منه إلا برفقتك أو بأذن منك. فقلت لها: أنت تقولين هذا الآن لأنك تَوَدّينني ولأني الآن بقربك. فمن الخير لي ولك أن تفكري في هذا الأمر حينما أرجع أنا إلى بيروت ثم تقلبين أنت الأمر على وجوهه وأنت هنا وحدَكِ.

والحال الثانية حال بنت أستاذي، كان الأمر مغرياً جداً: لقد كانت فائقة

الجمال، ثم كانت وحيدة أبويها ترث بيتين ومعملاً للبلاط وثروتين. ثم لم يكن بإمكانها أن تتزوج ألمانياً لأن قانون هتلر كان يمنعها ذلك، فإن أمها كانت مدمنة وكانت (في ذلك الحين) في المصح.

والمخرج الوحيد لها ولأبيها كان في أن تتزوج هي أجنبياً وتغادر المانية. ثم إنها كانت قريبة، فإنها كانت مستشرقة مثل أبيها، وكان اسمها «عائشة» (اعجاباً من أبيها بعائشة بنت أبي بكر وزوج محمد رسول الله).

ومع أننا كنا نلتقي كثيراً حينما أخرج مع أبيها للنزهة. وحينما أذهب مع أبيها لقضاء العطل في أماكنَ مختلفة، فإنني لا أذكر أنني تحدثت معها مرة، ولا أذكر أنني خاطبتها بأمر. هذا مع العلم بأننا كنا نسكن في بيتين متجاورين، بينهما ممر داخلي بين حديقتي البيتين.

ويسألني القارىء الكريم لماذا لم أكن أكلُّمها. أما جوابي فقِصّة كان عمر الداعوق (ت ١٩٤٩) يكثر روايتها:

مر رجل صالح بمدرسة البلدة فرأى معلمها يضرب طفلاً صغيراً ضرباً موجعاً. أشفق الرجل الصالح على الطفل الصغير وتقدم من المعلم يسأله عن الأمر. فقال المعلم: هذا «ولد» كسلان شرير عنيد. أنا منذ شهر أعلمه أن يقرأ: أ ـ ب ـ ت، وهو لم يتعلَّمْها بعد.

فقال الرجل الصالح لذلك الطفل: يا بني، يبدو أنك ذكي، وهذا العلم سهل. اسْمَعْ ما أسْهَلَ هذا : أ ـ ب ـ ت ـ . . . . رَفَعَ الطِّفلُ الصَّغيرُ وَجْهَه إلى الرَّجُلِ الصّالحِ وقال له: أنا أعلَمُ أنّ هذا أمرٌ سهلٌ: أ ـ ب ـ ت . . . . . ولكنْ هناك أيضاً: ث ـ ج ـ ح ـ خ ـ . . . . ثمّ ك ـ ل ـ م ـ ن ـ

. . . . . . ثمّ صـرف ونحو، ثم بـلاغة وأدب، ثم ريـاضيـات، وطبيعيـات، ثم تاريخ وجغرافيا. . . لا أريد أن أتعلم. . لا أريد أن أتعلم.

وأظن أن أمير الشعراء أحمد شوقي قد عبر عن مثل هذه الحال تعبيراً واضحاً حينما قال:

نظرة فابتسامة فسلام   فكلام فموعد فلقاء

فإذا كنت لا تريد أن تصل إلى اللقاء، فيجب ألا تبدأ بالنظرة.

(٨١/٨/٨)   ١٩٨١/٨/٢٢

لَمَحات

وعــلى دِجـلةَ طَـيْـفٌ   مـن أفـانـيـنِ الـخُـلودِ.

وبـسـاطُ الأرضِ مَـيْـ   ـيَاسٌ بـأنـواعِ الـوُرودِ.

والنَّخيـلُ البـاسِقُ الغَضْـ   ـضُ عَـروسٌ فـي بُـرودِ.

وعــلى الأُفْـقِ بَـقـايـا   من دَمِ السِّبْطِ الشّـهيـد.

والفَتي المَـظْلومُ مُـغْـرًى   بـالـتـأسَّي بـالـجُدودِ.

١٩٤١/٤/٢١

لماذا بكى أستاذي؟ . .

كثيراً ما يسألني نفر من الذين يقرأون هذه القطع من «غبار السنين» فيقولون: لماذا لا تكتب عن حياتك الداخلية (يقصدون: حياتي المستورة)؟. والواقع أنه ليس لي حياة داخلية مستورة. من أجل ذلك سأكتب هذه القطعة التي يقال في مثلها ما يظن السائلون.

وكذلك يعلم القراء الكرام أنني لما ذهبت إلى أوروبة كنت رجلاً ناضجاً في الثامنة والعشرين من العمر لا طفلاً أو شاباً مراهقاً في السابعةَ عشرةَ من عمره. من أجل ذلك، كانت أوروبة إذا اتخذت زينتها أمام عيني لم تكن تصطادني بأشراكهـا.

كنت في أكثر الأحيان أرافق أستاذي المشرف في رِحلاته (وهذا من معاني الإشراف في الجامعات) فأتفق مرة أن كنا في بفاريا العليا (المنطقة الجبلية من جنوب شرقي المانية) فدخلنا مطعماً لتناول الغداء، وكان هذا المطعم مطعماً سياحياً فيه عدد من المصاطب يعلو بعضها على بعض. وكذلك اتفق أن كان جلوسنا (أنا وأستاذي وابنة أستاذي وقريبة لأستاذي) على مصطبة مرتفعة تواجه المدخل.

كنا نتحدث بعد الغداء فاتفق أن دخلت، في ذلك الحين، فتاة كانت جميلة وجميلة جداً (كما يقول طه حسين)، لا أدري ما الذي نبّه الناس إلى دخول هذه الفتاة (إلا إذا كان للجمال رائحة)، فالتَوَتِ الأعناق نحو مدخل المطعم ثم تعلقت الأبصار بتلك الفتاة حتى اتخذت تلك الفتاة مكاناً يغيب عن أعيننا .

بعد قليل جاءت المضيفة التي تتولى الخدمة على مائدتنا (وفي المطاعم في جَنوب المانية مضيفات يقمن بالخدمة. أما في شمالي المانية فيقوم بالخدمة في المطاعم رجال). قالت لنا هذه المضيفة: إن الفتاة التي دخلت منذ قليل إنكليزية

ومعها سيارة بمقعدين. وقد قالت لي: سلي هذا الشاب الأسمر إذا كان يريد أن يقضي هذا اليوم بعد الظهر معي؟ فقلت لها بمثل الهدوء الذي أكتب به الآن هذه الأسطر على الآلة الكاتبة: أشكرك، لا أستطيع.

ما كادت المضيفة تبتعد قليلاً عن مائدتنا حتى ٱلْتفَتَ إلي أستاذي وعلى وجهه الجرماني الممتلىء مزيج من علامات الاستغراب والشك والتحدي والغضب، وقال لي: أتمنّى أن أراك سكران.

فقلت له: أستاذي! قل لي: أتمنى أن أراك وزيراً للمعارف (وكنت في ذلك الحين أعتقد أن الوزارة منصب يستحق أن يتمناه الإنسان). قل لي: أريد أن أراك عالماً كبيراً. قل لي: أوَدُّ أن أراك ذا مكانة في قومك.

فقال لي: لا، لا، لا. بل أريد أن أراك سكران حتى يسقط هذا القناع الذي ما زال على وجهك منذ عامين.

لقد كان التحدي واضحاً وعنيفاً. وكان لا بد من الدفاع عن نفسي: إنني لم أكن منافقاً في سلوكي ولا كان في كلماتي للمضيفة خداع. دار في رأسي ساعتئذ قول عمر بن الفارض:

وقالوا: شَرِبتَ الإِثْم. كَلّا، وإنّما   شَرِبتُ التي في تَرْكِها عِنْدِيَ الإِثْمُ.

وفوق كل شيء قول أصدق القائلين: . . . «فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ».

وصفقت بيديّ فرجَعت المضيفة فقلت لها أريد رُبعاً (كأساً فيه ربع ليتر من البيرة)، ولم أكن قد شربت بيرة من قبل ولا شربتها من بعد. وجرعت الربع ثم صفقت ثانية فطلبت قدحاً صغيراً من الخمر (والالمان يعتقدون أن من يشرب

الخمر على بيرة يسكر سكراً قبيحاً). ويحسن أن أقول لك إن نفراً من رفاقي هنا وهناك وهنالك حاولوا جاهدين أن يعلموني التدخين والشرب واللعب وأشياء أخرى فلم أتعلم مما أرادوا شيئاً.

ثم لا أعلم لماذا لم تحدث فيّ كأسُ الخمر فوق ربع البيرة أثراً ما. ولو أنني شربت مثل ذلك المقدار ماء لضايقني ذلك المقدار من الماء.

وبعد نحو عشرة أيام كنت أغادر المانية، فذهب معي أستاذي إلى محطة السكة الحديدية (في ذلك الحين لم تكن الطائرات قد بدأت بعد تنقل المدنيين). وتحدثنا ثم اقترب موعد تحرك القطار. صَعِدتُ إلى عربة القطار واستمررنا في الحديث. ولما صفر القطار وارتجّ يريد أن يسير دمعت عينا أستاذي. فقلت له: لماذا تبكي؟ أنا ذاهب إلى الشرق أحمل علمك واسمك، فقال لي: إن ما خبرته منك في عامين كنت أقرأ مثله في الكتب فقط.

لم تنته قصتي. كان لي رفاق هنا وهناك وهنالك خبروا مني ما خبره مني أستاذي، وكانوا يقولون عني إنني غبي (كيلا أستعمل الألفاظ والتعابير التي كانوا يذكرونها). والآن وأنا أنظر عبر الزمن ـ في مدى خمسة وأربعين عاماً أو خمسين عاماً أو تزيد ـ أرى أنني لم أكن غبياً، وأنهم هم ـ ممن أستطيع الآن أن أراهم وممن لا أستطيع الآن أن أراهم ـ كانوا أغبياء.

١٩٨١/٢/٣ ١٩٨١/٤/٤

ملك وامبراطور

(١)

سألني نفر من أصدقائي فقالوا: لماذا لا تكتب في السياسة؟ فقلت لهم: أثنان لا يتكلمان في السياسة: الذي لا يعرف شيئاً من السياسة والذي يعرف كل شيء من السياسة. والواقع أن السياسي الحقَّ يعمل ولا يتكلم. فإذا هو أراد أن يتكلم، عمد إلى تدوين عدد من الحقائق في أوراق ثم ترك تلك الأوراق لتنشر بعد وفاته.

لا يفتح أحدنا اليوم جريدة، ولا يحاول أن يستمع إلى إذاعة مسموعة أو مرئية إلا سمع كلمة عين الرمانة تتردد على صفحات الجرائد وعلى ألسنة المتكلمين. وما عين الرمانة؟ إنها ليست بدعة في تاريخنا ولا شِرعةً في سياستنا. إن قضيتنا اليوم ليست قضية عين الرمانة وحدها. إنها قضية عين الرمانة وعين التفاحة، وعين التينة وعين التوتة، وقضية كل عين في لبنان: من مرج عيون إلى عيون السيمان.

ما لنا ولهذا. لننتقل إلى قصة ملك النمسا. الواقع أن القصة ليست قصة ملك النمسا، إنها قصة كُلِّ مَلِكٍ في بِلادِه، ولكنّني أخْشى - إذا أنا كتبتُ عن أحَدِ المُعاصرين لنا - أنْ يقال لي أنت تتعرض لرئيس دولة صديقة. أما النمسا فقد ألغت الملكية.

في يوم من أيام الربيع الدافئة خرج ملك النمسا يتنزه في مرج واسع. ووصل الملك إلى شجرة وارفة (واسعة) الظل فجلس تحتها يقرأ في كتاب كان يحمله. وعمل دفء الربيع في أعصاب الملك وجفونهِ فأغفى مدة ليست قصيرة. ثم إنه أفاق وتابع سيره في ذلك المرج الواسع. ولما ابتعد عن تلك الشجرة مسافة طويلة تذكر أنه كان يحمل كتاباً وأنه نسي ذلك الكتاب.

ووجد الملك على مقربة منه في المرج طفلاً في نحو الثانيةَ عشْرةَ من العمر يرعى سرباً من البط. فقال الملك لهذا الطفل: هل تستطيع أن تذهب إلى تلك الشجرة (وأشار إليها بيده) وتأتي إلي بكتاب نسيته هنالك؟ فقال الطفل: ومن يحرس هذا السرب من البط؟ قال له الملك: أنا أحرسه لك. وناول الطفل عصا طويلةً كانت في يده للملك ثم ركض بخفة الغزال إلى الشجرة المذكورة وعاد بالكتاب. غير أنه وجد أن سرب البط قد تفرق في كل جهة..

استعاد الطفل العصا الطويلة من يد الملك ثم قال للملك: قف أنت هنا. بعدئذ انطلق الطفل في المرج يسوق طيور البط واحدة واحدة أو آثنتينِ اثنتين أو ثلاثاً ثلاثاً إلى حيث يقف جلالة الملك. ولما اجتمع سرب البط كما كان قبل أن يتولى الملك رعايته، قال الملك وهو يخرج من جيبه قطعة ذهبية ويناولها للطفل: أنا ملك النمسا.

تطلع الطفل طويلاً إلى الصورة على القطعة الذهبية وتفرس جيداً في صورة الرجل الواقف أمامه، فإذا الصورتان واحدة. عندئذ قال هذا الطفل لذلك الرجل الواقف أمامه: أنت تصلح أن تكون ملكاً، ولكن لا تصلح أن تكون راعي بط.

(٢)

إن الكتابة عن امبراطور الصين لا تثير اعتراضاً، لأن الامبراطورية في الصين قد ألغيت أيضاً. زار امبراطور الصين، في أواخر القرن التاسعَ عشَرَ، مدينة باريس فأعجبته القناديل التي تضيء شوارع العاصمة الفرنسية. ثم خطر في باله أن يزين عاصمته بكين بمثل تلك المصابيح.

كان امبراطور الصين يعتقد أنه إذا أضيئت الشوارع في مدينة بكين بمثل

القناديل التي تضاء بها عاصمة فرنسة أصبحت عاصمة الصين مثل عاصمة فرنسة. وإذا صلحت حال عاصمته وحدها صلحت إمبراطوريته كلُّهـا.

فلما عاد امبراطور الصين إلى قصره نادى رئيس وزرائه وقال له: لقد أعجبني منظر باريس في الليل، وأريد أن تضاء بكين كما تضاء باريس. وهاك مليون ين (عملة صينية) وتدبر أمر إضاءة بكين.

رجع رئيس الوزراء إلى مكتبه ثم آستدعى وزير الداخلية وقال له: إن جلالة الامبراطور يريد أن تضاء بكين في الليل، وهاك نصف مليون ين لهذا الغرض.

وبعد بضعة أيام أرسل وزير الداخلية إلى مدير الشرطة يستدعيه، ثم قال له: إن جلالة الامبراطور حباً منه بخير رعيته يرغَب أن تضاء بكين في الليل. فخذ هذا المبلغ، ربع مليون ين، وابذل جهدك في أن تكون إضاءة عاصمتنا وافية.

وعاد مدير الشرطة إلى مكتبه ثم إلى بيته. وفي اليوم التالي اتصل مدير الشرطة بمفتش الشرطة واستقدمه إليه ثم ناوله مائة ألف ين وقال له: إن جلالة الامبراطور، حفظه الله لرعيته، قد أمر أن تضاء بكين في الليل. فاحرِص (بكسر الراء) على أن تنفِّذ ذلك بالسرعة القصوى وبالتمام والكمال.

وفي صبيحة اليوم التالي جمع مفتش الشرطة ألف شرطي من ذوي البسطة في الجسم (بالإضافة إلى أجسام العرق الصيني) وألقى فيهم خطبة بليغة تدور على اهتمام امبراطورنا المحبوب برعيته وعلى القيام بالواجب الوطني عـلى وجهه وبالصدق والإخلاص في خدمة الشعب. ثم قال لهم: إن الامبراطور قد أراد أن تضاء بكين في الليل حتى تصبح أجملَ من باريس. ثم نقد كل شرطي يناً واحداً وصرفهم.

فتفرق رجال الشرطة الألف في شوارع بكين، وجعل كل واحد منهم يطرق كل باب يمر به ويبلغ أصحابه رغبة صاحب الجلالة الامبراطور ثم يأمرهم أن يعلقوا على باب بيتهم فانوساً.

٨١/١١/١٨ — ١٩٨٠/١١/٢٩

لَمَحات

ثـلاثةُ أمـلاكٍ إذا الأرضُ زُعْزِعَتْ — تَضِجُّ بهم خَيْلُ الرّسولُ وتصهَلُ.
بَنَـوْا مجـدَنـا لمّـا تنـادى لهـدمـهِ — صعـاليكُ لَبّتْهُمْ صعـاليكُ خُبَّـلُ.
وَرَدّوا عنِ الشرقِ الفناءَ، وقد غدا — على جُـرُفٍ هـارٍ يَضِـجُّ ويُعْـوِلُ.
لأَنْتُمْ لنـا الشَّرقُ الـذي طلَعَتْ بهِ — كواكبُ مجدٍ لا تُرى ـالدهرَـ تأفُلُ
عَلِيٌّ أبـوكم والحُسين وسِبْـطُه — وفـاطمـةُ، ثمّ الكِتـابُ المُنَـزَّلُ.
زَهَتْ بِكُمُ الدُّنْيا جميعـاً وصَفّقتْ — رُبى الخُلدِ وآهتزّ التُّراثُ المُؤَثَّلُ.
بِفَيْصَلِكُهم قـامَ الحُسينُ وفَيْصَـلٌ — وغازٍ أبو الأمْلاكِ والشِّبْلُ فيصـلُ.

١٩٤٠/٣/٢٥

ثمن الاعتقال

لما عزمت، عام ١٩٣٥، على الذهاب إلى المانية لمتابعة الدراسة العالية، عَرَضَتْ عليَّ جِهةٌ ثقافيّةٌ المانيةٌ مِنحةً كاملةً للدِّراسةِ في ألمانيا، فَشَكَرْتُ العارضين. ثمّ لَمّا ذهبتُ بعدَ ذلك إلى القُنصليّة الألمانية لأخذِ التأشيرة قِيلَ لي إنّ القنصل يريد أن يراك. ثم خرج إليّ القنصل وعرض عليّ منحة فشكرته واعتذرت. فقال لي: أعندك مانع في أخذ هذه البطاقة، فإذا احتجت في المانية إلى شيء ذهبت إلى العنوان الذي تجده عليها؟ فقلت له: لا مانع عندي. ووضعت البطاقة في جيبي ثم لم أعلم ما حدث لها. ووصلت إلى المانية فجاءتني رسالة فيها عرض لمنحة. فرددت على تلك الرسالة شاكراً معتذراً. وفي العام الثاني والأخير لوجودي في المانية وصلت إليّ رسالة من وزارة المعارف تقول: لقد قررنا أن نعطيَ منحاً لجميع الطلاب... فرددتُ أيضاً بالشكر والاعتذار.

ورجعت إلى بيروت في أواخر عام ١٩٣٧. وفي صيف ١٩٣٩ نشبت الحرب العالمية الثانية. وانطلق رجال الأمن اللبناني والفرنسي وراء الذين درسوا في المانية. وكنا في ذلك الحين مصطافين في فيطرون (كسروان) فجاء إلى بيتنا نفر من الباحثين العسكريين. وبعد ساعات من البحث في كُتُبي وأوراقي وبعدَ الحديث معي وضع أولئك الباحثون العسكريون تقريراً وأطلعوني عليه وفيه: الدكتور عمر فروخ يهتم بالعلم والفلسفة ولا صلة له بالسياسة. ثم انصرفوا.

في اليوم التالي نزلت إلى بيروت ورجوت صديقي المحامي الأستاذ مختار مخيش (رحمه الله) أن يذهب معي إلى المحقق العسكري الفرنسي، فمن العقل أن أعرف كثيراً من التفاصيل. كانت الجلسة مع المحقق الفرنسي ودية جداً، حتى قال إنه لي: أنا آسف لأنني لم أعْرِفْكَ قبل الآن.

واتفق أن اجتمعت بالمحقق العسكري الفرنسي مرتين أو ثلاثاً بعد ذلك. فقلت له مرة: لماذا تعاملونني هذه المعاملة اللطيفة (وكان جميع الذين أعرفهم ممن أخذ منحاً أوِ اتُّهِمَ بمثل ذلك في المعتقل طَوالَ سِني الحرب الستّ). فقال لي:

لقد عرفنا من بنك زلخا في بيروت أن مبالغ كانت ترسل إليك من أهلك شهراً بعد شهر. أما أولئك فقد رأينا في القنصلية الألمانية أسماءهم أمام المنح التي كانوا يتناولونها من المانية.

ملاحظة: المنحة كانت تسعين ماركاً في الشهر (أربع عشرة ليرة ونصف ليرة بحساب عام ١٩٣٥). لقد بقيت في المانية عامين. وأظن أنك تعتقد معي أن نحو الفين ومائتي مارك (أو ألف وخمسماية ليرة سورية لبنانية) لا تستحق أن يبقى الإنسان في المعتقل ست سنوات.

١٩٨٠/٩/٦

لَمَحات

قد عِشتُ دهراً وهذا الشّرقُ مُنْدَفعٌ إلى القضاء وأحياناً الى القَدَرِ.
فَحَسْبُه هجعةً والغربُ مُنْتَبِهٌ والخُسْرُ والنَّصْرُ في لَمْحٍ مِنَ البَصَرِ.
لو يعلَمُ الشّرقُ كم بالغَيْبِ مِنْ عُدَدٍ أعدَّها الغَرْبُ مِنْ نابٍ ومن ظُفُرِ،
إذاً أهابَ به أبناؤه جَزَعاً وفارقوا النَّوْمَ بعدَ الرِّقّ لِلسَّهَرِ.
ما ينفَعُ الصّبرُ والأيّامُ مُعْتَرَكٌ مِنَ الجِهادِ وأقواسٌ من الظَّفَرِ؟

١٩٢٨

الوضوح والجزم والنجاح (٢)

في الأسبوع الماضي ذكرت حوادث من هذا الباب لم أُسمّ فيها أسماء أصحابها. في هذه المرة سأذكر عدداً من الأسماء: من أسماء المكان وأسماء الأشخاص.

في ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٤٠ ذهب نفر من الأساتذة يطلبون من المؤسسة زيادة في الرواتب. اعتذر المسؤول أمام هؤلاء النفر من الأساتذة بعجز ميزانية المدرسة عن ذلك. فقال له أحد المعلمين: فلماذا يكون مرتب فلان (وسمّاني صراحة) كذا. فقال ذلك المسؤول عندئذ (وكان معروفاً بعنفه في الكلام)... فلان. إن راتبه يكفي لأن آتي بثلاثة معلمين.

وصل الكلام إليّ. لم يكن بُدٌّ من العمل الواضح. ولكن العاقل لا يعمل بِدافعٍ من الانفعال. لا بد من التأني. بعد يومين تلقيت برقية فيها: احضر لتدريس التاريخ في دار المعلمين العالية في بغداد. إن هذه البرقية ساعدت على حل جزء من المشكلة. لا بد من التريّث. ثم بعد يومين آخرين جاءت برقية ثانية تؤكد البرقية الأولى.

كان بيني وبين المؤسسة اتفاقية فيها بند جزائي ينص على أنني إذا خالفتها تترتب علي غرامة مقدارها ألف ليرة لبنانية (مع أن نفراً آخرين من الأساتذة كانت رواتبهم أكبر من راتبي، كان البند الجزائي في اتفاقيتهم - أو اتفاقيات نفر منهم - أقل من ذلك).

كان أول ما فعلت أن بعثت رسالة إلى المؤسسة أعلمها أنني فسخت الاتفاقية وبإمكانها أن تأخذ الغرامة المنصوص عليها في الاتّفاقيّة من آبنِ عمّي فلان.

وذهبتُ إلى بَغْدادَ وآتّصلتُ بدار المعلّمين العالية، فقال لي مديرُها الأُستاذُ درويشُ المقدادي: أمرُكَ مُتعلّقٌ بالدكتور سامي شوكت وزير المعارف.

وقال لي الوزير: يمكنك أن تأخذ الساعات التي تريدها في الأيام التي تريدها وتدرس التاريخ كما تريد. ولكني لا أريد أن تثور مشكلة حول الجدال في علي ومعاوية أو في الحسين ويزيد. وقال لي المدير الأستاذ درويش المقدادي: كلما كان عندك درس (في السنة الثانية) مُرَّ بي بعد الدرس على سبيل الاطمئنان.

ومَرَّ التدريس (في السنة الثانية) في خلافة أبي بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان وخلافة علي ثم في خلافة معاوية ولم تَعْتَرِضْني مُشكِلةٌ.

فلما وصلت إلى مأساة كربلاء قلت للتلاميذ: ما زلت أنا أتكلم منذ ثلاثة أشهر. ولكنّني اليَوْمَ سأقرأ فصلاً من مقدمة ابن خلدون . يرى ابنُ خَلدونٍ أنَّ الحسين بن علي كان أشرف نسباً من يزيدَ وأنه كان أتقى من يزيد وأحق بالاخفة من يزيد وكان أيضاً على حق في الخروج على يزيد وقتال يزيد. ولكن عصبية العرب (قوّتهم الحربية) لم تكن يومذاك في فرع أبي طالب، بل كانت في بني أمية. ومنطق التاريخ يقضي ألا تنتصر عصبية ضعيفة في القتال على عصبية قوية.

لما انتهيت من قراءة ذلك الفصل من مقدمة ابن خلدون ، رفع تلميذ يده وقال: هذه المقدمة مُزَيَّفةٌ. عندئذ قلت للطلبة: يجب أن يذهب كل واحد منكم إلى سوق السراي (حيث توجد المكتبات) ويشتري نسخة من مقدمة ابن خلدون مختلفة من نسخ سائر الطلبة. كنت أعلم أنه لا يوجد نسخ مختلفة بهذا العدد (ولكن لا بد من مُسوِّغٍ لصرف الطلاب من الصف ـ ذلك لأن الجدال في نسخة مزيفة ونسخة صحيحة يمكن أن يقود إلى إثارة مشكلة كالتي لا يريدها وزير المعارف).

في أول الدرس الثاني رفع تلميذ يده وقال: «ابن خلدون زين». ولعلك لا تدرك الآن قيمة هذه الجملة «ابن خلدون زين». إن الدكتور سامي شوكت الذي

استدعاني ببرقيتين لتدريس التاريخ في دار المعلمين العالية لم يكن يحب ابن خلدون.

وكذلك كنت أدرِّس تاريخ الدولة العباسية في السنة الثالثة من دار المعلمين العالية. وليس في التاريخ العباسي مشاكلُ حادةٌ. ومعَ ذلك فقد ثارت مشكلة إدارية.

جئت يوماً إلى الصف (الساعة العاشرة) فلم أجد الطلبة. وضعت حقيبتي على الطاولة ثم جلست. بعد عشر دقائق دخل الطلبة جملة إلى الصف. حملت حقيبتي وخرجت ثم دخلت على المدير درويش المقدادي وأخبرته الخبر. استدعى المدير طالباً وسأله عن ذلك. فقال الطالب: جاء طه باشا (الهاشمي: رئيس الوزارة ـ وكان يدرس الجغرافية العسكرية) في ذلك اليوم متأخراً، فأخذ الدقائق العشر التي تكون عادة بين كل درس والذي يليه. ثم سمح للطلبة أن يأخذوا عشر دقائق (فرصة) من الدرس التالي (من درسي).

قلت للمدير: إن رئيس الوزارة يستطيع أن يلغي عقدي إذا شاء... ولكنه لا يستطيع أن يأخذ عشر دقائق من درسي. لم يكن في الأمر مشكلة كبيرة. كان رأي طه باشا أنه ربما تأخر مرة بعد مرة في الوزارة فآحتاج إلى عشر دقائق. لم يكن عندي مانع في ذلك. فاقترحت أن يُعطى رئيس الوزارة هذه الدقائق العشر في كل مرة. أما درسي فيبدأ حينئذ، في كل مرة، في الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة.

هنالك أوجه كثيرة من التعليق على كل ما تقدم. التعليق الأهم أن كل شيء ممكن إذا جرى على قاعدة. أما السلوك العرفي أو السلوك الكيفي الذي يستطيع به رجل أن يبدل القوانين كما يشاء حينما يشاء، فلا يجوز.

٨١/٨/٨ ١٩٨١/٩/١٢ (ص ٢)

شاعران حكيمان

حينما نذكر الشاعرين الحكيمين في الجاهلية فنحن نعني طرفة بن العبد وزهير بن أبي سُلمى (بضمّ السين).

أمّا طرفة بن العبد الشاب القتيل فقد ولد بعد مولد زهير بعشر سنوات ثم مات قبل زهير بستين سنة. كان طرفة يشبه في حياته حياة أرسطبّوس اليوناني لأنه كان لا يؤمن إلا باللذة المادية العاجلة.

حصر طرفة لذاتِهِ في ثلاثة وجوه: الإسراف في الكرم وشرب الخمر واللهو بالمرأة. وكل هذه اللذات (السخيفة: الفارغة) تحتاج إلى مال كثير. ومدح طرفة الملوك فلم ينل منهم عطايا كبيرة. فهجاهم ثم اشتغل بالتجارة (والتجارة والشعر لا يجتمعان). وهاجر إلى اليمن في تجارة، وفي أثناء رجوعه طلعت عليه عصابة فقتلته.

وفي حياة طرفة مرارة جعلته يقول:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة   على المرء من وقع الحُسام المُهَنَّد.

نحن نشفق على طرفة، ولكن أحوال أسرته هي التي فرضت عليه هذا الظلم بالقاعدة الاجتماعية الواضحة. تزوج والد طرفة مرتين. ففي زواجه الثاني تزوج (وهو وثني من بني بكر) امرأة نصرانية من بني تغلب (برغم العداوة بين قبيلتي بكر وتغلب). ووالد طرفة لما أعجبته وردة التغلبية لم يفكر إلا في عاطفته الحاضرة ولم يفكر بابنه الذي سيأتيه من الزواج الجديد. ولقد كان العداء بين أولاد الضَّرتَيْن أمراً مألوفاً. والقضية قضية عصبية، فلم يكن منتظراً من أسرة العبد البكري أن تداري شخصاً واحداً أمه من غير قومهم وعلى غير دينهم. من

أجل ذلك نقم طرفة (بسبب هذا الظلم من حالته الاجتماعية) على كل شيء (كما نرى في كل زمن).

وقُتِلَ طرفة في نحو الثلاثين من العمر ولم يجمع مالاً يتمتع به بلذائذ الحياة.

أما زهير بن أبي سُلمى فكان رجلاً عاقلاً أصلح في شيخوخته بعض ما كان قد أفسد في شبابه. ووضع زهير اختباره الذي جناه من طول الحياة في أبيات كثيرة منها:

وما الحرب إلا ما علمتم وذُقتمو ،	وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم.
رأيت المنايا خبط عشواءَ ، من تصب	تُمِتْهُ. ومن تخطىءْ يعمَّرْ فيهرمِ.
ومن لا يصانعْ في أمور كثيرة	يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم.
ومن يجعل المعروف في غير أهله	يكن حمده ذمّاً عليه ويندم.
ومهما تكن عند أمريّ من خليقة	وأن خالها تخفى على الناس تعلم.

ومدح زهير بن أبي سلمى كثيراً ونال على مدحه أموالاً جزيلة. وأُعجِبَ به أحد الممدوحين ـ وهو هرم بن سنان ـ فأقسم أنه كلما مدحه زهير أعطاه، وكلما سلم عليه أعطاه. وأدرك زهير أن لا حاجة به إلى المال. ولكنه وقف أمام مشكلتين مع هرم بن سنان: مدح هرم والسلام على هرم. أما المشكلة الأولى فكان حلها يسيراً لقد ترك زهير مدح هرم. ولكن كيف يحلّ مشكلة السلام.

وجد زهير حلاً. كان إذا مرّ بقوم فيهم هرم بن سنان قال: «السلام عليكم إلا هرماً، وخيركُمُ آستثنيت».

١٩٨٠/٩/٦

جارتنا المفوّضيّة الفرنسية العليا

جِئت إلى مدارس المقاصد ، عامَ ١٩٢٩ (تسعة وعشرين) . وفي «مدرسة الحرج» (مدرسة البنين الأولى)، كان بينَنا وبينَ المفوّضيّة الفرنسية عرض الطريق (ولا يزال عرض الطريق هذا يفْصِل جغرافياً بين المدرسة والمفوضّيّة ـ السفارة الفرنسية اليومَ).

لم يكن بين الجارتين (المدرسة والمفوّضية) صِلةٌ، فنحن مركزٌ للتعليم و«هم» مركزٌ للسياسة .

وفي عام ١٩٤٠ ، سقطتْ فرنسةُ أمامَ الهجوم الألماني . ورأى الإفرنسيون أن يَقسموا أنفسَهم قِسمين : قسماً مَعَ الماريشال بيتان يتظاهرُ بالتعاون مَعَ ألمانية ثمّ قسماً آخَرَ معَ ديغول يُمثّل رَغبةَ فرنسةَ في مقاومةِ الأحتلال الألمانيّ (لجميع فرنسةَ عمليّاً ولنصف فرنسةَ شكلاً) .

وكانتِ المفوّضيّة الفرنسية في بيروتَ تابعةً لمدينة فيشي (عاصمةِ فرنسة البيتانية) . وأَحَبَّ المفوّضُ السامي الفرنسيّ أنْ يتقرّبَ من المقاصد (وقاعدة التاريخ أنّ الضعيفَ يُحاول أن يستندَ إلى من هو أقوى منه . ولعلّ المفوْضَ الساميَ الفرنسي قد أراد أن يَعْبُرَ إلى المقاصد على أقربِ الجسور اليه «مدرسة الحرج»، في عام ١٩٤٣ ، إنْ لم تُخَنّي الذاكرة . وكان مدير المدرسة الأستاذُ زكيّ النقّاش (الدكتور زكي النّقّاش اليومَ) . وكان المفوّض السامي المسيو دانس (بسكون النون) ـ وكان الأُستاذُ النّقّاش يسمّيه آسماً آخَرَ، لا لأنّ المسيو دانس كان يستحقّ تلك التسمية، ولكن لأنّه كان يمثّل سلطةً عاتيةً (مستعمرة ظالمة) .

وطلب المسيو دانس أن يزورَ جارتَه (مدرسة الحرج)، ولم يكن من حقّ الجِوار ولا من حُسن الخُلُق ولا من العُرف العربي أن يرفضَ الجارُ زيارةً من جاره ـ وفي القرآن الكريم: «وإنْ أحَدٌ مِنَ المُشركينَ آسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حتّى يسمَعَ كلامَ الله ثمّ أبْلِغْهُ مأْمَنَهُ» ـ. وزار المسيو دانس مدرسة الحرج وخطب في التلاميذ ثمّ وَدّعْناه بمثل ما آستقْبَلْناه به، وكان ذلك آخِرَ العهدِ به وبفرنسةَ في تلك الأيام.

أنا أكتُبُ هذه القِطعةَ في اليوم السادسِ والعِشرين من الشهر الثالث من العام آثّنَيْن وثمانينَ بعد التِسْعِمِائَةِ والألف. لست أعلمُ لماذا خَطَرَ هذا الموضوعُ على بالي في هذا الصباح. لعلّ الذي أخْطَرَهُ على بالي أمورٌ كثيرة تجري منذ ثلاثٍ وخمسينَ سَنَةً (منذ عام ١٩٢٩، تسعة وعشرين)، وتتزاحم في هذه الساعة حول ذاكرتي. سأورد هنا ذكرَى واحدةً منها.

كنت لا أزال أُعَلِّم في السَّنة الثالثة الثانوية (صفِّ شهادة الكفاية: البريفة، في الحُسبان القديم)، وكنت أعلّم (للحفظ غيباً) قصيدة شوقي: «سلامٌ من صَبا بَرَدَى أرقّ». وفي هذه القصيدة أشطر منها: رَماكِ بِطَيْشه ورمى فَرَنْسا أخو حَرْب. . . وللحرّيةِ الحمراءِ بابٌ، بكّلِ يد مُضَرَّجةٍ يُدَقُّ . . . . إلى آخره.

في يومٍ من الأيام جاءني (أقول: جاءني) موظّفٌ كبيرٌ في وَزارةِ التربية وطلب منّي أن أترُكَ تعليمَ هذه القصيدة (ومعَ هذا الطلب الأديب إغراء مغلَّفٌ وتهديد مستور) بحُجّة أنّه صديقي.

كلّ ما أَعْرِفُ أنّني لم أترُك تعليم هذه القصيدة، ولا عاد ذلك الموظفُ الكبير في وزارة التربية (ولا غيرهُ أيضاً) إلى مثل ذلك الطلب.

١٩٨٢/٣/٢٦ ١٩٨٢/٣/٢٧

عمر الداعــوق

من حسن حظ الفرد أن تكون له صلة بكبار القوم فإنه ـ إذا كان عاقلاً ـ استفاد من اختبارهم في الحياة.

كان لأهلي، ولوالدي خاصة ولعمي حسين على الأخص، صلة وثيقة بعمر الداعوق (ت ١٩٤٩)، وانتقلت هذه الصلة إلي. ثم جئت أنا إلى المقاصد (سنة ١٩٢٩) فزادت صلتي بعمر الداعوق عضو جمعية المقاصد، ثم أصبح عمر الداعوق رئيساً للجمعية.

في أحد الأيام استدعاني عبد الله المشنوق (مدير كلية المقاصد) ودفع إليّ بطاقة. كانت هذه البطاقة من عمر الداعوق وعليها «أدخلوا التلميذ... في الصف الاول (صف البكالوريا الاولى)».

أخذت هذه البطاقة ونزلت إلى محل عمر الداعوق (في السوق الطويلة)، في نحو الواحدة بعد الظهر. في ذلك الوقت كان عمر الداعوق يتناول غداءه البسيط (قطعة خبز، قليل من البطاطا وشيء من الخضرة، وما أشبه) ، فقد كان يشكو من قرحة في المعدة، وكان يداريها مداراة تامة.

قلت له: يا عمر بك، ما هذه البطاقة؟

قال لي: يا عمر، يأتون إليّ ويطلبون مني طلبات كثيرة. في عدد من الأحيان أرسل اليكم بطاقة، فافعلوا بها ما تشاؤون (ولا أذكر أن عمر الداعوق أرسل الينا بطاقة ثانية).

* * *

وكانوا يقولون: عمر الداعوق بخيل.

ولكن الكرم والبخل، ككل شيء في الحياة، من الأمور النسبية. لا أعلم إذا كان عمر الداعوق قد دفع شيئاً من ماله الخاص لصندوق جمعية المقاصد، ولكن الذي أعرفه أن عمر الدعوق كان ـ لمكانته في قومه وفي البلد ـ يأتيه مبالغ من مصادر مختلفة فكان يحوّلها كلها إلى صندوق المقاصد. ثم أعرف أنه كان يدفع لصندوق تعليم أبناء المسلمين في القرى مبلغ ألف ليرة في العام. إن ألف ليرة في العام لم تكن شيئاً بالإضافة إلى ثروة عمر الداعوق العظيمة، ولكن ألف ليرة كانت تشتري في نحو سنة ١٩٢٥ وما بعدها:

ستمائة وستين كيلو من اللحم الضاني ـ أو ثمانية أطنان من الباذنجان ـ واحداً وعشرين ألف ذراع من النسيج للفراش: (يقال له دِرِل: بكسر فكسر) ـ وكان بيتنا في رأس بيروت (طابقاً ثانياً من بناء على الطراز الأميركي من طابقين: أربع غرف واسعة ودار أوسع وشرفة أكبر من غرفة، الخ)، بأجار قدره مائة وثمان وتسعون ليرة.

ونعود إلى حديث البخل.

قلت أن عمر الداعوق لم يدفع من ماله الخاص شيئاً (بما أنا أعرف) إلى صندوق جمعية المقاصد، ولكن وقته كله كان وقفاً على المقاصد. ولما أرادت الجمعية أن تبني بناء «الريفولي» واحتاجت إلى مال سافر عمر الداعوق إلى فرنسا، وجاء (من البنك السوري، فيما أظن) بمليون ليرة بفائدة ضئيلة جداً، لعلها واحد في المائة، وقد قال الشاعر أبو تمام:

وإذا آمرُؤ أسْدى إليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله.

كان عمر الداعوق ينفق حيث يجب الإنفاق، كان يدعو الأساتذة إلى مائدته

والطلاب المنتهين إلى حفلة شاي فيكون على المائدة أشياء تكفي المدعوين (كأنها عدت عداً). والناس يسمّون الرجل كريماً إذا قاموا عن مائدته وكان لا يزال عليها أكوام من الطعام تلقى بعدئذ مع نفايات البيت.

ما كان عمر الداعوق كريماً مثل اولئك الذين يتبارَوْنَ في الإسراف على موائد طعام لجماعة لا يحتاجون إلى طعام، بينما ألوف الناس إلى جانبهم يموتون جوعاً.

١٩٨١/١٠/٣١ — ١٩٨١/١١/٢٨ (ص ١٠)

قصص... من بيروت

حدث خلاف بين مؤلفين انتهى بهما إلى المحكمة. وأرادت المحكمة أن تلجأ إلى التحكيم. فالخصمان كانا معروفين منظورين. عينتني المحكمة مع اثنين من أصدقائي لحل المشكلة (وسأكتم جميع الأسماء حرصاً على الوازع الاجتماعي). حضرنا نحن الثلاثةَ في صباح يومٍ وأخذنا علماً بصك التحكيم (في نحو الساعة التاسعة).

انطلقنا أولاً إلى الخصم الذي هو أكبر وجاهة ومكانة، والذي هو صاحب جانب كبير من الحق. رحب بنا (فقد كانت بيننا معرفة وثيقة). ثم قلت له: اكتب في صحيفة ما تشاء. فقال لي: بل اكتب أنت. وكتبت بضعة أسطر وعرضتها عليه. فتناول القلم لِيُوَقِّعَها. فقلت له: أرجو أن تقرأها أولاً. فقال لي: لا، سأوقع من غير أن أقرأ. ووقع الصحيفة فعلاً ثم قرأ ما فيها وقال: أنا موافق على كل ما فيها.

حملنا الصحيفة وذهبنا إلى الخصم الثاني. وقلنا له اقرأ ما وافق عليه زميلك. فقال لا أفعل حتى أوقع. وقع الصحيفة ثم قرأها وقال: أنا أيضاً موافق.

حملنا الصحيفة ـ الوثيقة ورجعنا إلى المحكمة قبل أن ينتصف النهار. فلما دخلنا على الكاتب قال لنا: ما قررتم؟ قلت له: قمنا بالتحكيم ووافق الفريقان. قال: مستحيل. فقلت له: وما المستحيل؟ قال: أبهذه السرعة آنتهيتم؟ فقلت له: نعم. هذان توقيعا الخصمين، وهذه تواقيعنا.

وسمع هذا الحديثَ محامٍ كان قريباً منا فجاء إلينا يعرج (بفتح الراء) ـ وقال بصوت مملوء بالدهشة: ... أنا وكيل هذه الدعوى منذ عامين، وأنتم فضضتم هذه المشكلة بساعتين (ومن الخير ـ في سبيل الوازع الاجتماعي ـ ألا أثبت هنا كل

ما قاله ذلك المحامي). وكان هنالك شيءٌ أسْوأ جدّاً. إنّ المحكمة لم تُعَيِّنّا بعد ذلك في التحكيم بقضية.

*

نحن في عام ١٩٤٣. سيجتمع مجلس النواب في عهد الوزارة الأولى في عهد الاستقلال. وسيلقي رياض الصلح بيانه الوزاري الذي كان بمثابة وثيقة الاستقلال. وجاءت دَعَواتٌ لحضور الجلسة التاريخية. ذهبت أحمل بطاقتي. ولكني وجدت البرلمان مطوقاً على بعد نحو مائتي متر من كل جانب. ورجال الشرطة يمنعون الناس من اختراق نطاقهم (نطاق الشرطة). الأساتذة والعلماء والوجهاء والأدباء يقفون لا يدرون ما يفعلون (وهم لا يريدون أن تفوتهم جلسة وثيقة الاستقلال). وفيما نحن وقوف نتكلم مع رجال الشرطة بالحسنى ونقول إن معنا بطاقات رسمية لحضور الجلسة، إذ أقبل رجل (ومن الخير أيضاً ألا أذكر آسمه). رآني واقفاً؟ فقال لي: ما تفعل هنا؟ قلت له: أُريد أن أحضُرَ جلسةَ مجلس النوّاب اليومَ. ورجال الشرطة يمنعونني. وها هي بطاقة الدعوة! فقال لي: ضَعِ البطاقة في جيبك.....

وضعت البطاقةَ في جيبي. ثم قال: ضعْ يدَكَ في يدي. فوضعت ساعِدِيَ في ساعِده، ثم سِرنا نخترق الصفوف كُلَّ الصفوف حتّى وَلَجْنا بابَ البرلمان. وآحتلَلْتُ المكانَ الذي أردتُه في شُرفة مجلس النُّواب بحيث كنت أرى كل شيءٍ من مقعدي. وحضرت إلقاء البيان الوزاريّ الأول في عهد الاستقلال.

ومنذ بضع دقائق أعدت قراءة البيان الوزاري للوزارة الأولى في عهد الاستقلال، وفيه كلام جازم على الغاء الطائفية في أقرب وقت ممكن ـ التعليم الاجباري ـ انصاف المناطق المغبونة ـ اجراء احصاء عام ـ اصلاح قانون الانتخاب ـ التعاون مع الدول العربية ـ مكافحة الغلاء (ولم يكن في البيان الوزاري إشارة إلى الجَنوب ـ إذ يبدو أنه لم يكن للجنوب مشكلة).

*

كان في الحرب العالمية الثانية، في لبنان، مراقبة على الصحف وعلى الكتب. وكانت المفوضية العليا الفرنسية هي التي تقوم بالمراقبة. وكنت أنا أيضاً أذهب بمقالاتي وكتبي إلى المفوضية العليا (في السراي الكبير) لمراقبتها. وكانت تلك المراقبة تستغرق دقائق أو بعض ساعة ثم أعود بما أحمل من الأوراق وعليها كلمة «الموافقة».

في أوائل العام ١٩٤٤ كان عندي كتاب مدرسي للتاريخ، وكنت على وشك أن أذهب به إلى السراي الكبير. ولكني قرأت في الصحف، في صباح أحد الأيام، أن المراقبة ستنتقل قريباً إلى الحكومة الوطنية. ففضلت حينئذ أن أنتظر الأيام لتجري مراقبة كتاب التاريخ على يد الحكومة الوطنية.

وبعد مدة انتقلت المراقبة إلى الحكومة الوطنية فحملت مخطوطة كتابي «تاريخ سوريا ولبنان المصور» (الجزء الرابع) وذهبت إلى السراي الصغير (مقر الحكومة الوطنية). وشدَّ ما كانت دهشتي حينما أبصرت هنالك نجيب اليان وأدمون وهبه ـ وهما اللذان كانا يراقبان المطبوعات في السراي الكبير.

ناولت مخطوطة الكتاب لادمون وهبه ثم جلست ـ على عادتي في كل مرة من قبل ـ أنتظر آنتهاء المراقبة. فقال لي أدمون وهبه: الآن نحن مشغولون. تعال غداً. وجئت في اليوم التالي، فقال لي: لم تنته المراقبة بعد.

وما زلت أتردد على السراي الصغير حتى طال ترددي. ثم ناولني أدمون وهبه مخطوطة كتابي مزينةً بالقلم الأحمر. وكان عليها امضاء وزير الداخلية. كان كل شيء يتعلق بالتعاون مع الدول العربية والقومية العربيّـة.. ووو... مضروباً عليه بالقلم الأحمر.

وصعدت إلى الطابق الثاني في السراي الكبير... ثم نزلت إلى الطابق الأول. فقال لي: أدمون وهبـه: هذا من شـأني أنا. وفـلان لا شأنَ لـه.. فقلت

له: يا أدمون، هذا الكلام المشطوب هنا تكتب مثله الجرائد في كل يوم، ثم هو مكتوب في مناشير ملصقة على أعمدة «الترامواي».

فهز أدمون وهبه رأسه، وهو يضحك، ثم قال لي، وقد رفع كفه إلى مقرُبةٍ من فمه ونفخ فيها: «كلام الجرائد يذهب في الهواء. والمناشير على أعمدة القطار الكهربائي سيتكفل المطر بإزالتها. أمّا في الكتاب فإن الكلام يبقى».

لا بأس بالتصريح بهذا السرّ، فقد مر على مخالفتي هذه سبعة وثلاثون عاماً... لقد طبعت الكتاب من غير أن أحذف منه شيئاً.

١٩٨٠/١٢/٢٩ — ١٩٨١/١/٢

«قصص . . . من بيتي»

هذه قصص من بيتي، أقصد من أُسرتي التي إنشأتها منذ أربعين عاماً أو تزيد بالتربية والعلم لأنني لم أشيد منزلاً من الحجارة والطين.

(١) كان أسامة (ولد عام ١٩٤٤) في نحو الرابعة من العمر حينما جلس ذات مساء كعادته إلى المائدة. والطعام في بيتنا لا يكون إلا في غرفة المائدة وعلى المائدة نفسها. ومثل ذلك شرب الماء: حتى حبة الدواء الضرورية في بعض الأحيان يتناولها أحدنا (إذا لم يكن طريح الفراش) في غرفة المائدة. ليس عندنا أحد يشرب في غرفة النوم أو يأكل موزة على الشرفة أو يقضم تفاحة وهو يسوق السيارة أو يلتهم «منقوشة» وهو مسرع إلى عمله.

ووضعت السيدة، كعادتها في كل مرة، طبق الطعام أمام أُسامة. نظر أسامة الصغير إلى طبق الطعام قليلاً ثم قال: «ما بدي» (لا أريد). واتفق أني سمعت هذه الجملة منه فدار في مخيلتي سلك طويل من الجمل: أريد هذا، لا أريد ذاك. أعطني ذلك. . . تلك قصة طويلة لا تنتهي.

فقلت للسيدة: يجب أن يذهب أسامة إلى فراشه اليوم بلا طعام. واتفقنا على ذلك. فقالت السيدة لأسامة: اذهب إلى الفراش. ونهض أسامة كعادته في كل يوم وذهب إلى فراشه بلا كلام ولا ملاحظة (إن أقوال السيدة الأم في البيت قانون طبيعي لا يفكر أحد في ترك التقيد به).

وفي صباح اليوم التالي وضعت السيدة أمام أسامة ذلك الطبق الذي لم يشأ أسامة أن يأكل منه في مساء اليوم السابق. ومنذ ذلك اليوم لم نسمع في البيت جملة مثل «هذا أحبه، وهذا لا أحبه». وكبر الأولاد الخمسة وتزوج أربعة منهم ورزق

نفر منهم أولاداً. ولا يزالون ـ كلما جاءوا إلينا للطعام ـ لا يعرف أحدهم نوع الطعام إلا بعد أن يجلس إلى المائدة.

(٢) ومروان (وُلد عام ١٩٤٦)، كان منذ بضع سنوات يعمل في لندن. كنا في ذلك الحين راجعين من الولايات المتحدة وأردنا أن نبقى أسبوعين في لندن. نزلنا في الفندق ولم ننزل في بيت مروان. وبما أن مروان كان أعرف مني بلندن، وتسهيلاً على نفسي، أعطيته مائتي جنيه لينفق منها نفقاتنا العارضة.

وأنتهت زيارتُنا للندن. وفي المساء كُنَا نُعِدُّ الحقائبَ، فقال لي مروان: بابا، أتريد أن نَتحاسبَ؟ فسألته: وعلى أي شيء تريدُ أن نَتحاسب؟ فأجاب: لقد أعطيتني مائتي جُنيه للنفقات العارِضة. وقد بَقِيَ منها بقية.

فقلت له: يا مروان، أتينا بكم إلى هذا العالم وربيناكم وعلمناكم ـ وكنتم إذا مرض أحدكم سهرنا عليه وداويناه وداريناه ثم اهتممنا بأمر زواجكم. ولم نقل لأحد منكم يوماً: تعال لنتحاسب. وأنت الآن تريد أن نتحاسب على بقية من مائتي جنيه.

(٣) ومازن (ولد عام ١٩٤٨) وكان بعد البكالوريا اللبنانية يدرس الهندسة في جامعة عين شمس (في مصر). ذهبنا مرة إلى القاهرة فرأينا أنه يسلك اتجاهاً يسارياً. فقلت له: لا مانع عندي، على شرط أن تفكر في كل شيء تعمله. فقال لي: وأنا الآن أتعلم اللغة الروسية وأريد أن أنتقل لمتابعة دراستي إلى موسكو. فقلت له مرة ثانية: افعل ما تشاء، على شرط أن تفكر في كل ما تفعله.

ثم ذهبت لحضور دورة لمجمع اللغة العربية في القاهرة، فرأيت أن مازناً قد ترك الاتجاه اليساري، فقلت له: ما عدا مما بدا؟ فأجاب: لقد حدثوني حديثاً لم يكونوا فيه صادقين (كيلا أستعمل التعبير الذي استعمله هـو).

لقد صدقته فيما قال، فليس بنا حاجة إلى أن نكذب، ثم إنني أعرف شيئاً من هذا من اختباري. لي بالاشتراك مع الدكتور مصطفى خالدي (رحمه الله) كتاب عنوانه «التبشير والاستعمار» نقل إلى التركية والفارسية وإلى الاردية (ولم أر طبعته في الأردية). ونقلت أشياء منه إلى غيرها من اللغات. ثم علمت أنه نُقِلَ أيضاً إلى الروسية وطبع بالروسية مرتين.

واتفق أن حضر إلى بيروت وفد من جمعية الصداقة السوفياتية العربية ودُعيت إلى حفل استقبال. ذهبت وحادثت رئيس الوفد في هذا الشأن، فقال «اكتب إلينا في موسكو». وبعد مدة فعلت وجاء الجواب بأن الاتحاد السوفياتي لا يدفع بدلا عن حقوق التأليف؟

لا شك في أن رئيس الوفد كان يعرف أن الاتحاد السوفياتي لا يدفع حقوق تأليف، فما هو السبب في طلبه مني أن أكتب إلى موسكو؟

واتفق أن كان في بيروت ملحق ثقافي سوفياتي اسمه شمالكوف (فيما أذكر). حدثته في الأمر، فقال: نحن لا ندفع حقوق تأليف. قلت له: أنتم لا تدفعون حقوق تأليف للمواطن السوفياتي الذي تهيئون له السكن والتعليم والتطبيب وسوى ذلك. أما أنا هنا فإنني أدفع لتعليم أولادي (والكلام من نحو عشرين عاماً) ألف ليرة في كل شهر. فردد القول: نحن لا ندفع.

فقلت له مرة ثانية؛ أما كان بالامكان ـ على الأقل ـ أن ترسلوا إلينا نسختين من الترجمة الروسية: نسخة لي ونسخة للدكتور مصطفى خالدي؟ فأجاب: وهذا أيضاً شيء لا نفكر به. حينئذ قلت له: ألا تعرفون أن تبعثوا إلينا ببطاقة صغيرة عليها كلمة: «شكراً»؟

(١٩٨٠/١٢/٢٨) ١٩٨١/١/١٠

الصدر الأعظم

إن كل شخص يشتري نصف ورقة «يا نصيب» يعتقد أنه سيربح الجائزة الكبرى. وإن نفراً كثيرين من الناس يظنون أنه إذا تولى أحدهم منصباً أصبح حاكماً بأمره، وأصبح من الواجب على كل إنسان آخر ـ علا في البيئة الاجتماعية أو سَفَلَ ـ أن ينظر إليه على أنه السيد المطاع في جميع الأمور.

كان في مدينة من مدن هذا الساحل رجل رزق ابناً قليل الهمة. كان الرجل يريد أن ينفخ في ابنه الصغير روح الطموح، فكان كأنه ينفخ في كيس من النسيج. وفقد هذا الرجل كل أمل كان ينتظره من ابنه هذا فجعل يقول له، مرة بعد مرة: يا بني، إنك لن تصبح رجلاً.

ولم يكن ذلك الطفل يدرك معنى الجملة التي كان أبوه يرددها.

ثم بلغ هذا الطفل مبلغ الشباب وأصبح يفهم معنى قول والده له: لن تصبح رجلاً.

وفي يوم من الأيام، وقد طال وقوع هذه الجملة على أذنيه، غضب وترك بيت أبيه وهام على وجهه في الامبرطورية. وحوادث الأيام تصقل الجلف الجافي ثم تصنع من القليل كثيراً ومن السوء شيئاً من الخير.

وتقلبت الأيام بهذا الشاب من مكان إلى مكان ومن عمل إلى عمل ومن بلد إلى بلد حتى حطت رجلاه في استانبول. ودارت الأيام دورتها فأصبح هذا الشخص صدراً أعظم.

وبعد مدة ـ وقد ارتاح مدة من عناء الحياة الأولى القاسية ـ تذكر هذا الشخص أباه وصورة أبيه وما كان يقول له أبوه. فالتفت مرة إلى أمين السر في

مجلسه وقال له: أريد أن أستقدم والدي سليم حسني بك من مدينة تاريب.

وأسرع أمين السر فاتصل بوزير الخارجية يخبره بأن الصدر الأعظم يرغب في أن يرى أباه سليم حسني وأن الترتيبات يجب أن تجري لاستقدام الأب بسرعة.

وأبرق وزير الخارجية إلى الوالي في تاريب بارسال سليم حسني إلى استانبول على جناح السرعة. ووصلت البرقية المستعجلة إلى الوالي في الليل فاتصل حالاً بمدير الشرطة يبلغه فحوى تلك البرقية. وأسرع مدير الشرطة بالاتصال برئيس المخفر القريب من سوق المنجدين يأمره بارسال المطلوب سليم حسني إلى استانبول حالاً.

وذهب اثنان من رجال الشرطة الأقوياء في تلك الليلة نفسها إلى منزل الرجل في سوق المنجدين وحملوه في ثياب نومه إلى المخفر. ثم انهم ساقوه في اليوم التالي إلى العاصمة. ولا تسل عن التعب وسوء المعاملة التي لقيها الرجل في أثناء الطريق الطويلة. ووصل المطلوب إلى باب الصدر الأعظم في السراي، وقيل للصدر الأعظم: إن المطلوب بالباب.

كان الصدر الأعظم قد نسي الأمر كله، ولم يدر أن المقصود بالمطلوب كان والده. فقال لهم: لينتظر قليلاً. ولكن «قليلاً» هذه امتدت ساعة كاملة. ثم أذن الصدر الأعظم بأن يدخل المطلوب عليه.

لقد حدثت مفاجأتان: لكل واحد منهما مفاجأة تختلف من أختها. غير أن الصدر الأعظم كان أسرع تنبهاً لما كان يريد، فوقف وراء طاولته المزخرفة شامخاً، وقال للواقف أمامه: هل عرفتني؟ فقال له: نعم، لقد عرفتك. أنت ابني.

فقال له الصدر الأعظم: وما قولك، يا أبي، بي الآن. كنت دائماً تقول لي: لن تصبح رجلاً. وها أنا ذا قد أصبحت صدراً أعظم.

فقال الوالد ـ وهو يغالب دمعة في عينيه ـ: أجل، يا بني، لقد أصبحت صدراً أعظم. . . ولكن لم تصبح رجلاً.

١٩٨٠/١١/١٨ ١٩٨٠/١١/٢٢

لَمَحات

لمّا عزمتُ ـ مَعَ نفرٍ من الزُّملاء ـ على إصدار مجلّة «الأمالي» كتبتُ إلى إبراهيمَ طوقان (١٩٠٥ ـ ١٩٤١) أن يبعَثُ إليَّ بقصيدة أو بمقالٍ للعدد الأوّل. فوعَدَني بذلك ولكنه تأخر في الإجابة. فكتبتُ إليه الرسالَة التالية منظومةً ومُقفّاة:

يا أبا جَعفرٍ[1]، سَلِمْتَ من الضَّيْمِ وذُقتَ النعيمَ كاساً فكاساً. أنا أُزهى بما وَعَدتَّ «الأمالي» من نظيمٍ رأى الخُلود فماسَا. كلَّ يومٍ لنا حديثٌ طريفٌ عن قوافيكَ يُطْرِبُ الجُلاّسا. غيرَ أنّي بُلِيتُ منك بِنِسْيانٍ مُريعٍ يقطّعُ الأنفاسا. عادَ منه الإيقانُ ضَرْباً من الظنّ وعادَ آطمئنانُنا وَسْواسا. أنتَ مَنّيْتَني من الشعر والنّثر عظيماً مَنَّيْتَه ذا الناسا. كُلُّهُمْ خافقُ الفُؤادِ حريصٌ أن يرى ذلك المُفصَّل ماسا؛ ويراه ـ إنْ شِئْتَ ـ في العددِ الأوّلِ تاجاً يَزِينُ وَجْهاً وراسا. فتَلَطَّف بِنَفْحةٍ تُنْعِشُ الآمال فينا وتَبْعَثُ الأغراسا. وإذا ما لَوَيْتَ سُؤلي فإنّي مُسْتَعينٌ في خَيْبَتي عبّاسا[2].

فيطرون (لبنان) ١٩٣٨/٧/١٥

---

(١) أبو جعفر كنية ابراهيم طوقان (من قبل أن يتزوج).

(٢) العباس بن الأحنف شاعر عباسي كان ابراهيم طوقان يتشبهُ به.

بيت الاطفال

هذا الاسم «بيت الأطفال» ـ اوّل ما أطلق ـ على صفوف الحديقة في مدرسة البنين الأولى (ثانوية الحرج اليوم)، آخترعه «بابا رشاد» (رشاد العريس) رحمه الله. بعدئذ كثر هذا الاسم هنا وهناك، وكثر معه بابا فلان وماما فلانة.

كان الأطفال (في صفوف الحديقة) يلعبون مع الكبار في ملعب واحد. ثمّ أقيم إلى أحد جوانب الملعب حاجز خشبي يمنع اختلاط الكبار بالصغار، ولكن لا يمنع الصغار من أن يتعلّموا من الكبار أشياء تجوز وأشياء لا تجوز. ثمّ جُعل لبيت الأطفال هذا بناء خاص (كان في الأصل نادي الكشاف ـ عند المدخل الغربي لبيت الأطفال اليوم).

وأبدى رئيس الجمعية محمد سلام، رحمه الله، اهتماماً كبيراً ببيت الأطفال وأراد أن يجعله مدرسة للنخبة من المسلمين ـ على مثال عدد من المدارس في بريطانيا: «هارّو» مثلاً. وكان يشاركه هذا الاهتمام المربي احمد سامح الخالدي. وكثيراً ما قضى الاثنان معاً ساعاتٍ طوالاً من أيامٍ متوالية يشرفان على هذا البيت للأطفال.

وكنت في أوقات فراغي من الدروس أذهب أنا أيضاً إلى بناء بيت الأطفال ـ قبل أن يبنى هذا البناء الكبير له، وفي أثناء قيام هذا البناء.

وسألني محمد سلام يوماً: كيف ترى أن يكون الدخول إلى بيت الأطفال (وكانت مدارس المقاصد في ذلك الحين مجّانية أو شبه مجّانية). فقلت له:

ـ يؤخذ من تلاميذ بيت الأطفال ومن تلاميذ المرحلة الثانوية (بعد الشهادة التكميلية: البريفه) أقساط كاملة. وتكون المرحلة الابتدائية والمرحلة التكميلية بالمجّان للجميع.

ولكن يبدو أن سياسة الجمعية كانت مختلفة قليلاً مما اقترحت. أما في بيت الأطفال فالرسوم والأقساط تدفع دائماً كاملة (وأنا لا أعرف إلا استثنائين فقط: استثناء لأولاد أحد الأعضاء واستثناء آخر لأولاد مدير قديم).

ولا يجوز أن نذكر بيت الأطفال ولا أذكر المديرة التي جعلت من بيت الأطفال بيتها الأول، ومن المعلمات في بيت الأطفال أسرتها، ومن الأطفال أولادها. الآنسة إحسان رجب المحمصاني. كانوا يقولون عنها إنها شديدة. ولكنّ تلك الشدة هي التي خلقت قيمة بيت الأطفال لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت. لقد مرّ أولادي الخمسة، صبياناً وبنات ببيت الأطفال (وبنتاي أتمّتا فيه تعليمهما الابتدائي والتكميلي والثانوي أيضاً). وإذا كنت الآن أعلم أن جانباً من التعليم لم يكن على ما يرام، لأن المعلمات لم يكُنّ (بضمّ الكاف وتشديد النون المفتوحة) كلُّهن على مستوى واحد، فإن سعادتي الآن لا حد لها لأن التربية في بيت الأطفال كانت الثروة الكبرى التي يتمتع بها أولادي وأولاد غيري ايضاً.

جاء إلى بيروت يوماً أحد المستشرقين (وقد نسيت الآن اسمه، لكثرة أصدقائي منهم وكثرة لقائي بهم هنا وفي بلاد أخرى) وأبدى رغبة في زيارة بيت الأطفال لجمعية المقاصد. فاستأذنت الآنسة إحسان المحمصاني في ذلك. فطافت بنا على أقسام بيتها قسماً قسماً: غرف الدرس، ـ غرف الطعام ـ غرف الراحة للصغار ـ ولنومهم بعد الظهر خاصّة ـ . . .

وبعد انتهاء الزيارة قال لي ذلك المستشرق (ولا أعتقد أنه كان يريد مداراتي): يمكن أن نجد في أوروبة مثل هذا البيت، ولكن لا أعتقد أننا نستطيع أن نرى أفضل منه.

إن ذلك المستشرق قد رأى في زيارته الخاطفة ـ في ساعة من الزمن ـ ما كان في بيت الأطفال من مظاهر التعليم. ولكنه لم يكن مستطيعاً أن يرى في تلك

الساعة الواحدة من الزمن كلّ الأثر الذي تركته التربية في بيت الأطفال على الأجيال المتعاقبة من أولادنا ومن رجالنا ونسائنا.

١٩٨١/١٠/٣٠ — ١٩٨٢/٣/٦ (ص ١٠)

لَمَحات

هَيِّءْ لَه المُستقبَلا   وأَنِرْ لَه طُرُقَ العُلا.
وآجْعَلْ لَه الدُّنْيا تَلا   لاً كالضُّحَى أو أجْمَلا.
وآحْمِلْهُ في هذي الحَيا   ةِ مَخافةً أنْ يفشَلا.
وآسْلُكْ بهِ النَّهْجَ القوِيـ   ـمَ ضُحًى إلى أنْ يَعقِلا.

*

الطِّفلُ كَنْزٌ فآرْعَهُ   رَعْيَ الحريصِ المُعْجَبِ.
وآبْذُلْ له التَّثقيفَ في   زَمَنِ الرِّياضِ وهَذِّبِ.
إنّ الحَنانَ فَضيلَةٌ   وضَرورةٌ في المكتبِ:
شَتّانَ ما بَيْنَ الخَصيـ   ـبِ من الرُّبى والمُجْدِبِ.

سيف الاضراب كليل

منــذ اتّصلتُ بنقابــة المعلّمين (عـام ١٩٣٧) لم يكن لي رأيٌ حسن في المـظاهرات وفي الإضـراب. كان لـديّ دائماً وسـائلُ أحـافظ بها على كـرامتي وأصـون حقوقي أفضـلَ من الاضراب: المفـاوضـةُ مَـعَ ربّ العمـل (مـا دام في العـالم شيء من المنـطق) ورفـعُ دعـوى (مـا دام هنـالـك محـاكمُ للفصـل بين المُتداعين) وترك العمل (ما دام التعاقد بين الأطراف حرّاً) ثمّ العمل العاقل حتّى يقتنع ربُّ العمل بأنّ الحقّ يمكن أن يكون في أحد الجانبين.

في عام ١٩٥٠ أرادتْ نقابة المعلّمين أن تقوم بإضراب. كنت أنا وعُضوانِ آخَرانِ مخالفين. ولكنْ لمّا أُخِذَ القرارُ بكَثْرةِ (بأكثريّة) تسعةٍ إلى ثلاثةٍ لم يبقَ بُدٌّ من أن نتقيّـد نحن المخـالفين بهذا القـرار. ولكنْ مـا أنِ أُتِخـذَ القـرارُ حتّى آنصـرف كثيـرون من الـذين وافقـوا على الإضـراب الى إعـطاء التصـريحـات للصحف وإلى الخَطابة بحَماسة في المعلّمين. وتعيّنَ علينـا ـ نحنُ الثلاثـة ـ أن نهتم بتدبير الطرق لإنجاح الإضراب (لأننا نحن كنّـا نصدُر عن روح صحيـحٍ في تعاون الجماعات).

وطلبتُ أنا مُهلةَ شهرينِ للإعداد لإضراب ناجـح. فثار الآخَـرون وقالـوا: نريدُ إضراباً نـاجزاً حـالاً. فقلت لهم: تَوَلَّـوْا (بفتح الـلام المشدّدة) أنتم، إذَنِ، الإعداد للإضراب. وبما أنّهم كانوا لا يستـطيعون شيئـاً إلا الكلام العنتـري أمام رفاقهم الذين كانوا أكثر عَجْزاً، سلّموا لنا بمهلة الشهرين.

وفي الجلسة الأخيرة قبلَ يومِ الاضراب بحثنا في مجرى المظاهرة، وآقترحنا أن تبدأ المظاهرة من الجامعة الفُلانية أو من الكُلّيّة الفلانية أو من المدرسة الفلانية (مدارس أولئك الذين رفعوا أصابعهم يومَ جرى التصويت على الإضراب). ولكنّ كلَّ هؤلاء اعتذروا من ذلك (من بدء المظاهرة من مدارسهم) كيلا تَسْوَدَّ صفحاتُهم عند أرباب أعمالهم. فاقترحت أنا أن تبدأ المظاهرة من كلّية المقاصد في الحرج.

وقبل يومِ الإضراب بيومٍ واحدٍ ذهبتُ إلى رئيس الوزارة (رياض الصلح) وقلتُ له:

ـ غدا عندنا إضرابٌ.

ـ ولماذا تُخبرني بذلك؟

ـ لأنّنا نريدُ أن نقومَ بمُظاهرة.

ـ وماذا تطلُبُ منّي؟

ـ إرسالُ نفرٍ من رجال الأمن للمحافظة على النظام ومنعِ «أكَلةِ الجُبنة» مِنَ آستغلال المتظاهرين؟

ـ طيّب. وهل هنالك شيءٌ آخَرُ؟

ـ نعم. لا يُقْبَضُ على أحدٍ من المتظاهرين.

*

وفي يوم الإضراب لم نَسِرْ نحنُ الثلاثةَ في المظاهرة، بل كنّا نُراقب سيرَ المظاهرة من قُرْب ومن بُعْدٍ. ولمّا وصلتِ المظاهرة إلى كلّيّة البنات (ثانويّة البنات للمقاصد: عند الباشورة) آنْفَلَتَ آثنانِ وصَعِدا إلى المدرسة يريدان إخراجَ الطالباتِ (معَ أن المدرسة كانت مُضربة ـ وكنّا أردنا من الطالبات ألاّ يَشْتَرِكْنَ في المظاهرة).

وألقى رجال الأمن القبض على ذَيْنِك الشخصين.

ذهبتُ إلى رياض الصلح وقلت له:

ـ لقدِ آتّفقنا على ألاّ يُلقى القبض على أحدٍ منّا.

ـ ولكنّ أحدَ هذين سوريٌّ، والثاني منهما فِلَسطيني. والقانون يمنع غير اللبناني من القيام بمظاهرة على الأرض اللبنانية.

ـ نعم، ولكنّهما مُعلّمانِ.

ـ آتركِ الأمرَ إلى غدٍ.

ـ هذا لا يجوز لمكانةِ المعلّمين كُلِّهم.

ـ ولكنْ ليس عندي الآنَ (والوقت بعدَ الظهر) مُدَّعٍ عامٌّ كي تَجْرِيَ معاملةُ إخراج الشخصين من السجن.

***

ذهبتُ ثمّ رَجَعت بصُحبة الأُستاذ رشيد الصلح. وبدأ رياض الصلح بنص آستنابةٍ باسم الأستاذ رشيد الصلح. فقلت له:

ـ اكتبِ الآستنابة باسمي أنا.

ـ لماذا؟

ـ لأنّ الاستاذَ رشيد الصلح رجلُ قانونٍ، فلا بُدّ له من التحقيق في الأمر ومن سؤالِ رجالِ الأمن عن الحال التي كان فيها هذان الشخصان لمّا جرى القبض عليهما. وهذا يمكن أن يؤجّلَ إطلاقَ سراح هذين المعلّمين إلى ما بعد غد.

* * *

وكتب رياض بك الآستنابة باسمي . فلمّا ذهبتُ بصحبة الأستاذ رشيد إلى النَّـظارة (في السراي الصغيـر) تعجّبَ الحَرَس. ولكن لـم يكنْ بُـدّ من تنفيذ أمـر رئيس الوزراء.

*

هذا الإِضراب الناجح أعطى النقابة شيئاً من الوجاهة عند الناس العاديّين. أمّـا حقوقُ المعلّمين فلم يَنْتَـهِ العمـل في الحصـول عليهـا إلّا بعـد سنـواتٍ من الجُهد لدى وزراء المعارف ولدى رؤساء الوزارة بعـد رياض الصلح (آغتيـل في الأُرْدُنِّ عامَ ١٩٥١) ولدى رؤسـاء الجمهوريـة . ـ ولكلّ واحـد من هؤلاء عندي قصّةٌ طريفة تستحقّ قطعة مستقلة:

وتمّ وضع قانون للمعلّمين وقانون نهاية الخدمة وقانـون صُندوق الضَّمـان للتعويض على المعلّمين في نهاية الخدمة. ولم يبقَ شيء يستطيـعُ المعلّمون أن يحصُلوا عليه إلّا إذا تبدّل نِظام الحكومة وتبدّل مَعَه النظام الآقتصادي في البلد.

منذ ذلك الحين تركتُ مَعَ نفر من الزملاء السعي في سبيل أشيـاءَ لا فائـدة من طَلَبها. غيرَ أنّ نفراً آخرين لا يزالون إلى اليوم (وسيستمّرون مـدّةً طويلةً بعـدَ اليوم أيضاً) يُرْسِلون التصريحات الى الجرائد.

١٩٨١/١١/٩

الأهل يغمضون عيونهم عشرين سنة ثم يصرخون

هذا موضوع يحتاج إلى مجلدات سأقتصر منه على عدد من الحوادث:

- لي صديق قديم منذ أيام المدرسة (عام ١٩٢٠ أو قبل ذلك) ولكنه ترك المدرسة باكراً فهو اليوم أُمِّيٌّ أو كالأمي. قال لي قبل عامين: بنتي تقدمت إلى الامتحان فاجعل نظرك عليها. فسألته: إلى أي الشهادات تقدمت؟ فقال: لا أدري. فقلت له: أللفرع الأدبي أمِ العلمي؟ فقال: لا أعرف. فسألته ثالثة: أتدرس هي بحسب المنهج الفرنسي أم الإنكليزي؟ فقال ايضاً: لا أدري. فسألته السؤال الذي ظننت إنه يعرفه بلا شك: في أي المراكز ستقدم ابنتك الامتحان؟ فقال مرة جديدة: لا أعرف.

لقد رافقته في هذا الحديث تطييباً لقلبه. فأنا لا أجعل نظري على أحد في الامتحان. هذا مبدأ لي منذ بدأت التصحيح. ثم إنه يكون بين أيدينا في لجنة المراقبة خمسون ألف ورقة أو ستون ألفاً، فالكلام على معرفة ورقة بعينها شيء يشبه المُحال (والوقت لا يسمح والخُلُقُ أيضاً لا يقبل ذلك).

- وصديق آخر أستاذ مثلي، منذ زمن قديم، قال لي: كيف ابني عندك في المدرسة الفلانية؟ قلت له: ليس ابنك عندي في المدرسة الفلانية، وأصر على رأيه وقال: وهو يحدثني عنك. فأخرجت دفتر العلامات من جيبي وقلت له: ليس لابنك آسم في هذا الدفتر. وتبين فيما بعد أن ابنه عندي في الجامعة الفلانية.

- وجاء إلي أب (وكان عيناً من أعيان هذا البلد، كما كان أبوه من قبله من رجال الإصلاح) وقال لي: فلان (يقصد آبنه) لا يطيعني، فقلت له: أله أخوات؟

قال: نعم، له أختان. فسألته: وهل لأختيه رفيقات؟ قال: نعم، لهما رفيقات يأتين إلينا مرة في كل أسبوع على الأقل.

كان ابن هذا الرجل تلميذاً ذكياً مهذباً، ولكن «علاماته لم تكن نافعة». فقلت للوالد الذي جاء إليّ: لا فائدة من استمرار فلان في المدرسة، ابحث له عن عمل.

كان هذا الوالد عاقلاً فسمع النصيحة وعمل بها. وفلان ابنه اليوم من الناجحين في الحياة الدنيا.

ـ وقال لي والد، في العام الماضي: أيجوز أن يسقط ابني (في امتحان البكالوريا) على نصف علامة. فحاولت أن أُفْهِمَ هذا الوالد بالتي هي أحسن أن سقوط ابنه كان في مواد كثيرة. لكنه ظل يتباكى ويتساءل كيف يجوز أن يسقط آبنه على نصف علامة؟ فلجأت إلى غير التي هي أحسن وقلت له: اسمع، يا هذا. المطلوب في البكالوريا مائتان وأربعون علامة ينجح الطالب عادة إذا جمَّع نصفها (مائة وعشرين علامة). ومعالي الوزير قد خفض (في هذا العام) علامة النجاح إلى خمس وخمسين علامة فقط. وابنك جمع أربعاً وخمسين علامة ونصف علامة (من مائتين وأربعين) فيكون ابنك قد قصّر على مائة وخمس وثمانين علامة ونصف علامة.

ـ استوقفني والده وقال لي: ابني ذكي ومجتهد يدرس ليلاً ونهاراً وقد قصّر في البكالوريا، بينما الطلاب الذين هم أقل منه ذكاء واجتهاداً قد نجحوا. فقلت لهذا الوالد: دعنا من الآخرين. قل لي: أعندكم تلفزيون يشارككم ابنك في النظر إليه؟ قال: نعم. قلت أيذهب ابنك إلى السينما؟ قال: نعم. قلت: أيقول لك ابنك: أنا ذاهب لأدرس عند رفيقي؟ قال: نعم. قلت: أتأخذه معك لزيارة الأهل والأصدقاء: قال نعم. فقلت له: قل لي الآن: كيف يدرس ابنك ليلاً ونهاراً؟

إن امتحانات البكالوريا مقياس رسمي (شكلي) لدرجة تحصيل العلم، ولكنها ليست ـ على كل حال ـ مقياساً صحيحاً لمقدرة الطلاب. ومهما يقل الناس في امتحانات البكالوريا، ومهما يكن في قولهم أحياناً من الحق، فإن امتحانات البكالوريا ليست وحدها مسؤولة عن تقصير الطلاب. ولو أن جميع الوالدين يراقبون أولادهم في جميع الأمور ـ وفي أمور الدراسة خاصة ـ لما كانوا يوماً بحاجة إلى أن يشكوا من سقوط أولادهم في امتحانات البكالوريا. ولكن نفراً من الوالدين يغمضون عيونهم ويسدون آذانهم عن أولادهم عشرين سنة ثم يرفعون أصواتهم بالشكوى فجأة عند حلول كارثة ما...

١٩٨٠/٨/٥ — الاثنين ١٩٨٠/١٠/٢٧ (ص ٧)

لَمَحات

قَسَماً بِزَحلةَ ما ذكَرْ	تُ لَيالِيَ الوادي النّضيرِ:
تَتَراقصُ الأطيارُ كالنْـ	ـنَشْوَى على نَغَمِ الخريرِ.
فَيُجيرُني عَذْلَ الصَّبا	من ظُلْمِ أيّامِ الهجيرِ
وترى الحِسانَ سوارِحاً	بينَ الخمائلِ والغديرِ،
يَرْفُلْنَ في زَهْوِ الصِّبا	ويَمِسْنَ في حُلَلِ الحريرِ.
أفْدي الظِّباءَ النافرا	تِ ولَفْتَةَ الظَّبْيِ الغَريرِ.

أنت بخيل . . .

كنت أتحدث يوماً مع نفر من الزملاء فقال لي أحدهم: «أنت بخيل، يا دكتور عمر». فقلت له: وما رأيت مني مما يدل على البخل فيّ؟ قال: أنت تعلم أن الزِّي الآن أن يكون رباط الرقبة عريضاً، وأنت لا تزال تعقد في عنقك رباطاً ضيقاً.

فقلت له: أوّلاً ـ أرى أن هذا الرباط «الرفيع» في عنقي كاف، وأعتقد أنّني لست بحاجة إلى رباط «أغلظ» منه. وكنت أود أن أستغني عن «عقدة الرقبة»، ولكني أدركت أن كثيرين سيسألوني عن سبب تركي لعادة شائعة في البلد، فيضيع من وقتي في الرد على أسئلة السائلين أكثر مما يضيع من الوقت في عقد هذه «العقدة» في صباح كل يوم،

ثم قلت له: اسمع مني. في الشهر الذي انتهى منذ بضعة أيام دفعت قسطاً من إجار (بكسرة الهمزة) البيت ودفعت أقساطاً لأولادي وأديت الزكاة (وأحسب أن ذلك كان منذ بضعة عشر عاماً، حينما كان شهر رمضان المبارك قريباً من رأس السنة الشمسية) ثم اشتريت للمنزل أشياء كنا في حاجة إليها، فكان ما دفعته اثني عشر ألف ليرة (وأنا في مدرسة ثانوية، ولست مستورد أدوية ولا بائع بضاعة نسوية ولا موظفاً محظوظاً في الدولة). فهل تعد رجلاً ينفق في شهر واحد اثني عشر ألف ليرة بخيلاً؟ فقال لي: ولكن تلك مبالغ كنت أنت مضطراً إلى دفعها.

لقد فهمت ما يقصد زميلي الذي بهتني بالبخل: هو يرى أن «الكرم» إنما هو بإقامةِ المآدب لمناسبة ولغير مناسبة ودفع «البخشيش» عند كل زاوية من زوايا طريقه، وتبديل أزياء ثيابه كلما خطر في بال مفلوك في أوروبة أن يقول لهؤلاء الناس: منذ غد تكون قبة القميص طويلة الأطراف أو قصيرة مستديرة الطرفين أو

ضيقة عند عروتها أو واسعة في ذلك المكان، أو بِتَبْديل أثاث منزله مرة كل عامين. وبعد ذلك لا مانع عنده من أن يلح في طلب منحة لأولاده في المدارس، وأن يؤجل دفع ديونه أو أن يلقي سلكاً معدنياً على أحد أعمدة الكهرباء حتى «يوفر» قسماً من المبلغ الذي يستحق عليه من ثمن النور والتدفئة والطبخ والغسل أو أن يحاول بذكائه أن يضيف إلى أعماله الواسعة عملاً صغيراً يرتزق منه رجل رقيق الحال. . .

وإذا أنت قلت لمثل هذا الرجل: إن ما تفعله عيب لا يليق بالرجال، قال لك: «هذه شطارة، والشاطر لا يمت». والشاطر، في اللغة العربية، هو الرجل الخبيث الذي يشطر أي (يشق) جيوب الناس ليستخرج ما فيها، وأصحابها عن ذلك غافلون.

١٩٨١/٢/٧ ١٩٨١/٣/٢٨

لَمَحات

من كـان يُكثِرُ لـلإلـه صِيـامَهُ ويقـومُ في نُسُـكٍ إلى الأسْحـارِ،
ويرى البِلادَ تَمزّقتْ أطـرافُـها فَـحَـيـاتُـهُ وِزْرٌ مِـنَ الأوْزارِ.

١٩٢٧

جُبْتُ البـلادَ فلم أَهْوَ الخِبـاءَ بهـا وأُبْتُ منها بحبِّ الصارمِ الـذَّكَرِ.
إذا بَـرَزْتُ بـهِ يـومَ اللِّقـاءَ تـرى تَمَزُّقَ القَوْمِ بين السَّيْفِ والقَـدَرِ.

١٩٢٧

التعليم الذي هو رسالة (١)

كل من دخل في صناعة التعليم يقول لك: التعليم رسالة، غير أن نفراً كثيرين من الذين يقولون هذا القول يريدون به أن يعاملهم الناس على مستوى «رسالة التعليم». أما هم أنفسهم فأنهم يضربون عن التعليم إذا تأخر حصولهم على زيادة في المرتب مدة من الزمن.

سأصف لك في حلقتين (بسكون اللام) نفراً من الذين حملوا رسالة التعليم في هذا البلد كثيراً أو قليلاً.

● كان عبدالله المشنوق، مد الله في حياته، مديراً لمدرسة البنين الأولى (ثانوية البنين للمقاصد) ومفتشاً لمدارس المقاصد (وكانت في الزمن الذي أقص تاريخه أربعاً أو خمساً، في عام ١٩٣٠). كان مديراً قديراً في التنظيم وضبط الأمور، بعيد النظر في مستقبل العلم والتدريس وكذلك كان سياسياً في معالجة الأمور الجانبية: يدخل عليه المعلم فائراً ثائراً لأمر يتعلق براتبه أو بكثرة عمله أو بإجباره على تعليم مادة ليست من اختصاصه. فيأخذه عبدالله المشنوق بالحديث المثالي والحديث الواقعي فيخرج ذلك المعلم من غرفة الإدارة وقد نسي ما جاء يشكو منه.

والتفتيش الذي كان عبدالله المشنوق يقوم به هو التفتيش الأكمل. لم يكن يستدعي المعلم ليسأله «كيف تمشي الدروس؟» ولم يكن يدخل على المعلم ليرهبه أو ليتدخل في الدرس، كان يدخل إلى صف من الصفوف مكان المعلم ويعطي درساً كاملاً (وفي أثناء هذا الدرس يعرف مستوى التلاميذ ومقدار جهد المعلم في تعليم تلاميذه). ثم إنه كان يحسن العربية والانكليزية والفرنسية ويتكلمها (أو يخاطب الطلاب بها على مستوى يكاد يكون واحداً)، وكذلك كان يحسن الرياضيات والطبيعيات (لتلك الصفوف التي كانت موجودة يومذاك)، والجغرافية

والتاريخ. وفي أيام عبدالله المشنوق ارتقت مدارس المقاصد من المرحلة الابتدائية الناقصة إلى المرحلة الثانوية التامة.

ولكن عبدالله المشنوق ترك التعليم في أعقاب الحرب العالمية الثانية وهو في ابان النشاط الجسمي وذروة الصفاء الذهني.

وكان يتولى النظارة (الإشراف على النظام في المدرسة) في أيام عبدالله المشنوق الأستاذُ زكي النقاش (الدكتور زكي النقاش فيما بعد). ولم يكن يضبط التلاميذ بالقسوة أو يحفظ النظام بالعنف أو يستعبد الطلاب بقوته. ولكنّه كان مستقيماً فاستقام التلاميذ باستقامته. إنك لا تستطيع أن تصلح الآخرين إذا لم تكن أنت في نفسك صالحاً. وكان زكي النقاش يعلم الجغرافية والتاريخ إلى جانب قيامه بالنظارة ثم تولى إدارة كلية المقاصد بعد عبدالله المشنوق. ولا شك في أن الذين يذكرون زكي النقاش ويتسقطون أخباره كثيرون.

ثم تولى النظارة محمد مصباح العطار (ت ١٩٨٤)، وكان آية في الضبط والدقة، لم يؤجل عملا من يوم إلى آخر. كان يأتي في الصباح الباكر (قبل ساعة من بدء الصفوف) ويعد أعمال اليوم ثم لا يغادر المدرسة (ولو تأخر ساعة أو أكثر بعد الدوام) إلا إذا أنجز كل أعمال ذلك اليوم. لم يكن يكلف المعلمين بأعمال إدارية، بل كان هو يقوم بتلك الأعمال كلها. وكذلك كان الطلاب يحبونه ويهابونه معاً. لقد كان العمل المنظم وحب الخير طبيعة في نفسه أو كالطبيعة.

هذه نماذجُ من أولئك الذين كان التعليم عندهم رسالة وقد كتبت فيهم هذه الكلمات لا اطراء فيها ولا دعوَى، فهم قد تركوا التعليم منذ زمن بعيد جداً. أنا لا أجزم في أن الدهر لم يُرْضِهِمْ، ولكني أعلم علم اليقين أنهم قد أرضوا (بفتح الضاد) أنفسهم لأنهم قد تركوا في الأجيال التي أشرفوا على تربيتها أثراً صالحاً.

١٩٨١/١١/٢ — ١٩٨١/١٢/١٢

التعليم الذي هو رسالة (٢)

لقد أعلى مكانة مدارس المقاصد في التربية وفي التعليم نفر من المعلمين إذا أنا بدأت بِعَدِّ أسمائهم فلن أنتهيَ من عدّها. سأتناول ثلاثة فقط يمثلون جوانب مختلفة جداً في أشياء كثيرة.

كان ابراهيم عبد العال، رحمه الله، مهندساً مائياً ورئيساً في دائرة المياه، وهو، واضع مشروع نهر الليطاني، ومع ذلك فقد كان يحمل رسالة التعليم في ألمع صورها، كان يعطي دروسه في أول النهار المدرسي أو في آخر النهار المدرسي، وربما طلب من التلاميذ أن يحضروا في يوم جمعة (لم يكن يوم الأحد عطلة في مدارس المقاصد) أو في أيام العطل القصار أو الطوال، لم يكن له غاية من التعليم إلا التعليم (وأظن أن راتبه لم يزد على ثلاثمائة وخمسين ليرة ـ وهذا المبلغ لم يكن له قيمة عنده).

كان إذا جاء باكراً جداً، قبل الطلاب في الصباح بقي في سيارته ينتظر، فإذا جاء الطلاب صعد معهم إلى غرفة الدرس. أما في آخر النهار فكان يستمر في الدرس حتى تكاد السماء تظلم، والذين تخرجوا في كلية المقاصد قبل ١٩٥٠ لا يزالون يذكرون ابراهيم عبد العال بالخير، ثم يعلم المهندسون منهم أنهم ما بلغوا مكانتهم السامية إلا لأنهم تعلموا الرياضيات على يديه.

كان هو يريد أن يجيء بنهر الليطاني على عُلُوٍّ كبير حتى تشرب منه قرى كثيرة. وكانت النقطة الرابعة تريد (فيما قيل) أن تجعل مجرى هذا النهر على آنخفاض كبير، ذلك لأن الفائض من مياه ذلك النهر كان يجب أن يذهب في وجه آخر. ولا ضرورة هنا لذكر صورة وفاته المفجعة، لأن تلك الصورة لا صلة لها بموضوعنا الحاضر.

وأستاذٌ ثـانٍ هو محمد عبدالله شبقلو ـ مد الله في عمره ـ هو أستاذ بارع في الكيمياء،علّم الكيمياء في العراق وفي الأردن (باللغة العربية) ثم جاء إلى مدارس المقاصد ليعلم الكيمياء باللغة الإنكليزية. كان الأستاذ محمد شبقلو يسلك في التعليم المسلك الصحيح: كان يعلم الأسس من العلم (وبهذه الأسس كان الطالب يمر بنفسه إلى الفروع). ولم يكن كأولئك الذين يحاولون أن «يحفظ» تلميذهم فروعاً من العلم ينساها بعد قليل ثم لا تراه يذكر شيئاً من مبادىء العلم.

وخطر للأستاذ محمد عبدالله شبقلو أن يعلم الكيمياء باللغة العربية فألف كتاباً باللغة العربية سماه«الكيمياءالأساسية» وطبعه في جزءين (عام ١٩٤٥ وعام ١٩٤٦) وعلمه بضع سنوات. ولكن المدرسة عادت إلى تدريس الكيمياء باللغة الإنكليزية لأسباب لا ضرورة لذكرها الآن.

إن تعليم العلوم باللغة العربية قضيةَ تشغل بال العالم العربي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. ونحن لا نزال في طور اعداد الدراسات لمعرفة كيفية تدريس العلوم باللغة العربية. إن الطريقة الصحيحة هي طريقة محمد عبدالله شبقلو: بدلاً من أن يأتي رجل الاختصاص ويبدي آراء لغير أهل الاختصاص، فعلى هذا الرجل المختص أن يضع كتاباً في الموضوع الذي يحسنه.

والمعلم الثالث الذي أريد أن أضرب به مثلاً هو سليم العُـوَينيّ. ولا حرج أبداً إذا أنا قلت إنّ سليم العـويني كان يعمل (قبل اتخاذ التعليم صنعة له) في أحد مطاعم بيروت. وأنا لا أعلم سبب انتقاله إلى التعليم ولا لماذا جعل يعلم الجغرافية. ولكن الذي أعلمه أن سليم العويني، رحمه الله، كان يعلم هذا العلم لتلاميذه الصغار تعليماً صحيحاً وكان يحبِّب الجغرافية إليهم. وكنت أرى جانباً من

الخرط (ولا تقل الخرائط) التي يرسمها تلاميذه، فإنها كانت جميلة جداً، كما كان فيها عناية ظاهرة. وأظن أنه كان يعلم الخط أيضاً.

ويبدو لي أن سليم العويني لم ينجح في تعليم تلاميذه لأنه كان من علماء الجغرافية، بل لأنه كان يحمل في صدره رسالة العلم، ولو أنه علم التاريخ أو دروس الأشياء مثلاً، لاستفاد تلاميذه منه في ذينك العلمين كما استفادوا منه في تعليم الجغرافية والخط.

١٩٨١/١١/٢ ١٩٨١/١٢/١٩

لَمَحات

لي مُـربّـونَ أيّهُمْ شِئْتَ في النُّصْـ ـحِ حَبـاني من عِلْمِهِ مـا حَباني.

كلّما مــرّ ذِكــرُهُمْ في خَـيــالي جدّدَ الذِّكْرُ والهَوى من حَناني.

بعضُهم قـد مَضَـوْا إلى الله، لكنْ لم أُسُمْهُمْ على البِلى نِسـيــاني.

فـأنــا مــا حَييتُ في هـذه الــدا رِ أُثيبُ المَعــروفَ بـالشُّكــران.

لـو دَرَى الـطَّيْـرَ مـا أُكِنُّ من الحُبْـ ـبِ لَغَنّى بــه على الأغصــان.

١٩٣١

القنّينة الحمراء

السيّدة سليمةُ خطتْ خُطوتين أو ثـلاثَ خُطُواتٍ في أوائل عَشْر الستّين من عُمرها. ولكّنها كانت تريد أن تأكل وتشربَ وأن تلبسَ وتلعَبَ كما كانت تفعل وهي في الثلاثين من العمر.

ذهبت السيّدة سليمةُ إلى الطبيب وقالت له:

يا حكيم، أنا في هذين اليومين أشعـر بشيء من التعب. وكذلـك أرى أن شهوتي للطعام ليست جيّدة. وأحيانا أشعر أيضاً بشيء من عُسر الهضم.

لم يسـألْها الـطبيب شيئاً، فقـد كان يـأتي إلى عيادتـه في كلّ يـوم ثـلاثـةُ أشخاصٍ أو أربعةٌ يشكون مثل هذه الشكوى. تنـاول الطبيب ورقـة وكتب عليها الوصفة التالية بِكَلِماتٍ نصفُها عربيّ ونصفها الآخَرُ غير عربي وبخطّ لا يستـطيع أن يقرأه إلّا الصيدليّ الذي هو في ذلك الحيّ:

شلفاطا السودا	١٠ غرامات
أكوا روزا	٥ غرامات
روح النعنع	نصف غرام
نبيد حلو أحمر	٢٠ غرام
أكوا ديستيلاتا	٣٠٠ غرام

فنجان كلّ ثلاث ساعات.

حملت السيدة سليمةُ هذه الوصفة وأسرعت بها إلى أقرب صيـدلية. ولمّـا آنتهى الصيدلي من تركيب هذا الدواء لم يجد بين يديه قنّينة مناسبة ، لأنّ مقـدار هـذا الدواء كـان أكبر قليـلاً من حجم الأدوية المـألوفـة ٢٠٠ غرام ، فبحث في

جـوانب المختبر فـوجد قنّينـة متوسّـطة الحجم حمراء اللون فـوضـع فيهـا دواء السيّدة سليمةَ. بعدئذ تناول بطاقة عليها اسم الصيدلية فكتب عليها رقم الوصفـة وألصق تلك البطاقة على القنّينة.

جعلت السيّدة سليمةُ تتناول من هذا الدواء بانتظام فتحسّنت حالهـا قليلا. ولمّا انتهى الدواء آحتفظتْ السّيدة سليمة بالقِنّينة. وكانت كلّما شعرت بما كانت تشعـر به قبـل أن ذهبت الى الطبيب أسـرعت بتلك القِنّيـة الى الصيـدليّ فجـدّد الصيدليّ لها الدواء. (لأنّه كان قد نقل الوصفـة في دفتره الكبيـر وجعل لهـا رقماً هو الرقم الذي كتبه على القنّينة).

وبعد بضعة أشهر مرضت سليمة مرضاً آخَرَ. ولم تكن قادرة على الذهـاب الى الطبيب بنفسها فأرسلت حفيدَها الشابَّ ليأتِيَ لها بالطبيب . ووصف الطبيب لسليمةَ علاجاً لمرضها الحاضـر، فأرسلت سليمـة حفيدهـا الشاب ليشتـريَ لها الـدواء من الصيدليـة. وأعدّ الصيـدلي هذا العـلاج المألـوف ثمّ وضعه في قنّينة عاديّة مألوفة بيضاء اللون.

ولكّن السيّدة سليمةَ رفضتْ أن تتناوَل هذا العلاجَ. وقالت لحفيـدها: أنـا لا ينفعُني إلاّ الدواءُ الذي في القِنّينة الحمراء.

كان الحفيد الشابّ يَعْرِف جَدّته ويَعْرِف طِباعَهـا وعاداتِهـا، وكان هـو ذكيًّا أيضاً. فرجَعَ بالدواء الى الصيدليّ وشـرح للصيدليّ أمـرَ جَدّتـه ثمّ رَغِبَ إليه أن يضع هذا العلاج في قِنّينة حمراء اللون.

وبعـد أسبوع شُفِيتِ السيـدة سليمةُ من «الـوافدة» التي كـانت منتشـرة في البلد . فكانت السيّدة سليمة تقول لحفيدِها، مرة بعد مـرّة: أرأيتَ، يا بُنَيَّ. أنـا لا ينفعُني إلاّ الدواء الذي في القنّينة الحمراء.
٨١/١٠/٣٠

الآراء المضيئة والآراء البرّاقة

في هذا البلد نفر كرام مؤمنون عاملون مخلصون. ثم هم فوق ذلك نشيطون. من هؤلاء رجل برقت في ذهنه فكرة بناء جامع كبير في ساحة البرج (من مدينة بيروت) واجتمع إلى هذا الرجل نفر طيبون وسعوا إلى تحقيق هذه الفكرة سعياً حثيثاً نشيطاً.

إن مثل هذا المشروع يحتاج إلى مبالغَ كبيرة ولكن ذلك لم يثبط عزائم هؤلاء النفر الطيبين، فطافوا في بيروت، وطافوا في لبنان، وطافوا في العالم العربي يجمعون المال ووضعوا الخطط والرسوم وبدأوا بهذا العمل الذي يحتاج إلى زمن طويل فوق ما يحتاج إليه من المال الكثير.

واتفق أن رأيت هذا الرجل في نشاطه مراراً وخاطبته تكراراً (فقد كان يوماً ما تلميذاً لي). لقد قلت له: إن بناء مائة مسجد في أنحاء لبنان أجدى، من الناحية الاجتماعية ومن الناحية الدينية أيضاً، من بناء جامع واحد في وسط مدينة بيروت.

إن هذا الرجل كان يصدر عن فكرة براقة، كان هو ورفاقه يريدون أن يقوم في ساحة البرج جامع كبير إلى جانب الكنيسة الكبيرة. إن ساحة البرج شاهد كبير على مكانة بيروت، فلا يجوز أن ينهض فيها معبد مسيحي ثم لا يكون إلى جانبه معبد إسلامي نظير له.

إن سوء الأحوال في لبنان هو الذي يوحي إلى أبنائه (على جانبي طريق الإيمان) بهذه الأفكار البراقة في نفسها.

أظن أنه قد مر الآن على نشاط هذا الرجل ثلاثون سنة أو نحو ذلك.

فماذا حدث؟

- إن المبالغ الكبيرة التي جمعها قد خسرت تسعين في المائة من قوتها الشرائية. وإن المبلغ الذي كان يستطيع أن يبني جامعاً فخماً لا يستطيع اليوم أن يبني مسجداً عادياً.

- إن المشروع الذي كان يمكن تنفيذه في مبان للاستغلال في ذلك المكان من بيروت، كان قد انتهى من مدة بعيدة وأمكن استغلاله مدة ربع قرن على الأقل (قبل بدء الحوادث الأخيرة المحزنة).

- إن هذا المشروع لم يكن بالامكان أن يتم لأن الدولة اللبنانية (أو الغرفة السوداء في الدولة اللبنانية) لا ترضى عن مثل هذا المشروع في مكان ما في لبنان، فضلاً عن ساحة البرج في مدينة بيروت.

- وعلى صعيد المشروع نفسه: لم يقم هذا الجامع في ذلك المكان، ولا بقيت الكنيسة التي كانت قائمة في ذلك المكان منذ مائة عام أو نحو ذلك.

- ولو أن ذلك الرجل أقام في أنحاء لبنان مائة مسجد منذ ثلاثين عاماً لكان قد أدى بين المسلمين في لبنان رسالة يعجز الفكر الآن عن تخيُّلها.

١٩٨١/٤/٦

حينما يجلس الإنسان إلى مائدة ليتناول غذاءه، يحسن به أن يميز الطعام الذي ينفع جسمه ويحفظ عليه حياته ونشاطه، من تلك الألوان التي تسر العين بمنظرها ويسر الفم بمضغها.

١٩٨١/٤/٢٥

بالصبر وحدَه تحمل الماء في منخل

كان لرجل جار صوفي، وكان كثيراً ما يسمع ذلك الجار يقول: «بالصبر تستطيع أن تفعل كل شيء». ففي يوم من الأيام قال ذلك الرجل لهذا الجار: «أسمعك دائماً تقول: بالصبر تستطيع أن تفعل كل شيء، فهل تستطيع بالصبر أن تحمل الماء في منخل؟ فقال له جاره الصوفي: «نعم، إذا صبرت على الماء حتى يجمد».

في عام ١٩٤٣ صدر لي دراسة صغيرة عنوانها «ابن الرومي». وابن الرومي شاعر عباسي ميزته الكبرى والخاصة كانت البراعةَ في الوصف، وكان تعليل هذه الميزة البارزة عند ابن الرومي والنادرة في الأدب العربي بعيداً عن المألوف. فما كان الموقف اللازم من ذلك؟

لما نقل سليمان البستاني (ت ١٩٢٥) إلياذة هوميروس إلى اللغة العربية ثم جعل لها مقدمة طويلة قيّمة وعرض فيها للأدب وللشعر خاصة عند الروم (اليونان) وعند العرب مرّ بالوصف عند ابن الرومي وأراد أن يعلّل براعة آبن الرومي في هذا الفن فقال إن ابن الرومي ورث تلك البراعة عن أسلافه اليونان، إذ كان الوصف فناً شائعاً في الشعر اليوناني.

هذا بلا ريب خطأ. إن الأفراد يرثون من أسلافهم خصائصهم الطبيعية: حجم أجسامهم ولون البشَرة (بفتح الشين) وشكل الأنف وفصيلة الدم والاستعداد للأمراض، ولكن لا يرثون الاختبار الإنساني، فالاختبار الإنساني ينتقل باحتكاك الإنسان بما حوله (من البيئة الطبيعية) وبمن حوله (من البيئة الاجتماعية).

ثم جاء بطرس البستاني صاحب كتاب «أدباء العرب» (ت ١٩٦٩) فأعجب

بتعليل نسيبه سليمان ونقل ذلك التعليل لبراعة ابن الرومي في الوصف من «مقدمة الإلياذة» إلى كتابه «أدباء العرب» . كان بطرس البستاني شديد الإعجاب بنسيبه سليمان فقال مرة في كتابه هذا: «لو أن الدولة العثمانية سمعت نصيحة سليمان البستاني لما هزمت في الحرب العالمية الأولى ولما سقطت» أو شيئاً من هذا القبيل.

وفي عام ١٩٢٥ كان العقاد عضواً في مجلس النواب المصري فقال في إحدى مناقشاته: نحن نستطيع أن نكسر أكبر رأس في البلد. وأكبر رأس في البلد كان الملك فؤاد. فدخل العقاد السجن من أجل ذلك. وفي السجن (١٩٢٦؟) ألف العقاد كتابه القيم «ابن الرومي من شعره».

ونقل عبّاس محمود العقّاد جملة سليمان البستاني في كتابه.

ولما نشرت أنا دراستي القصيرة في ابن الرومي قلت في «الكلمة الأولى»: لقد غفل البستانيان والعقاد عن طبيعة الاجتماع وفاتهما كثير من حقائق التاريخ وأسس الأدب، لأن الوراثة العِرقية تترك آثاراً في الجسد لا في الأمور الاجتماعية (إن الطفل الصيني إذا ربّته أسرة فرنسية نشأ يتكلم اللغة الفرنسية ويسلك السلوك الفرنسي ثم لا تراه يتكلم اللغة الصينية). وكنت أنا في جملتي السالفة قدِ آعتمدت بحوثاً للعالم الاجتماعي ساطع الحصري (ت ١٩٦٨) في مجلته «مجلة التربية والتعليم» - وكان قد نشر فيها مقالات كثيرة تتناول تلك القضية من ناحيتها الاجتماعية ومن ناحية التربية أيضاً.

ويبدو إن العقاد لم ير دراستي إلا متأخراً. فنشر في مجلة الرسالة المصرية (١٩٤٦/٧/٢٣)، مقالاً آفتتاحياً عنوانه «حقوق المناقشة» خصّني منه بستة وسبعين سطراً منها : وصلت إلينا من هذا الفروخ... ثم تناول هذا الفروخ قلمه الأحمر... ثم رفع هذا الغر مقرعته... الخ.

كان بإمكاني طبعاً أن أرد على العقاد بمثل كلامه أو أكثر، ولكني لم أفعل. لعل جملتي كانت قاسية، لعل العقاد كان ساعة قرأ جملتي في حال نافرة، لعل أحداً حمل إليه دراستي وشفعها بعدد من الكلمات. وعلى كل حال «لم تكن جملتي تستحق مقالاً آفتتاحياً من عباس محمود العقاد في مجلة الرسالة المصرية وهي يومذاك في ذروة قوّتها وآنتشـارها.

وفي عام ١٩٦٠ جرى آختيار أستاذي أنيس المقدسي واختياري عضوين في مجمع اللغة العربية في القاهرة. وكانت المناقشات تدور في جلسات المجمع من غير أن أتوجه بملاحظة إلى العقاد أو يتوجه العقاد بملاحظة إليّ.

وبعد بضع سنوات تقدم طه حسين ـ وكان في ذلك الحين رئيساً للمجمع ـ باقتراح يطلب فيه إضافة أحرف على الأبجدية العربية. فنهضت أنا أسأل عن سبب ذلك فقال لي طه حسين (بالحرف الواحد): إذا لم تكن عندنا هذه الأحرف الزائدة فكيف نكتب آسماً أجنبياً مثل آسم «فيكتور هيجو» باللغة العربية كتابة صحيحة؟

فقلت أنا: لو فرضنا جدلاً أن زيادة الأحرف التي تقترحها تحل مشكلة الأسماء في اللغة الفرنسية، وهذا غير صحيح، فكيف نحل مشكلة الأسماء من اللغة التركية والفارسية والإنكليزية والألمانية والاسبانية والصينية... ثم طلبت التصويت على اقتراح لي بصرف النظر عن آقتـراح طه حسين.

وخذل آقتراحي في التصويت.

عندئذ نهض عباس محمود العقاد بقامته الفارعة وصوته الهادىء الرصين وقال: فلان على حق، فلا يجوز أن نفتح ثغرة في اللغة العربية مثل هذه الثغرة. فقيل له إن هذا الاقتراح ليس ابن ساعته الآن، ولكنه آقتراح لجنة رئيسها طه حسين.

قال العقاد: وما قيمة ذلك؟ نُعينُّ لَجنةً ثانية. نجح دفاع العقاد فأُعيدَ التصويت وسقط الآقتراح بإدخال أحرف غريبة على الأبجدية العربية.

وآنتهت تلك الجلسة وآلتقينا في باحة المجمع فتصافحنا واعتنقنا وتصافينا.

إن عشرين سنة من الصمت لم تذهب سدى.

والآن، قد بقيت جملتي في مقدمة كتابي، وبقيت مقالة العقاد في مجلة الرسالة على حالها. ولكن اللغة العربية نجت من اقتراح ما كان أحد ـ إلا الله تعالى ـ يعلم إلى أين تنتهي آثاره، لو أن مجمع اللغة العربية في القاهرة أخذ باقتراح طه حسين.

١٩٨٠/١١/١

لَمَحات: من شكسبير

يَحْمِلُ النَّوْمُ للمَنِيَّةِ شِبْهاً — وتموتُ الأجسامُ كُلَّ عَشِيَّهْ.

تَرقُدُ النَّفسُ من لُغوبٍ مساءً — فتراها عند الصَّباحِ قَوِيَّةْ

المعلم.. والمعلم الموظف

ما زلت في هذه الزاوية من غبار الزمن منذ عام أو يزيد ولم أعرض لحياتي في مدارس المقاصد.. مع أن المقصود من هذه «القطع» أن تؤلف حلَقات (بفتح اللام) من سلسلة حياتي. غير أن إدراكك لهذه الحلْقة (بسكون اللام) سيكون أوضح إذا أنا بدأت بالقصة التالية في المعلمِ المعلمِ وفي المعلم الموظف:

في إحدى السنوات أراد «المدير» التشديد فقرر ألا يقبل في صف الرياضيات إلا من نال في الرياضيات (في امتحان البكالوريا الأولى) أربع عشرة علامة من عشرين. وكلّف المدير أحدنا (وسأسميه الأستاذ أحمد) تسجيل الطلاب لصف الرياضيات على هذا الأساس.

وأتيت لتسجيل آبني البكر في صف الرياضيات (وهو تلميذ في مدارس المقاصد منذ دخل المدرسة). فقال لي الأستاذ أحمد: لا أسجله حتى أعلم أنه نال في البكالوريا الأولى أربع عشرة علامة في الرياضيات. فقلت له: إنه قد نال عشرين على عشرين. فأصرّ الأستاذ أحمد على أن آتِيَهُ بإفادة رسمية. فقلت له: يا أحمد (وكنا صديقين ورفيقين منذ كنا في الدائرة الاستعدادية من الجامعة الأميركية)، أنا منذ عام ١٩٣٢ أصحّح في البكالوريا وأنا من الذين يوقّعون جداول العلامات. فردّ على كلامي بهذه الجملة: كذلك قال المدير.

ذهبت إلى وزارة التربية ورجعت بالإفادة المطلوبة.

وبعد يومين كان الأستاذ أحمد يسجّل لصف الرياضيات طلاباً نالوا ثماني علامات في الرياضيات فقط وبلا إفادة. فلما عاتبته في ذلك قال لي: كذلك قال المدير.

جئت إلى مدارس المقاصد عام ١٩٢٩ فأُرسلت إلى مدرسة البنين الثانية.

كانت جميع مدارس المقاصد في ذلك الحين (وهي أربع أو خمس) ابتدائية وكان عبد الله المشنوق مديراً لمدرسة البنين الأولى (في الحرج) ومفتشاً لمدارس المقاصد. وكان عبد الله المشنوق يريد أن يرتقي بمدارس المقاصد إلى المرحلة الثانوية. وقد كان في المقاصد، منذ ذلك الحين، أساتذة أهل للتعليم الثانوي. وبدأت الحركة منذ ذلك الحين. ولم تنظر جمعية المقاصد إلى ذلك بعين الرضا. وكنا نفهم لبّ المشكلة. إن مدارس المقاصد أنشئت (منذ مائة وخمسة أعوام) للتعليم الابتدائي. ثم أن التعليم الثانوي يلقي على عاتق الجمعية أعباء مالية ويلقي على عاتق أعضاء الجمعية واجبات فنية وإدارية. وكان المعلم في ذلك الحين يدرس اثنتين وثلاثين حصة في الأسبوع. وقد كنت أنا أدرّس اللغة العربية والحساب والتاريخ واللغة الانكليزية (استعداداً لإدخال اللغة الانكليزية في مدارسنا).

في صباح يوم من الأيام جاء الشيخ مصطفى نجا (وهو مفتي مدينة بيروت ورئيس جمعية المقاصد) إلى المدرسة وسألني ماذا تعلّم، يا عمر (وكان بين أسرتنا وأسرته معرفة وجوار). فأخبرته. فقال لي: اللغة العربية والحساب نعم. التاريخ واللغة الانكليزية، لا. هذا مخالف لشرط الواقف (أي شروط الذين أسّسوا جمعية المقاصد). غير أننا استطعنا إقناع الشيخ مصطفى نجا بضرورة الرقي بمدارسنا، فإننا أصبحنا نحتاج إلى أكثر مما كنا نحتاج إليه قبل مائة عام.

وفي العام التالي (١٩٣٠) نقلني عبدالله المشنوق إلى مدرسة البنين الأولى وأخذنا نتابع الجهد وكان الجهد يسيراً في السنوات الأولى. وأبصر الشيخ مصطفى نجا قبل وفاته (١٩٣٢) صفين ثانويين أو ثلاثة.

ولكن لما أردنا إنشاء صف الفلسفة لم توافق الجمعية على إنشائه (لأنه ـ في حسابها كان يكلّف ثمانية آلاف ليرة: الفا وخمسمائة ليرة ذهبية اليوم أو سبعمائة ألف ليرة). وكان طالبو الدخول في هذا الصف ثلاثة أو أربعة.

ولكننا أنشأنا الصف (في حديث طويل) ودرّسنا فيه المواد الأساسية في امتحانات البكالوريا (اللغة العربية واللغة الفرنسية والرياضيات): درستها أنا وجان حاكيتي ومواهب فاخوري.

غضب أعضاء الجمعية وقطعوا رواتبنا (حتى على الدروس التي كنا ندرسها في الصفوف الباقية). وفي آخر العام كان في هذا الصف آثنا عَشَرَ تلميذاً بيّضوا وجه المدرسة ووجه الجمعية ونفعوا أمتهم (نسيت أن أقول لك: إن الجمعية عادت فدفعت لنا رواتبنا كلها بعد ثلاثة أشهر من قطعها).

في العام التالي (١٩٣٥) نال تلاميذ المقاصد ثلث الشهادات الرسمية (في الامتحانات الرسمية الأربعة: الابتدائية، الكفاية، البكالوريا والأولى والثانية).

وتسألني الآن: وما صلة القصة التي جاءت في صدر هذا المقال بهذا المقال نفسه؟

نحن الثلاثةَ كان لنا دخل إضافي غير راتب التعليم في مدارس المقاصد. إن الإصلاح يحتاج إلى سلاح. وسلاح الإصلاح: العلم والجرأة والمال.

١٩٨١/٩/٦ ١٩٨١/١٠/٣

أصدقاؤنا الاطباء (٣)

في هذه الكلمة صورة واضحة لأثر الصداقة بين الطبيب والمريض.

قلت في كلمة سابقة إنني كنت أذهب إلى الدكتور ألفرد دياب مرة في كل شهرين. ذهبت إليه مرة ـ في غير الموعد الرتيب ـ وقلت له: هذه النظارة أصبحت غير صالحة، فأريد أن تبدّلها لي.

أخذ الدكتور دياب النظارة مني ففحصها. ثم فحص عَيْنَيَّ بالعناية المعروفة عنه. ثم التفت إلي وقال: هذه النظارة لا تزال صالحة. ولا ضرورة لتبديلها. فقلت له: ولكني أرى الحرف بها مفصولاً حرفين. فقال: ليس في الفحص الذي أجريته الساعة دليل على ذلك.

فقلت له مازحاً (للصداقة التي بيننا): إن لم تبدل النظارة لي، ذهبت إلى طبيب آخر. فقال لي: اذهب إلى طبيب آخر.

خرجت غير راض، ولكن لم أكن غاضباً.

وبعد يومين لم يَبْقَ في النظارتين ما يدعو إلى الشكوى منهما. فعُدت إليه معتذراً أقول له: منذ يومين (يوم جئت إليك) كنت أشكو من النظارتين. أما الآن فليس لي شكوى منهما.

فقال لي: يا عمر، العينان جزء من هذا الجسم الإنساني، وما يصيب هذا الجسم يصيب العينين أيضاً. يبدو أنه كان (في اليومين الماضيين) قد حدث شيء من الاضطراب في جسمك ترك أثراً عارضاً موقتاً في عينيك. فظننت أن الشكوى من عينيك. أما الآن فقد زال الاضطراب من جسمك، فزال من عينيك أيضاً.

١٩٨١/٧/٦ ١٩٨١/٨/١٥

شاعران صعلوكان

إن نفراً من الناس يخافون من الألفاظ أو يطمئنون إلى الألفاظ. هنالك في كل لغة ألفاظ طنّانة رائعة تقع في الآذان ثم تنفذ إلى النفوس نفوذاً قوياً: استبداد ـ القوى العالمية ـ وسام البطولة ـ طائفية ـ علمانية ـ ديمقراطية، الخ.. وفي كثير من الأحيان يستجيب الفرد إلى وقع هذه الكلمات من غير أن يكون عارفاً بمعناها. هنالك كثيرون يقولون: أقسم فلان يميناً غموساً، وهم يقصدون أنه أقسم يميناً عظيمة موكدة (بينما اليمين الغموس هي اليمين الكاذبة).

أعرف نفراً لا يحبون الشَنفري (بفتح الشين) وتأبط شراً ـ وهما شاعران صُعلوكان (بضم الصاد)، أي فقيران، لأن لقبيهما غريبان في آذانهم.

الشنفري شاعر جاهلي قديم آسمه عمرو بن مالك، وكان شاعراً فقيراً شريداً، ولكنه حاذق وداهية. وقد كان عداء (سريعاً في ركضه)، قيل لا تلحقه الخيل. وكان قفّازاً قيست قفزة من قفزاته فكانت واحدة وعشرين خطوة (أو ثمانية أمتار ونصف متر، وكان ذلك هو الرقم القياسي في اولمبياد برلين عام ١٩٣٦).

للشنفري شعر كثير منه الأبيات التالية (الذام: العيب):

وإن مُدَّتِ الأيدي إلى الزاد لم اكن ... بأعجلهم، إذ أجشع القوم أعجل:
أديم مطال الجوع حتى أميته، ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل.
وأستف ترب الارض كيلا يرى له ... علي من الفضل امرؤ متفضل.
ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب، ... يعاش به، إلا لدى ومأكل.
ولكن نفساً مرة لا تقيم بي ... علي الذل إلا ريثما أتحول.

وتأبط شراً أيضاً شاعر جاهلي قديم اسمه ثابت بن جابر. وكان أيضاً صعلوكاً بائساً فقيراً كثير الشعر. وكذلك كان عداء يصطاد الظباء ركضاً على رجليه. والشنفري خاله.

وتأبط شراً ـ مع تشرُّره ـ كريم النفس بعيد الهمة. من شعره (سدد: قوم. خلالك. حاجتك. الذي كل امرىء لاق: الموت):

سدِّدْ خِلالك من مالٍ تجمَعه	حتى تلاقي الذي كل امرىء لاق.
لَتَقْرَعَنّ علي السن من ندم	إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي.

ملحق: قصة من غبار السنين:

زرت صديقاً فوجدته يتمتم. فقلت له: ما تفعل؟ قال أسبح الله. قلت (بالضم، أو المسبحة بالكسر) ما بالُها؟ فقال: أعدّ عليها تسبيحي، فأنا أسبح الله بعد كل صلاة ألفَ مرة. فقلت: عجباً. أنعم الله عليك بالصِّحة والمال والسرور والمكانة بين الناس وبالأهل والأصدقاء بلا حساب. ثم تأتي أنت تحرك شفتيك بكَلِمات تسبحه بها وتعدّها عليه.

١٩٨٠/٩/٣٠

السمن والعسل

إذا أنا نظرت إلى حياتي في المقاصد (منذ ١٩٢٩) بالعين التي ينظر بها عامة الناس والموظفون منهم في سلك التعليم، لم أر حياتيَ من سمن وعسل. ولكن إذا أنا نظرت إليها بعيني أنا وبالعين التي تميز (بفتح وكسر بلا تشديد) الصحيح من غيره، فإن حياتي كلها كانت (في المقاصد) سمناً وعسلاً وقمحاً وماء ولؤلؤاً وذهباً.

حينما تكون في مؤسسة مدة تشهد في أثنائها خمسة رؤساءَ وعشرات المديرين ومئات الأعضاء وألوف المعلمين وعشرات ألوف التلاميذ ومئات ألوفهم، فليس من المعقول ولا من المنتظر أن تكون آراؤك وآراء هؤلاء في كل شيء واحدة. ولا تعجب إذا قلت لك إن هذا الاختلاف كان يصل أحياناً إلى حدود فاصلة. في أحد الملفات عندي رسالة منها هذه الأسطر.

«وسواء وقعتم الارتباط الحالي أم لم توقعوه، فالسنة المدرسية الحالية تنتهي في نهاية شهر أيلول ١٩٥٦. وللجمعية عندها ملء الحق في تجديد التعاقد معكم أو عدمه.. (التاريخ): ١٩٥٥/١٢/٢٢، (العدد): ٢٤٧٢، (الامضاء): أنيس النصولي، رئيس لجنة المدارس».

لا فائدة من أن أخبرك بمناسبة هذه الرسالة، لأن السبب الصحيح شيء آخر. كان الأمر متعلقاً بنشاط المعلمين. كانوا يعتقدون أن قانون المعلمين سيحمّل الجمعية أعباء مالية باهظة. ذهبت مرة إلى الأستاذ أنيس النصولي فجعل يجادلني في الرواتب الجديدة ويعاتبني. فقلت له: ليست ميزانية الجمعية أمامي، ولكني سأسرد عليك هذه الأرقام من ذاكرتي: تدفع الجمعية لفلان كذا (وحقه في القانون أقل من ذلك) وتدفع الجمعية راتب فلان كذا... حتى جمعت له مبلغاً ضخماً يمكن الجمعية أن توفره لو طبقت القانون على معلميها.

ثم زاد هذا الاختلاف لما صدر قانون التعويضات، وكنت أنا من أعضاء النقابة الذين أصروا على أن يكون الصرف من الخدمة بقانون واضح وأن تتحمل الدولة تعويضات الصرف. فقلت لأحدهم: حسبتك ستسر من ذلك، فإن تعويضات الصرف من الخدمة تؤلف مبالغ كبيرة تنوء بها ميزانية كل مدرسة خاصة . ولكن جوابه لي كان: «بذلك يفلت المعلم من يدنا» (لأن تعويض الصرف، إذا كان من المدرسة، فالمدرسة تستطيع أن «تعامل» المعلم كما تريد هي - ولو أدى ذلك إلى اثقال ميزانية المدرسة بمبالغ كبيرة).

لما صححت الرواتب بحسب القانون أرسلت الجمعية إلى الأساتذة إعلاماً برواتبهم الجديدة. ونظرت إلى راتبي فوجدته يزيد مائة ليرة. ذهبت إلى أمين الصندوق (سعد الدين جمال الدين، رحمه الله) وقلت له: هذا الراتب يزيد عما يقره القانون، ودللته على موضع الخطأ. لقد حسب أمين الصندوق راتبي على أساس «شهادة الدكتوراه» منذ ارتباطي مع الجمعية (عام ١٩٢٩)، بينما أنا قد نلت الدكتوراه عام ١٩٣٧ . فحسبان الراتب على الشهادة يجب أن يبدأ من عام سبعة وثلاثين لا من عام تسعة وعشرين. فقال لي السيد سعد الدين، كذلك عاملنا فلاناً وفلاناً، وأحد هؤلاء جاء إلى التعليم في المقاصد عام ١٩٢٢ ونال شهادة الدكتوراه عام ١٩٤٦ أو بعد ذلك.

فقلت له: هذا يجوز لكم، فإن الراتب المقرر في القانون هو الحد الأدنى، ويجوز لكل مؤسسة أن تدفع لمعلميها ما تشاء من الزيادة فوق هذا الحد الأدنى. أما أنا - وقد اشتركت في وضع القانون (مع نفر من أعضاء نقابة المعلّمين) ثمّ دافعت عنه (برفقة زميلي الدكتور موسى سليمان) في اللجنة القضائية اللبنانية، فلا يجوز لي أن أتناول إلا ما يقره القانون من الحد الأدنى، حتى إذا احتكم إليّ معلم في أمر راتبه استطعت إن أبدي في ذلك رأياً حراً.

أريد أن تعرف ما كلفني هذا الرأي. لقد بلغت السن القانونية بعد تلك الحادثة بعشرين سنة. وسأفرض أن راتبي في عشرين سنة لم يتبدل، فمعنى ذلك أنني قد أضعت أربعة وعشرين ألف ليرة (في مائتي وأربعين شهراً) ثم خمسة وسبعين ألفَ ليرة في تعويض انتهاء مدة الخدمة في الملاك.

كان بإمكاني في ذلك الحين أن أسكت فلا يضيع علي مائة ألف ليرة، ولكن كان يضيع علي حرية الحكم في الأمور أو ـ إذا أنا حكمت حكماً حراً ـ لا يسمع قولي في مثل ذلك الحكم.

١٩٨١/٩/٦ ١٩٨١/١٠/١٧

ذاك شـوقي ما قُلْتُ فيـه بظَنٍ، إنّمـا قُلْتُ فيـه بـالإيقـانِ.
كـان في مِصْرَ مَفْـرِقانِ وتـاجـا نِ وأُفْـقٌ في ظِـلّهِ عـرشـانِ:
قُـبّـةٌ تَنْـزِلُ الـمُلوكُ إلَـيْـهـا كالدّراري وكَرْمَةٌ لآبنِ هـاني.

١٩٣٢

أصدقاؤنا الأطباء (٢)

منذ رزقت الولد الأول (عام ١٩٤٤) كنت أذهب به وبإخوته من بعدُ إلى الطبيب (الدكتور حسن ادريس، رحمه الله) بصورة رتيبة (مرة في كل شهر). وفي أول الأمر (مع ولد واحد او وَلَدَين) كان الأمر هيناً. ولكن لما أصبح الأولاد خمسة أصبح في ذلك شيء من الصعوبة.

في إحدى زوراتي بالأولاد إلى عيادته قلت له، لما بيننا من المعرفة (بدأنا العلم الابتدائي في مدرسة رأس بيروت، ثم تابعنا التحصيل في الجامعة الأميركية): في كل شهر مرة، هذا كثير. هناك آباء لا يَعْرِضون أولادهم على الطبيب...

فقال لي: كم رزقت من الأولاد؟ قلت له: خمسة. فقال: وكم هم الآن؟ قلت له: خمسة، بحمد الله.

دخلنا عليه مرة (أنا والسيدة والأولاد، كما كانت عادتنا) فوجدتُه منفعلاً جداً. ثم ابتدرنا بالكلام: أرأيتم السيدة التي كانت الآن خارجةً من عندي؟ قلت له: نعم. قال: جاءت إلي بطفلها منذ أربعة أيام. ثم جاءت به الآن تقول لي: إن حالته قد ساءت كثيراً.

قال: فسألتها: هل أطعمته الأطعمة التي نصحت لك بها؟ فأجابت: لا. فَعُدتُّ أسألها: هل ناولته الأدوية التي وصفتها لك؟ فأجابت أيضاً: لا.

ثم قال: فماذا تريد مني أن أفعل؟

* * *

والشيء بالشيء يذكر.

كنت أذهب مرة في كل شهرين إلى الدكتور الفرد دياب من أجل عَيْنَيَّ

(للنظارات). والدكتور دياب (رحمه الله) صديقي وابن صفي ـ وله في هذه السلسلة كلمة خاصة.

في إحدى زوراتي له في عيادته في مستشفى الجامعة الأميركية، آبتدرني قائلاً: أرأيت هذا الذي كان خارجاً الساعةَ من عندي؟ قلت: نعم، رأيته. قال: هو فلان (من أسرة كبيرة وجيهة غنية). ثم استمر في حديثه فقال: جاء إلي ومعه كتاب توصية من فلان (من كبار التجار في لبنان وغير لبنان ومن كبار الذين اشتغلوا بالسياسة عندنا وعند الذين حولنا، وهو أيضاً ابن صفنا وصديق لنا معاً).

ثم قال الدكتور دياب هذه الكلمات بالحرف الواحد: «لقدِ آنتظروا حتى عَمِيَ ثم أرسلوه إلي مع كتاب توصية».

٨١/٧/٦ ١٩٨١/٨/٨

الملعونة الصغيرة

تعود قوم أن يمازحوا واحداً منهم ، يظنون ان فيه شيئاً من البله . فقالوا له يوما ـ وبين أيديهم بطيخة كبيرة : أتستطيع أن تأكل هذه البطيخة؟

نظر إلى البطيخة ملياً ثم قال لهم : اسمحوا لي أن أغيب ساعة ثم أرجع اليكم . وبعد ساعة عاد إليهم وقال لهم : نعم، استطيع أن آكلها . وفعلاً أكل تلك البطيخة الكبيرة .

وسأله أحدهم : ما فعلت حينما غبت عنا ساعة؟ فقال : كان عندي في البيت بطيخة كبيرة مثلها، فذهبت وجربت نفسي فيها .

أن القوم الذين ظنوا أن في هذا الرجل شيئاً من البله كانوا مخطئين : انه كان عاقلا جدا .

قبل أن نرسل طلابنا إلى البكالوريا نجري لهم تجربة تشبه امتحان البكالوريا تماما . وقبل أن يظهر الممثلون على المسرح أمام الجمهور يقومون على ذلك المسرح نفسه (بينهم وبين أنفسهم) بتجربة ما يريدون أن يقوموا به أمام الجمهور . وقبل أن يذهب البطل الرياضي إلى دورة الألعاب الالومبية أمام العالم الدولي يقوم في بلده بالعمل الرياضي الذي ينوي القيام به في الدورة الالومبية . وقبل أن تذهب فرقة من الجنود لخوض معركة مع العدو تقوم (في بلدها) بمناورة بالذخيرة الحية .

محاورة

كنت مرة أتحدَّث إلى رجل، وكان يدخن كثيراً وينفث من فيه دخاناً كثيفاً حتى امتلأ جوّ الغرفة بدخان سيكارته. ثم لمح على وجهي شيئاً من التأفف، فقال لي:

- يبدو انك لا تحب السيكارة.
- لا احبها لا احب الذي يحبها.
- وما ذنب الذي يحبها؟.
- انني لا استطيع أن احب انساناً لا يحب نفسه.
- ومن قال لك إنني لا أحب نفسي؟
- ارجو ان تسمح لي بسؤال: أهذه السيكارة نافعة او مضرة؟
- انها مضرة جداً لعنها الله ولعن الساعة التي تعلمت فيها تدخين السكاير.
- فلماذا لا تترك التدخين ما دام التدخين مضراً بك؟

فسحب الرجل من سيكارته نفساً عميقاً طويلاً ثم قال:

- ما أفعل؟ أنا لا استطيع أن أتغلب على هذه الملعونة الصغيرة.

فقلت له:

- أنت تقرّ بيني وبينك أنك لا تستطيع ان تتغلب على هذه الملعونة الصغيرة. فلماذا تنادي دائماً بالقدرة على التغلب على تلك الملعونة الكبيرة؟

٢٧/٩/١٩٨٠ (ص ١٠)

أصدقاؤنا الأطباء (١)

نشأت في أسرة تحب الأطباء، فتسرع إلى استدعائهم، أو تسرع في الذهاب إليهم (بحسب حال المحتاج إلى الاستشارة الطبية). وفي كثير من الأحيان لم يكن لهذه السرعة مُسَوِّغ، وفي بعضها لم يكن هنالك حاجة إلى الطبيب. ولكن في عدد من الأحيان كانت تلك السرعة منجاة من خطر أكيد: في عام ١٩٣٨ تركت الصف الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، وذهبت إلى الطبيب الذي نقلني بسيارته إلى المستشفى، ثم أجريت العملية قبل أن تغيب الشمس، فهذه مرة تقوم مقام جميع المرات التي ذهبت فيها إلى الطبيب، بلا ضرورة تدعو إلى ذلك.

والطبيب العظيم أبو بكر الرازي (ت ٣٢١ هـ = ٩٢٤ م) ينصحك بأن يكون لك طبيب واحد (طبيب للأسرة)، ذلك لأن كل طبيب تذهب إليه للمرة الأولى (في الطب الباطني خاصة) يجرب معَرفته فيك. فمن الأولى لك ـ كما يقول الرازي ـ أنْ تقع في خطأ طبيب واحد مرة واحدة في حياتك، من أن تقع كل يوم في خطأ كل طبيب.

وفائدة الطبيب الواحد لا خفاء فيها. ـ ثم لا بد من أن يكون الطبيب صديقاً لك (لأنه حينئذ يعرف جسمك وعاداتك وأحوالك المعاشية) فتكون إصابته في تشخيص مرضك أكثر وأحسن.

● منذ خمس وعشرين سنة أو تزيد ظهرت نملة (حكاك ـ بالضم ـ أو اكزيما) في ساعدي الأيسر، ذهبت إلى الدكتور جورج خبصة (فهو اختصاصي في فنه ثم صديق). نظر فيها وقال: نعالجها بجلسات كهرباء. وعولجت النملة واختفت أعراضها. ولكن بعد بضعة أشهر عادت في ساقي اليمنى. فذهب إلى الدكتور خبصة وعُدْنا إلى معالجة النملة بالكهرباء. ولكنها عادت من جديد إلى ساعدي الأيسر، ثم إلى ساقي اليمنى . وهكذا دواليك، بضعة أعوام.

ولقيته مرة في البريد (وكثيراً ما كنا نلتقي في البريد أو في الطريق من البريد أو إليه، فهو عنده صندوق بريد يفتحه كل يوم، وأنا عندي صندوق بريد أيضاً)، قلت له: هذه قد عادت. فقال لي: اَحْضُرْ إلى العيادة لجلسة من الكهرباء. فقلت له (لما بيننا من المعرفة والصداقة): ما قولك في أن أجرب أن أنسى أنّ في ساعدي نملة؟ قال: فهل تستطيع ذلك؟ قلت: أجرب.

وجربت ذلك، ونجحت التجربة (وقد كانت الأيام الأولى صعبة). ثم اختفت، فأخبرته بذلك فسر كثيراً. عندئذ سألته (بعامل الصداقة التي بيننا والاحترام المتبادل): لماذا لا تنصح جميع المصابين بالنملة بأن يفعلوا ذلك؟

فقال:

هنالك أحوال مختلفة من النملة،

ثم إن الناس لا يصدقون النصائح.

ثم إن الذين يصدقون النصائح لا يستطيعون أن يعملوا بها إلا في النادر.

ثم ـ من الناحية النفسية ـ إن المريض العادي حينما يأتي إلى الطبيب يتخيل أنه سيخرج من عند الطبيب وفي يده «وصفة». فإذا لم تكن هذه الوصفة في يده خاب ظنه، ولم يدر ما يجب عليه أن يفعل. وربما كان ذلك أشد عليه من المرض.

هذه واحدة، وسأحاول في ثلاث مرات قادمة أو أربع أن أتكلم ـ في كل مرة ـ على طبيب واحد. ولكن سأتكلم على الأطباء الذين غادروا هذه الحياة الدنيا كيلا يكون كلامي «اعلاناً»، وكيلا يطمع نفر من الناس بالأطباء الذين لا يزالون أحياء ـ أطال الله أعمارهم ـ فيعمد هذا النفر من الناس إلى آستغلال تلك الطيبة في نفوس الأطباء.

٨١/٧/٦ ١٩٨١/٨/١

الحيطان لا تنسى

كل من يقرأ جريدتين في كل يوم أو أكثر من جريدتين يعرف أن الخبر الواحد قد ينشر في اليوم الواحد على شكلين مختلفين. وقد تنشر الجريدة الواحدة خبراً واحداً، في يومين مختلفين بعيداً بعضهما من بعض أو قريباً بعضهما من بعض، على شكلين مختلفين أيضاً.

في عام ١٩٥٨ ألفت كتاباً من «الوثائق السياسية» (من تصريحات رجال السياسة): كنت آتي بالتصريح منسوباً إلى صاحبه ومأخوذاً من جريدة بعينها (أو من عدد من الجرائد) مع ذكر تاريخ الجريدة وأرقام صفحاتها. أخذت تلك التصريحات وسردتها سرداً واضحاً بحسب موضوعاتها. كان الرجل السياسي أو الزعيم الوطني أو الرئيس الاجتماعي يدلي ذات يوم بتصريح معين. وبعد قليل (وربما في اليوم التالي) يدلي بتصريح يخالفه أو يناقضه. واختلطت في هذه التصريحات جميع المواقف: الشرق بالغرب والشمال بالجنوب واليمين بالشمال والحرب بالسلم والسياسة الداخلية بالسياسة الخارجية... ولم يكن لي في تأليف هذا الكتاب إلا جمع تلك التصريحات وترتيبها.

وعرضت الكتاب على الناشر، فلم يرض أن ينشره.

وتطورت «فلسفة الإعلام» وأدرك كثيرون أن جماهير الناس لا يشترون الجرائد.

وبدأت الحيطان في لبنان تقوم مقام الجرائد: جميع الآراء التي كانت تظهر في الجرائد أصبحت تنشر (مختصرة) على الحيطان. وتجمع على الحيطان تصريحات وتوجيهات بالدهان الاسود والدهان الاحمر والدهان الازرق مختلفة الأشكال والأنواع. وربما جاءت جماعة فمحت عن الجدران ما كانت جماعة أخرى قد كتبته

على تلك الجدران. ولكن المحو لم يكن دائماً صحيحاً أو تاماً.

والسائرُ اليومَ مِنَ العَبْدة (الحدِّ الشّماليِّ من لُبنانَ) إلى الناقورة (الحدِّ الجَنوبيّ من لُبنانَ)، ومن بَيْروتَ (الحدّ الغَربيّ من لبنان) إلى المصَنع (الحدّ الشّرقيّ من لبنان) يرى تلك «التّصريحاتِ» على الحيطان.

وعجبت من أمر آخر:

كيف يجيز إنسان لنفسه أن يصرّح اليوم (في الجريدة أو على الحائط) بشيء ثم يأتي بعد يوم أو بعد أيام فيصرح بخلاف ما كان قد قال بالأمس؟ وكيف يندفع أولئك القراء كل يوم، مع كل تصريح جديد؟

قالوا لي: إن جماهير الناس يَنْسَوْن ما يكتب عادة على الحيطان.

فَحَمِدتُ الله على أن الحيطان لا تنسى ما يكتب عليها.

١٩٨٠/١٠/١٨

صراخ الغافلين

فيما يلي نص مأخوذ من جريدة «الحقيقة» لصاحبها الشيخ احمد عباس الأزهري، والتي كانت تصدر في بيروت (١٩٠٩ ـ ١٩٢١). جاء هذا النص في صدر العدد الذي صدر يوم الاثنين في التاسع والعشرين من رمضان، سنة ١٣٢٨ للهجرة (٣/١٠/١٩١٠) ومن رسالة كتبها قارىء من يافا (فلسطين) في ٢٥/٩/١٩١٠ بامضاء وطني مطالع وبعنوان «مستقبل فلسطين»:

«. . . ويظهر أن الجمعية الصهيونية تنوي، كما تدل تقاريرها في اجتماعاتها العمومية، إعادة الملك لاسرائيل، وتأمر وتساعد كل اسرائيلي يقطن فلسطين أرض الميعاد المذكورة في التوراة، ويؤكد هذا القول طلبهم من السلطان (عبد الحميد الثاني) مشترى هذه الأرض، وهم يستعملون نفوذ الدينار لهذه الغاية. وقد صادف أن الروسية (القيصرية) تعمل جهدها لطرد اليهود من بلادها، وبهذه الواسطة صار غالب مهاجري روسية يحضرون إلى فلسطين، وهنالك ينالون كل واسطة ومساعدة حتى صار يوجد داخل فلسطين مملكة مستقلة لها دوائر وحكام وموظفون، وصار يبلغ عدد رعاياها ما ينوف على مائة ألف نفس. . . ولهذه المملكة جرائد عبرانية وانكليزية حتى وعربية تخدم غايتها. . .»

وبعد بضعة أسطر، يعلق صاحب هذه الرسالة على كلامه السابق، بقوله:

«ونحن لا نلوم اليهود على سكنى فلسطين، ولا ننتقد مزاحمتهم وآجتهادهم، . . . وأنما نلوم الوطنيين لأنهم لا ينتبهون من غفلتهم».

من حقائق الحياة أن في الحياة وَاعِينَ وغافلين، وأن فيها أيضاً مجتهدين وكُسالى، وكذلك فيها أذكياءُ وأغبياء. ولكن الضرر الأشدَّ من هذا كله وجود أولئك المعاندين الذين يَرَوْنَ الصبح يطلع ملء أعينهم وملء الدنيا كلها ثم يظلون

في فراشهم نائمين لأنهم كانوا في الليلة السابقة يسهرون ويلعبون، وخصمهم سهران جادّ (بتشديد الدال). فإذا انتبه أولئك النائمون من نوم الغفلة ورَأَوُا الشر يحيط بهم من كل جانب، أخذوا بالصراخ الذي لا نعرف نحن ماذا يقصدون به، لأنهم هم أنفسهم لا يدرون ما يفعلون ولا كيف يسلكون ثم يريدون أن يخدعوا الناس بصراخهم هذا...

١٩٨٢/٣/١٩ ١٩٨٢/٤/١٠

لَمَحات

أيُّها الساقي ، حَماكَ الـ ... ـلاهُ من جِنّ وإنْسٍ ،
اسْقِني الخمرَ بثَغْرٍ ... واسْقِ أصحابي بكأسٍ .
وافْرُشِ الأرضَ ورُوداً، ... وآجْنِ من طَيِّبِ غَرْسٍ .
أحْرِقِ النَّدَّ أمامَ الكأ ... سِ يُقْصِ الكأسُ بُؤسي .
وآرْفَعِ التِّبْرَ عُروشاً ... فوقَ إسْتَبْرَقَ وَرْسٍ .
وعلى مُتّكآتٍ ... من حريرٍ ودِمَقْسٍ
كُلُّ ومحبوبٍ كَبَدْرٍ، ... كُلُّ هَيْفاءَ كَشمسٍ .
هذه ليلَةُ أُنسٍ . ... حَسُنَتْ ليلَةُ أنسي .

١٩٢٦

أنا وبسمارك لا نفهم السياسة

يسألني نفر من أصدقائي، حيناً بعد حين: لماذا لا تكتب في السياسة؟ فأجيبهم بقولي: أنا لا أفهم السياسة. وقال لي بعضهم: «وكيف كان ذلك؟» فقلت له:

كنت يوماً في حلْقة (بسكون اللام)، وكل من في الحلقة، صغاراً وكباراً يخوضون في موضوعات السياسة ـ من اليابان إلى الخليج فإلى المحيط فإلى الجانب الغربي من أمريكا. وكنت أنا ساكتاً (لأن الذي يستمع إلى عشرة يستفيد أكثر من الذي يوزّع كلامه بين عشرة). وعرضت فكرة أردت أن أقول فيها ما كنت قد قرأته عند أفلاطون وأرسطو والفارابي وابن سينا وابن مسكويه وابن خلدون ومونتسكيو وروسو وجون لوك ومونرو. فقال لي أحدهم: ابق أنت في الصف وعلم الفلسفة وتاريخ الأدب والتاريخ وتاريخ العلوم. واترك السياسة لأهلها. منذ ذلك اليوم أحببت ألا أتكلم في السياسة، لأن آثنينِ لا يتكلمان في السياسة: رجل لا يعرف شيئاً من السياسة (وهذا معقول) ورجل يعرف كل شيء من السياسة.

بدأ بسمارك الكبير حياته السياسية فكان نائباً ثم سفيراً لألمانيا في الروسية ثم في باريس. وفي عام ١٨٦٢ استدعاه الامبراطور ولهلم (غليوم) الأول إلى برلين وعهد إليه بوزارة الداخلية، ثم أصبح بسمارك، في ذلك العام نفسه، رئيساً للوزارة ووزيراً للخارجية معاً. وقام بسمارك بعدد من وجوه الإصلاح في حقل المال وحقل القضاء وأعاد تنظيم الجيش الألماني أو البروسي (على الأصح) لأن المانية لم تكن قد توحّدت بعد. وكانت سياسة بسمارك العسكرية هي الطريق، التي وصلت بالمانية إلى الوحدة (بفتح الواو ـ لأن الوحدة بكسر الواو هي التفرق والآنفراد). ثم أن بسمارك عمل على شد أواصر الوحدة الألمانية بخطوات مالية

وقضائية وعسكرية. وتمت الوحدة الالمانية عام ١٨٧٠ (بعد الحرب المشهورة بين فرنسا والمانيا: حرب السبعين).

ونشأ بعد الوَحدة خلاف حادٌّ بين الامبراطور ولهلم (غليوم) الأول وبسمارك حول السياسة الخارجية (لاختلاف وجهات النظر فيما يجب أن تكون عليه صلات الامبراطورية الألمانية الجديدة نحو فرنسة ونحو الروسية ونحو انكلترة) وحول الكفاح الثقافي.

إن بسمارك كان شديداً في مقاومة تدخل الكنسية الكاثوليكية في الشؤون الداخلية، وفي مقاومة اعتقاد المواطنين الألمان من الكاثوليك بعصمة البابا وتلقّيهم أوامر سياسية من الفاتيكان. إن الكفاح الثقافي كان في حقيقته نزاعاً بين البروسيين سكان الشمال الشرقي من المانية (وهم بروتستانت ـ بالإضافة إلى أنهم الطبقة الحاكمة) والسكان في الجنوب وهم كاثوليك.

ومعَ ذلك فقد آحتفظ الامبراطور برئيس وزارته بسمارك.

ومات الامبراطور ولهلم الأول فخلفه على العرش ولهلم الثاني، عام ١٨٨٨ وعمره سبعة وعشرون (٢٧) عاماً. وكان عمر بسمارك عكس ذينك الرقمين: اثنين وسبعين (٧٢) عاماً. ولعل من الخير أن تعرف أن ولهلم الثاني كان قصير اليد (حقيقة لا مجازاً)، فإذا رأيت صورةً له وَجَدتَّهُ دائماً يخفي يده اليسرى وراء ظهره ويمد يده اليمنى فوق بطنه. ولكنه كان مغرماً بعقف شاربيه: بأن يكونا كثيفين في وسط الشفة العليا ثم يَسْتَدِقّانِ في آتجاهِهما يميناً ويساراً حتى يصلا إلى طرفي الشفة العليا فينحنيان صعوداً.

ونشأ بين الامبراطور الجديد ورئيس الوزارة القديم خلاف حاد في عدد من الوجوه:

ـ قال الامبراطور: إن الموظفين في دولتي يعدون أنفسهم تابعين لبسمارك ـ وأنا الذي جاء إلى الحكم على الشعب الألماني بنعمة من الله أريد أن يكون الحكم لي وحدي.

ـ وكان بسمارك قد اتفق مع انكلترة على أن تأخذ المستعمرة الألمانية الواسعة في شرقي أفريقية وترد لألمانية جزيرة هلغولند (وهي جزيرة صغيرة جداً عند مصب نهر «ألْبَهْ» في شمالي المانية. أنا أعرف هذه الجزيرة الصخرية الصغيرة، وباستطاعتك أن تذرعها (تقيسها: تسير فيها طولاً وعرضاً) في جزء من ساعة. ومع أن الامبراطور كان مسروراً بأخذ جزيرة هي بضع كيلومترات مُرَبّعة أو قريباً من ذلك، فإن الجمعيات التبشيرية والحزب الاستعماري والجرائد لم تكن راضية عن ذلك. وبما أن الجرائد لا تستطيع أن تنتقد الامبراطور (أو لا تريد أن تنتقد الامبراطور) فقد صبت جام غضبها على بسمارك. ويبدو أن كلام الجرائد كان أثمن عند الامبراطور من أعمال بسمارك.

ـ وكان هنالك أيضاً ڤالدرسى (رئيس الأركان) ـ يكيد لبسمارك.

وشعر بسمارك بهذا كله فكان أول ما فعله أن فكر برئيس وزارة يخلفه: فبدأ بإعداد رجل هو غيورغ ليو كابريفي (أحد النبلاء الالمان الذين يرجع أصلهم إلى أسرة ايطالية معروفة).

لم يكن بامكان الامبراطور أن يقيل بسمارك. ولم يشأ بسمارك أن يفتح باباً للنزاع الخفيّ بينه وبين الامبراطور. لقد كان بسمارك يعرف أن نشيد ألمانيا الوطني يبدأ بالمقطع: المانيا فوق الجميع، فوق الجميع في العالم كله. وبسمارك لم يكن يردد ألفاظ هذا النشيد ترديداً. لقد كان لتلك الكلمات معنىً في قلبه وفي عقله.

ووثق بسمارك من ثلاثة أمور: آستقرار الكفاح الثقافي (لا يجوز أن يكون

للبابوية يد في شؤون المانيا الداخلية أو الخارجية) . وبُتَّ الأمر (عام ١٨٩٠ م) بشأن جزيرة هلغولند (لقد رجعت هذه الجزيرة الصخرية الصغيرة إلى الوطن الأم في مقابل مستعمرة في شرقي أفريقية واسعة الأرجاء وعقدت بشأن ذلك معاهدة بين المانيا وانكلترة، في عام ١٨٩٠م.

ـ كذلك اطمأن بسمارك إلى رئيس وزارة يخلفه في سياسته.

وفي عام ١٨٩٠م استقال بسمارك واعتزل في بلدة نائية يكتب مذكراته. لقد كان في تلك المذكرات هذه الجملة: «إن الامبراطور يريد أن يكون رئيس وزارة للامبراطور».

تُوُفِّيَ بسمارك، عام ١٨٩٨. وبعد ستة عشر عاماً، لما نشبت الحرب العالمية الأولى ظهر للألمان وللانكليز أن جزيرة هلغولند الصخرية الصغيرة قد حمت شمالي المانيا وأعجزت أساطيل الحلفاء عن النفوذ إلى المانية من ذلك الثغر الضيق.

أما الامبراطور غليوم الثاني فخسر عرشه عام ١٩١٨ فانتقل إلى هولندة، ليعيشَ منفياً. ثم مات في عام ١٩٤١ قبل أن يرى إذلال المانية مرة ثانية.

غير أن الحلفاء ـ الولايات المتحدة وبريطانية وفرنسة والإتحاد السوفياتي ـ قرروا أن ينسفوا جزيرة هلغولند ثم نفّذوا هذا القرار.

إن بسمارك قد قام بأعماله كلها صامتاً. ولما سخط عليه الامبراطور وكاد له الخصوم وصبّت الجرائد عليه لواذع الانتقاد، لم يعقد مؤتمراً صحافياً ولا دعا إلى مظاهرة تبدأ في برلين وتنتهي في لندن، ولا حثّ الناس على الإضراب واتخاذ ذلك اليوم يوم حزن عام، ولا علق في عرض الشوارع «يافطات» عليها: «شبان برلين يؤيدون بسمارك» (وشبان برلين لا علم لهم بذلك). ولا هو أرسل

السيارات تزمر في شوارع برلين، ولا استكتب الناس برقيات ترسل إلى الامبراطور (ودفع هو أجورها وأجور الذين كتبوها). . . ولكنه استقال بلا ضجة واعتزل الحياة الاجتماعية ليكتب مذكراته (للتاريخ ـ لا ليدل على تفاصيل أعماله اليومية). لقد فعل بسمارك ذلك كله، لأنه ـ بحسب مقاييسَ كثيرةٍ مألوفة هنا وهنالك ـ «لا يفهم بالسياسة».

١١/١٠/١٩٨٠ (ص ١٢)

لَمَحات

يـا قِـيـانـاً لابـسـاتٍ حُـسْنَـهـا من غـيـر لُبسِ
أطْـرِبينـا ، ليس في اللَّيْـ ـلِ سِـوى تَـرْدادِ هَمْسِ .
أسْمِعـينـا مِـنْـكِ «يـا ليَـ ـلُ»، فكم «يا ليلُ» تُنسي .
فـإذا الـلّيـلُ تـولّـى هـاربـاً فـي إثـرِ أمسِ ،
وبـدا الصُّـبـحِ وفـي أنْـ ـفـاسِـه لَـذْعَـةُ قَـرْسِ ،
وحُـمَـيّـا الـخـمـرِ دارتْ بـيـنَ جَـنْـبَـيَّ ورَأسـي ،
ألْقِـنـي فـوقَ سَـريـري . آنَ أنْ تـهـجَـعَ نـفـسـي .
بـآسمِ من أعشقُ أجْـري ، بآسمِ من أعشق أرْسي .

السعادة والشقاء

كثيراً ما أعجب وأنا أمرّ ـ في طريقي من البيت إلى المدرسة ـ بمقهى الحيّ فأرى عدداً كبيراً من الرجال، في الساعة السابعة صباحاً أو قبلها، يتخذون أماكنَهم هنالك يشربون القهوة أو يدخنون النارجيلة. وأعود عند منتصف النهار فأرى هؤلاء الرجال أنفسهم في ذلك المقهى نفسِه وعلى تلك الحال نفسِها. وربما مررتُ في المساء أو في جَوْفِ الليل فإذا هم كما هم وعلى ما هم عليه.

فأقولُ في نفسي: أليس لهؤلاء بيوتٌ يَجْلِسون فيها؟ أليس لهم أزواجٌ وأولاد وإخوة وأخَواتٌ وأقاربُ يتحدثون إليهم أو يُعْنَوْنَ (بفتح النونين) بشأنهم؟ أليس في بيوتهم بُنٌّ؟ إليس في بيوتهم فناجينُ وأقداحٌ (هي بلا ريبٍ أنظف من الفناجين والأقداح في المقهى)؟

ثم أعذُرُ هؤلاء لأنهم مما يبدو عليهم فقراءُ يعيشون في بيوتٍ ضيقةٍ، فهم يهربون منها إلى المقهى، لأنهم في هذا المقهى المتواضع يجدون مكاناً أوسعَ من مكانهم في بيوتهم ثم هم يَنْسَوْنَ (بفتح السينُ والنون) في هذا المقهى صُراخ الأولاد ومطالب الزوجات وإزعاج الجيران.

ولا أكتفي بأن اعذُرُهم بل ألومُ نفسي على أنني أسأتُ الظنّ فيهم فلُمْتُهم. ذلك أني أتصل بفلان من ذوي الجاه والمال من العائشين في بيوتٍ كالقصور وعندهم الخدمُ وجميعُ مطالبِ الحياة ـ أتصل بالتلفون ـ فيُقال لي: «لا يزالُ نائماً» (والساعة تشير إلى ما بعدَ التاسعة أو إلى العاشرة أحياناً)، ذلك لأن هذا الرجل أيضاً ما كاد يَرْجِعُ من مكتبه الفخم في مساء أمسِ حتى غادره إلى السهرة في المقهى الفخم أو عند صديق أو في دعوةِ بعض المؤسسات المحلية أو الخارجية. ويبقى هنالك إلى الثانية بعدَ منتصف الليل، فلا غَرْوَ إذا هو بَقِيَ إلى العاشرة قبل

ظهر اليوم التالي طريحَ الفراش من سهرِ البارحة ومما كان في سهرِ البارحة.

إن هؤلاء الذين ترى بيوتَهم قصوراً أو كالقصور يهرُبون أيضاً من بيوتهم إلى بيوتٍ مثلها أو أحسن منها قليلاً أو أسوأ منها قليلاً أو كثيراً. إن هؤلاء وأولئك لا يجدون في بيوتهم سعادةً فيحاولون أنْ يطلُبوها في أماكنَ أخرى: ولكني لا أعلم إذا كانوا يجدون تلك السعادةَ حيث يظنّون.

قد أكونُ أنا غريباً في عالم هؤلاء: أنا لا أعْرِفُ القُعودَ في المقهى، وإذا أنا ذهبت في يوم إلى مطعمٍ خارج البلد (ونادراً ما أفعل ذلك) فأكونُ أنا وأكبر عدد ممكن من أهل بيتي، فسعادتي في الدرجَة الأولى في بيتي. ثم إنني أشعر، وأنا أدخلُ بابَ البيت، أنني قد تركت مشاكلَ العالمِ وهمومَ الحياةِ كلّها في خارِجه.

إذا لم تكن أنت سعيداً في بيتك، فإنك لن تستطيعَ أن تكونَ سعيداً في مكانٍ آخرَ. وإذا أنتَ لم تكن سعيداً في نفسِك فإنك لن تستطيعَ أن تَحْمِلَ شيئاً من السعادة إلى الآخرين.

وهذه لفتةٌ من السعادة لا أعلم إذا كان كثيرٌ من الناس يشعُرون بمثلها:

أنا كثيرُ الأسفار (بالإضافة إلى عملي الأساسي أستاذاً في مدرسةٍ ثانويةٍ). وقد يتّفقُ أن أسافرَ خمسَ مراتٍ في العام أو ستاً أو سبعاً أو أكثرَ أحياناً. وربما غِبتُ الأسبوعَ والأسبوعين والثلاثة، ربما اتفق أن أسافر في اليوم الخامس (مثلا) من الشهر الفُلاني ثم أعودُ في اليوم العشرين منه أو في السابعِ والعِشرين.

فإذا أنا عُدتُ من السفر وجدتُ إن «الروزنامة» لا تزالُ تشير إلى اليومِ الخامس من الشهرِ. حينما أكون في خارج البلد فإنّ أوراقَ الروزنامة لا تُنْزَعُ. إن هـذا العمل لفتـةٌ صغيرة معنـاها: إذا كـان ربُّ البيت مسافـراً عن البلد فإنـه لا يكون غائباً عن البيت ولا عن أهل البيت.

٤/٥/٨١ — ١٩٨١/٥/٣٠ (ص ١١)

شيء من التاريخ

هذه القطعة وما سوف يليها سلسلة جديدة أحاول فيها كلها أن أرى أشياءَ من الواقع فأسرُدَها بلا تعليق ولكن ربما ذكرت واقعتين قديمة وحديثة أو أجنبية ووطنية ثم تركت للقارىء أن يَربِطَ بين الحادثتين ويوازن.

كانت عِدةُ الخلفاء العباسيين في بغداد سبعة وثلاثين خليفة ـ إذا نحن اقتصرنا في العد على الخلفاء الذين جاءوا إلى الخلافة بالطريق المألوف ـ ولكننا إذا عددنا أيضاً أولئك الذين تسلقوا سدة الخلافة من هنا ومن هناك، فإن عدة هؤلاء وهؤلاء ترتفع إلى اثنين وأربعين.

غير أننا إذا أحببنا اليوم أن نعد الخلفاء العباسيين الذي تركوا أثراً واضحاً على وجه التاريخ لم يزد هؤلاء على أربعة: المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم.

هؤلاء الخلفاء العباسيون الأربعة لم يشتهروا لأنهم جلسوا على سدة الخلافة، بل لأنهم أدوا (بفتح الدال) للحضارة أو للثقافة أو للسياسة أيضاً خدمة جليلة. ودليلنا القاطع على ذلك عبدالله بن المعتز، إن عبدالله بن المعتز لا يعد في الخلفاء العباسيين السبعة والثلاثين، لأنه لم يمكث في الخلافة سوى نهار وليلة ثم خلع وقتل. ولكنه اشتهر لأنه كان شاعراً بارعاً. أما الخليفة العباسي القائم (وقد حكم خمساً وأربعين سنة) والخليفة العباسي الناصر (وقد حكم سبعاً وأربعين سنة) فليس لهما شهرة لأنهما لم يعملا عملا ذا أثر في حياة الناس، ثم ليس لهما قيمة في سلسلة الحكام.

بَقِيَ أنْ تسأل أنت: لماذا يرغب نفر من الناس في أن يصبحوا حكاماً ولماذا يريدون أن يبقوا (بفتح القاف) حكاماً إلى الأبد؟ (وهم ينسون ـ بفتح السين ـ أن الإنسان لا يعيش إلى الأبد).

قيل أن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (سابع الخلفاء الأمويين) لَبِسَ ذات يوم «خلعة» الخلافة ثم نظر إلى نفسه في المرآة فأعجبه منظره فقال:

ـ «ما أحسن الملك لو دام».

فقالت له إحدى جواريه:

ـ «لو دام الملك لأحد قبلك لما وصل إليك».

ولقد مر في التاريخ نفر كثيرون مثل سليمان بن عبد الملك. ولم يحفظِ التاريخ لنا من فضائل سليمان هذا إلا أنه كان أكولاً (يحب الطعام ويكثر منه إذا هو جلس إلى المائدة).

١٩٨٢/٣/١٢ — ١٩٨٢/٣/١٣ (ص ١٠)

لَمَحات

يعثُـرُ الـطِّفْــلُ بـالمَنــونِ رضيعـاً — مَثْلَمــا يُمْــزَقُ الــرِّداءُ القَشيبُ.

رُبَّ نَفْسٍ تبكي لِـفَقْــدِ عــزيــزٍ — ضــامَها، والحِمـامُ مِنها قـريبُ.

١٩٣٠.

العلم والحيَاة...

من المشاكل التي نُعانيها ـ نحن الأساتذةَ ـ معَ التلاميذ (في المرحلة الثانوية) ومعَ الطُّلاب (في الجامعة) أنّ نفراً كثيرين منهم لا يَعْرِفُ لماذا يتعلم: تلميذ المرحلة الثانوية يريد أن «يحفظ الدرس» لينجح في الامتحان. وطالب الجامعة (من هؤلاء الذين عنيتهم، طبعاً) يريد أن «يأخذ ورقة» ليزيد بها راتبُه (في بلادنا). وقلما رأيت تلميذاً يدرك أن العلم إنما هو «استعداد لخوض غِمار الحياة».

كان ادورد نيقولي عميدُ الدائرة العلمية في الجامعة الأميركية في بيروت. «كان المانيَّ الأصل أميركي الجنسية». وكان يعلّمنا «الاقتصادُ» (أقصِدُ علم «الاقتصاد»). ولقد كان من أولئك الأساتذة الذين يَرَوْنَ أن العلم «زيادة في شخصية الطالب»، وأن العلم ذو صلة وثيقة بالحياة. من أجل ذلك كان يَضْرِبُ أمثلة من الحياة العملية على موضوعات الاقتصاد التي ترد في الكتاب المقرر.

تكلم يوماً على آرتفاع الأسعار (في موضوع العرض والطلب): ترتفع أسعار بضاعة ما، إذا كانت قليلة في السوق ثم كان الطلب عليها كثيراً. وتنخفض أسعار البضاعة إذا كانت كثيرة ثم كان الطلب عليها قليلاً . قال مرة: إن سعر الخبز لم يرتفع (في اللائحة التي تصدرها البلدية لأسعار السلع). وضرب مثلاً على ذلك فقال: إن سعر الرغيف اليوم لا يزال كما كان سعرُ الرغيف من عامين. ثم رفع يده وجمع بين إصبعيه: الإبهام (بكسر الهمزة: الإصبع الغليظة) والسبابة (الإصبع التي تلي الابهام) دلالة على أن حجم الرغيف قد أصبح أصغر من ذي قبل.

وقال لنا مرة: لا تشتروا من «التصفيات (الاكازيون)». إذا كانت التصفية صحيحةً (في آخر الموسم)، فتكون السلع الباقية (للتصفية ولآخِر الموسم

وللاكازيون) قد مرت بها العيون والأيدي والأذواق، ولم يبق من تلك البضائع إلا ما أصبحَ قديماً أو متغيرَ اللون أو غيرَ مرغوب فيه. وأما إذا كانت التصفية غير صحيحة (في قلب الموسم) فيكونُ فيها إحدى حيلتين: أما أن تكون مَعيبة فتُجعَلَ أسعارُها رخيصة (والدليل على ذلك أنك إذا اكتشفت العيبَ وأردت استبدال بضاعة مماثلة مكان البضاعة المعروضة بالثمن المعين، رفض البائع ذلك ثم قال لك: هذا سعر التصفية على هذه السلعة نفسها).

وكثير من الناس قد خبروا الحالة التالية: يشترون (من الاكازويون) سِلعة بثمن يعتقدون أنه رخيص ثم يفاجأون بعد قليل (بعد انتهاء مدة الاكازيون)، أن تلك السلعة نفسها معروضة في المحل نفسه بسعر أدنى. تلك خدعة للذين لا يَعْرِفون الحساب.

يكون سعر السلعة ستين ليرة (مثلاً) فيوضع عليها بطاقة مكتوب عليها ١١٥ ثم يُضرب على هذا الرقم بالحبر الاحمر ويُكتب تحته الرقم «الجديد ٧٩». (وتأخذ عين الرجلِ قليل الاختبار الرقم ٧، وينسى أن الرقم ٩ يجعل من المبلغ ثمانين إلا واحداً). إن هذا «الزبون» يدفع ثمانين ليرة (في الاكازيون) لبضائعُ ثمنها في (الأصل) ستون.

* * *

كنت يوماً في بلد عربي وكنت أسير مع صديق لي من سكان العاصمة في أكبر شوارع البلد وأشهرها. وخطر لي أنني أحتاج إلى ثوب (بذلة)، وقفنا أمام واجهة فأعجبني ثوب معروض فيها عرضاً أنيقاً. دخلنا المحل وسألت عن ثمن ذلك الثوب فقال البائع: آثنان وثلاثون ديناراً (منذ نحو عشر سنوات). فهززت رأسي وخرجنا.

قلت لصاحبي: إن الثمن كثير. فقال لي: أتذهب إلى مكان بيع الأثواب

بالجملة؟ فقلت: نعم. ذهبنا إلى مكان كبير ودخلنا إلى غرفة واسعة فيها حبال منصوبة وعليها أثواب موزّعة على تلك الحبال بحسب أنواعها وبحسب مقاييسها. وبالاتفاق وقعت عيني على «صنو» الثوب المعروض في الواجهة. ثم لفت نظري ثوب آخَرُ أفضلُ منه.

دفعت ثمن الثوبين معاً أربعة وعشرين ديناراً.

وما كانت حاجتي إلى أن أدفع أربعين ديناراً زيادة على ثمن الثوبين لأنهما فقط معروضان في الواجهة؟

إن الدرس الذي علمنا إياه ادورد نيقولي (في صف الاقتصاد) قد نفعني أيضاً (في سوق ذلك البلد العربي).

٨١/٤/٦ — ١٩٨١/٤/١٨

لَمَحات

من كان يُكْثِرُ لِلإِلَهِ صِيامَهُ ... ويقومُ في نُسُكٍ إلى الأسحارِ،
ويرى البِلادَ تَقطَّعَتْ أوصالُها، ... فحياتُه وِزْرٌ من الأوزارِ.

١٩٢٧

بيع الماء

قال رسول الله ﷺ: الناس شركاءُ في ثلاثة: الماء والكلأ (أي العشب) والنار (أو كما قال).

كنّا في القاهرة، ودعينا إلى مطعم كبير يقوم على «شط النيل»، وقد هجمت أطرافه على أطراف ذلك النهر العظيم. وكان الرئيس (رئيس الخدم ـ وهو أجنبيّ) يطوف بنا مرحّباً مبتسماً. ولقد كان ـ والحقّ أحق أن يقال ـ يلبّي طلباتنا بدقّة وسرعة ورضا. ثمّ جاء طلبي الكبير، فأنا لا أشرب إلّا الماء، لا القهوة ولا الشاي ولا ذلك السائل المختلف الألوان والذي يقال له «عصير» أو يسمّى أسماء مختلفة.

وجمدت الكلمة في فم رئيس الخدم بضع لحظات ثمّ قال: آسف أشدّ الأسف، فالماء عندنا مقطوع، ولكنّي سأتدبّر الأمر. وتدبّر الرجل الأمر وجاء إليّ بزجاجة ماء من منابع ايطاليا.

ثمّ جاء دور الطعام، وكان الطبق الأوّل من السمك. وجاء السمك شرائح، كلّ شريحة كأنّها خطّت بالبُركار ثمّ وزنت على الميزان. لقد كانت قد جاءت كذلك من الدنمرك ثمّ أدخلت في النار على «شط النيل».

بقي أمر آخر:

في لبنان أيضاً يبيعون الماء في القناني. هذا، بينما الماء في بيروت يجري إلى بيوت المواطنين العاديين في أيام معلومة من الاسبوع وفي ساعات معدودة من تلك الأيام المعلومة. ومع ذلك، فالتجار اللبنانيون، يبيعون الماء في لبنان نفسه وفي بلاد الخليج وفي البر والبحر والجو، فلقد شربت في أسفاري الكثيرة بالطائرة ماء من زجاجات مختومة في لبنان. والناس كلهم يعرفون أن مياه الينابيع في لبنان تَقِلُّ في فصل الصيف، ثم هي قليلةٌ ومن الحقائق أنك لو جمعت مياه الينابيع في لبنان لما

ملأت تلك القناني التي تباع في أنحاء العالم العربي وعليها اسم لبنان. وألا، فلماذا لا يصل الماء إلى بيوت المواطنين في بيروت إلا قليلاً؟ ولماذا يحمل الرجال والنساء أوعية الماء ثم يطوفون بها الأماكن القريبة والبعيدة لعلهم يجدون شيئاً من الماء يملأون به تلك الأوعية ليشربوا منها وليقضوا بمائها حاجاتهم؟

ولكن ـ وأنا أستيمحك عذراً ـ لا تسألني لتعلم مني مكانة أولئك الذين يبيعون الماء في لبنان.

١٩٨٢/٣/١٢   ١٩٨٢/٣/٣٠

لَمَحات

كأنّ النّيلَ لم يكُ قبلَ شوقي   يُفيضُ على ثَرى الهَرَمَيْنِ تِبْرا،

ولا فرعونُ في قومٍ أُباةٍ   ولا الهَرَمانِ من خوفٍ وخَفْرا.

خَلَقْتَ لها الخُلودَ، وكُلُّ خُلْدٍ   تمنَّى من قريضِك فيه شَطْرا.

١٩٣٢

سؤال لا يحتاج إلى جواب..

أنا لا أحب أن أتكلم في السياسة، لأن الكلام في السياسة لا يفيد. والدليل على ذلك ما يقوله رجال السياسة عندنا في الصحف والراديو والتلفزيون من الحُوار والوفاق والسلام، ووو... والنتيجة ما نراه. إن رجال السياسة عادة ـ في كل مكان ـ يقولون ما لا يعنون. من أجل ذلك يقال في «علم السياسة»: إن اللغة لستر أفكار السياسي لا لإيضاحها.

في لبنان اليوم ـ وفي أثناء هذا القتال الدائر ـ نفر وجماعات يطلُبون المجيء بقوات دولية لإعادة السلام الى البلد. لا اعتراض لي على ذلك. وإذا كانت القوات الدولية (من نيجيريا وسنغافورة والسنكال والصومال أو من الدنمرك والمكسيك ونيكاراغوا) قادرة على أن تُقِرَّ السلام بين اللبنانيين، فأهلا وسهلاً ومرحبا بها.

ولكنّ هنالك سؤالاً واحداً: في جنوب لبنان قوات دولية منذ عشرين سنة أو تزيد، والسلام ليس له في الجنوب وجود. فما الفائدة من وجود قوات دولية في الشمال؟

قلت: إن سؤالي لا يحتاج إلى جواب، ذلك لأني أوردتٌ قبل بضعة أسطر تعريف اللغة في علم السياسة: اللغة تستخدم لستر أفكار السياسي لا لإيضاحها.

٨١/٤/٥ — ١٩٨١/٤/١١

جدول الضرب . .

لا شكَّ في أن كلَّ إنسان في هذه الحياة محتاج إلى قدر ما من المعرفة حتى يستطيع أن يعيش سعيداً، أو إلى أن يعيش على الأقل. وأكثر الناس يعتقدون أن هذه المعرفة يجب أن تكون من الفلسفة والاقتصاد والسياسة والعلوم الطبيعية والمنطق، إلخ . أما أنا فأرى أن كل هذه العلوم مفيدة، ولكنها لا تفيد إذا كان الفرد يعتقد أنه يعرف كل هذه العلوم، ثم هو «لا يحفظ» جدول الضرب (لأن الآلة الحاسبة قد جعلت نفراً كثيرين من الناس ينسَوْنَ ـ بفتح السين ـ جدول الضرب).

سأضرب على ذلك مثلين:

ـ يقرأ بعض الناس عن رحلة جَماعية (بفتح الجيم) إلى بلد ما مدتها خمسة أيام بمبلغ ألفٍ وخمسمائة ليرة مثلا (ولا شك في أن الفرد إذا قام بمثل هذه الرحلة بنفسه يدفع أكثر من ذلك). ولا تنسَ أن الإعلان عن هذه الرّحلة يحمل في زاوية في جانبه صورة امرأة على شاطىء البحر (بثوب البحر، طبعاً). ويحسب هذا الفرد حسابه: طائرة ذهاباً وإياباً ـ خمسة أيام في فندق (من درجة: لوكس) ـ خمس عشرة وجبة طعام ـ زيارة متاحف ومتنزهات ـ عيادة طبية أحياناً. . .

وبعد أن يدفع هذا الفرد ذلك المبلغ يعطى منهاجاً للرحلة فيه شيء مثل هذا:

اليوم الأول : مغادرة بيروت (الساعة السابعة مساء).
اليوم الثاني: زيارة ضواحي العاصمة (الطعام بالسيارة).
اليوم الثالث: حر (للمشتروات). طبعاً، على حساب الفرد.
اليوم الرابع: زيارة المتحف التاريخي ـ وفي المساء: حضور مسرح شعبي.
اليوم الخامس: العودة (الساعة التاسعة صباحاً).

أنا لا أقول هذا منافسةً لشركات السفر. ولكني أودّ أن أقول: إن الأيام الخمسة هي ثلاثة فقط (والأيام العشرة هي ثمانية فقط، الخ)، وهذا الذي قصدته من عنوان: «جدول الضرب...».

- في عام ١٩٣٦ كنت في باريس. وكنت مرة مع صديق شرقي نسير هونا، فوقف ذلك الصديق بي أمام واجهة فيها قميص أعجبه (وكان على القميص بطاقة عليها: ٢٥ فرنكاً). دخلنا المحل فتقدمت منا إحدى البائعات (وكانت جميلة لطيفة عذبة الكلام). فقال لها صديقي إنه يريد القميص الذي في الواجهة. وبما أنه كان في الواجهة عدد من القمصان فقد خرجت البائعة معه فدلّها على القميص المُراد.

عادت البائعة إلى داخل المحل وأخرجت القميص من الواجهة ولفته في ورقة مزوقة. ثم كتبت له «وصلاً» ليذهب إلى الصندوق ويدفعَ المبلغ. كان المبلغ مائةً وعشرةَ فرنكات.

رجع صاحبي إلى البائعة وقال لها مستغرباً: إن البطاقة على القميص ٢٥ فرنكاً، والوصل عليه ١١٠ فرنكات.

قالت له البائعة الجميلة بصوتها الرنان اللطيف:

٢٥ ف (ثمن بدن القميص)
١٥ ف (ثمن القبة الزائدة).
٢٠ ف (ثمن أزرار الأكمام).
٣٥ ف (ثمن عقدة الرقبة: ربطة العنق).
١٥ ف ثمن الدبوس الذي يثبت العقدة ببدن القميص)
= ١١٠ ف.

دفع صاحبي المبلغَ لأنه ظن أن المبلغ (٢٥ ف) ثمن جميع هذه الأشياء التي كانت معروضة في الواجهة معاً (كما لو كان القميص ملبوساً على البدن، والحيلة التجارية واضحة).

إن دفع مائة وعشرة فرنكات مكانَ خمسةٍ وعشرين فرنكاً (مرة أو مرتين في الحياة) ليس كارثة أو مصيبة، ولكنّ بعض الناس يحسب حساب أمر ويظنه خمسة عشر يوماً، ثم يضيع فيه سبع سنوات من حياتهِ من غير أن يحصل على شيء.

وهذا أيضاً جهل بجدول الضرب...

٨١/٤/٥ ١٩٨١/٤/١١

لَمَحات

ولقـد مَـدَحْتُ القَـوْمَ حتّى خِلْتُهُمْ يَتَمـاوَجـون كِمِثْـلِ بحـرٍ زاخـرِ.

لكنّهم غُرّوا بـمـا قـد قُلتُـهُ؛ لا شيءَ أكذبُ من مديحِ الشاعر.

١٩٢٩

صاح الديك . . ضاع الدجاج

كان في إحدى القرى القريبة من جبل عال مزرعة فيها أسـراب من الدجاج، وكان في أسراب الدجاج ديكان يريد كل واحد منهما أن يصيح على الجدار العالي في القرية. وكانا كثيراً ما يتنافسان أو يقتتلان ثم يشترك كل سرب في قتال السرب الآخر.

وكان في القرية أيضاً جماعة من الغربان فيها غراب حكيم قد سقط أكثر ريشه لطول عمره حتى كاد ينسى أنه غراب عمله الشر (والشريـر إذا صَلَحَ أصبح مصلحاً عظيماً لكثرة اختباره في ماضي حياته الشريرة).

نصح هذا الغراب ذينك الديكين وقال لهما: إن الاقتتال لا ينفعكما، ثم هو يؤذي الدجاج في سِربكما ويُطمع فيكما وفي سربكما جماعة النسور التي تعيش على الجبل العالي بجوار القرية.

كان كل ديك يرى الأمور كلها من جانب واحد محدود خاص به: هو صاحب الحق في أن يصيح على الجدار العالي في تلك القرية الصغيرة.

وتمر الأيام ويضعف أحد الديكين عن قتال خصمه فينزوي في أحد جوانب القرية، ويستبد الديك الآخر في الصياح على أعلى الجدران في القرية الصغيرة.

وفي أحد الأيام مرّ نَسر فوق ذلك الجدار فرأى ذلك الديك على جدار القرية المرتفع فانقض عليه وآزدرده (ابتلعه).

وظن الديك الثاني أن النسر قد قتل الديك الأول انتصاراً له، فأخذ هو يعتلي ذلك الجدار العالي ليصفّق بجناحيه ويصيح إعلاناً لفوزه وفرحاً بمقتل خصمه. واتفق أن مر ذلك النسر القديم فوق هذا الجدار وعليه الديك الثاني فانقض عليه ثم أخذه في مخالبه ليجعله طعاماً لفراخه.

وفقد الغراب الحكيم صياح الديك على جدار القرية العالي أياماً متوالية. فأقبل متباطئاً ليرى ما سبب ذلك. لقد رأى أن سربين من الدجاج قد أصبح كل سرب منهما بلا ديك ثم انطويا كلاهما في أسراب دجاج أخرى لا يرى ديوكها فائدة من الصياح فوق الجدران العالية.

١٩٨١/٢/٨

١٩٨١/٢/٢١

لَمَحات

لا تَسَلْني عن واحـدٍ يَتَبـدّى ... ويُـذيبُ القلوبَ لِينـاً وصَـدّا.

عَـلِمَ الله أنّه أفْـتَـنُ الـنّـا ... س عُيـوناً وأنْضَـرُ النـاس خـدّا.

كُـلّمـا شِئْتُ أنْ أُكَـرِّمَ نـفـسي ... ظَلّ مَوْلًى وعُدتُّ في الحُبِّ عَبدا.

إنّ قـلبي يُـحِبُّـه، وهْوَ يَدْري ... أنّـه عِنْـدِيَ الحبيبُ المُفَـدّى.

رُبَّ يـوم رأيْـتُـه يَتَـثَـنـى، ... وَمشى حَـوْلَـه المُحِبّـون جُنْـدا،

يمسَـحُ الغُنْجَ من عُيـونٍ أعـارَتْ ... أنفُسَ العـاشِقينَ سُقْمـاً وسُهْـدا.

والـذي تحتَ ثَـوْبـهِ - يشهَـدُ الثَّوْ ... بُ - لأَطْـرى مِنَ الحريـرِ وأنْدى.

كُلّمـا فـاحتِ الجَنـائنُ أهْـدَتْ ... طِيبَـه لِلنُّفـوس فـازْدَدْنَ وَجْـدا.

وقـديماً تَحَـدّثَ النّـاسُ في الحُبـ ... ـب. ولكنّي أُحَدِّثُ النّاسَ فَرْدا.

برلين ١٩٣٥

الاسكندر ذو القرنين

في هذه المرة أريد أن آتي بنص من كتاب قديم، هو أقدم الكتب المؤلفة التي وصلت إلينا: كتاب «كليلة ودمنة» (من الصفحات الأولى: من مقدمة الكتاب)، قال ابن المقفع:

«... فلما رأى ذو القرنين عزيمته (عزيمة فور: ملك الهند) سار إليه بأهبته (عُدّتـهِ)وقدّم فُورُ الفِيَلة أمامه. ودفع (الاسكندر ذو القرنين) تلك الخيل (المصنوعة من النحاس والتي تشتعل في أجوافها النيران) وتماثيل الفرسان عليها. فأقبلت الفيلة (التي مع جيش فور ملك الهند) نحوها ولفّت خراطيمها عليها. فلما أحسَّتِ (الفيلة) بالحرارة ألْقَتْ من كان عليها وداستهم تحت أقدامها ومضت مهزومة هاربة لا تلوي على شيء ولا تمر بأحد إلا وَطِئتْـهُ. وتقطع جيش فور فتبعهم أصحاب الاسكندر ونادى (الاسكندرُ) ملك الهند قائلاً:

يا ملك الهند، آبرز إلينا وابق على عُدَّتك وعيالك ولا تحملهم إلى الفناء. فإنه ليس من المروءة أن يرمي الملك بعدَته في المهالك المتلفة والمواضع المجحفة (المبيدة)، بل يقيهم بماله ويدفع عنهم بنفسه. فأبرز إليّ ودَعِ الجند، فأينا قهر صاحبه فهو الأسعد»..

هذا نص ليس لي فيه إلا كلمة هنا قومتها وكلمة هناك شرحتها...

*

من شكسبير...

وهذا أيضاً نص، ولكن من شكسبير. إنه في الأصل باللغة الإنكليزية (ومسرحيات شكسبير منظومة شعراً). من أجل ذلك نقلت أنا هذا النص وجعلته أيضاً في شعر (وهو مأخوذ من الفصل الخامس من مسرحية «يوليوس فيصر»، في

المشهد السادس) وفي هذا النص شيء يسير جداً من التصرف يقتضيه نقل شعر من اللغة الإنكليزية إلى شعر باللغة العربية:

يا غدًا في غـدٍ، ويا صِنو أمس
سوف يمضي شمساً بنا بعد شمس
مستمراً إلى انتهاء الدهور،
تلك أيامنا المواضي أضاءت
للمجانين سيرهم للقبور.

* * *

إن هذا الإنسان ظِلٌّ على (م)
المسرح يبدو في هيئة المحبور
ساعة في تبختر وصراخ
ثم يُنسى صراخه بعد حين.
وَيْحَهُ من ممثل مسكين
أحمقٍ ذي حماسة ليس فيها
شِبهُ معنًى ولا ثُمالـة كأس.
بعد هذا يغادر المسرح (م)
الصاخب يكبو في هيئة المدحور.
والبرايا تُجِـدُّ يوماً فيوماً
نحو رمس تَحِلُّه بعد رمس.

١٩٨١/٤/٢٦ ١٩٨١/٥/١٦

قِصص من العالم الغريب

يتفق للإنسان، لكل إنسان ـ في كل يوم ـ ألفُ قِصّة. وكل قِصة، إذا نحن أحْسَنّا روايتها، يحسُن أن تُروى. والقصة التي تستحق أن تروى هي القِصة التي يكون لها مغزًى يمكن أن ينطبق على حاضرنا. ولقدِ آختَـرتُ أنا أنْ أرْوِيَ هنا هذه القِصص الخَمْسَ:

١ ـ من فرنسة: في الأسفار يجب أن يكون الإنسان حريصاً على كل ما يَمْلِكْ. فما تقول في مسافر يُضيع جوازَ سفره أو يضيع ما يملك من مال وهو بعيد عن بلده؟

وصلتُ في أول زيارة لفرنسةَ، عام ١٩٣٦، وأنا أهتمُّ كثيراً بإبْرادِ الرسائل إلى الأهل والأصدقاء، كما أجمع أيضاً طوابعَ بريدٍ. ذهبتُ إلى مكتبٍ للبريد في باريس وطلبت فئاتٍ مختلفةً من الطوابع ثم أخرجت من جيبي، بكل حذَرٍ، قطعة من العِملة وناولتها للموظف. وردّ إلى الموظف تتمة تلك القطعة. وفيما هو يناولني بقية تلك القطعة استكثرتُ المبلغ، فقلت له: أظنُّ أني أعطيتُك قطعةً بخمسين فرنكاً. فقال لي: أنت أعطيتني قطعة بمائة فرنك. فقلت له: ولكني أذكر أن القطعة كانت «خمسين فرنكاً». فردّ بكل هدوءٍ: إنا على ثقة بأنك أعطيتني قطعةً بِمائَةِ فرنك.

ولما عُدتُّ إلى الفُندق، حَسَبْتُ ما معي. فوجدتُ أني كنت قد أعطيتُ ذلك الموظّفَ الشابَّ في مكتبِ البريد وَرَقةً بمائة فرنك.

٢ ـ من المانية، في شباط ١٩٣٧، في مدينة ليبسيغ، وفي إدارة البريد أيضاً. ناولتُ الموظف عُلبةً صغيرةً وقلت له: أريد أن أرسل هذه بالبـريد المضمون. (وكانت المانية قد ألغتِ... الوصل على المراسلات المضمونة. كان

يكفي أن تقولَ للموظف إن رغبتك أن ترسلَ الرسالة أو العُلبة مضمونة). رفع الموظفُ بصره إليّ وقال: «أهذه العلبة هديةٌ لعيدِ ميلادٍ؟» فأجبته بالإيجاب. فسألني: «ومتى يقعُ هذا الميلاد؟» فقلتُ له: يومَ الأحدِ القادمِ. فقال لي: لا يزالُ وقتُ إرسالِ هذه الهدية باكراً. وعلى كل حالٍ، أعطِني العُلبةَ.

ووصلت العلبة إلى المُرسلةِ إليه يومَ الأحدِ الساعةَ العاشرةَ والنِّصف قبل الظُّهرِ.

٣ ـ من الولايات المتحدة، ١٩٧٨

في الولايات المتحدة أحياءٌ سَكَنية يسكُنها الذين ليس مَعَهم أولادٌ صِغار. فإذا آتفقَ أن سكَنَ فيها عروسانِ ثم اقتربَ وقتُ ولادةِ ولدٍ لهما، فعلى العروسين أن ينتقلا من ذلك الحيّ. إن مثل تلك الأحياء لأولئك الذين لا يُحبّون الضجّةِ. وفي هذه الأحياء أيضاً لا يجوزُ أن تُقامَ حَفَلاتُ موسيقى أو آفتعالُ شجارٍ، أو إطلاق رصاص، أو كلامٌ من شُرفة إلى شرفة بين جارتين فارغتين (لا عَملَ لهما) تريدانِ أن تقطعا الوقتَ بالحديث عبر الهواء بأعلى ما تستطيعانِ من الصوت.

وفي الولايات المتحدة سكنّا نحنُ في مثلِ هذا الحي. وفي ليلةٍ سَمِعْتُ ضجةً لم آلَفها من قبلُ. كان أحدُ أصحاب البيوت المجاورة فيما يبدو قد دعا نفراً من أصدقائه وصديقاته. فلما دارتِ الخمرُ في الكؤوس وفي الرؤوس، علا ضَحِكُ القومِ. ثم زادت، بعد قليل، تلك الضجةُ. خرجتُ إلى شُرفة غرفتي. وكانت تطِلّ على الباحة التي بين البيوت في ذلك الحي ـ فأبصرتُ سيارةَ الشرطةِ تُخلي الشِّقَةَ التي تنبعث منها الضجة وتحمل نفراً من الساهرين الضاجّين إلى بيوتهم أو إلى المخفر (لا أدري، فإن هذا الظنّ مني).

٤ ـ من لندن ١٩٧٨ أيضاً.

كان الفندق الذي نَنْزِلُ فيه يُطلُّ على حديقة كنزنغتون. نهضتُ مرةً في

الليل لبعض شأني. ولم يكنِ النُّعاس مُلِحّاً عليّ فوقفتُ قليلاً على الشرفة التي تُطِلّ على الطريق العامّ، عند مفرقٍ أعورَ (طريق يقطع طريقاً آخر ولكن لا يستمر إلى الجانب المقابل). وكان عند هذا المقطع إشارة ضوئية. واتفق أن وصلت سيارة (وكانت الساعة الثانية بعد نصف الليل) فاعترضها الضوء الأحمر. ولم يكن في تلك الساعة سيارة ما عن يمينها أو في مقابلها (وبطبيعة الحال، لم يكن هنالك في ذلك الحين شرطيٌّ يوجّه السير).

وقفت هذه السيارة حتى أضاء لها النور الأخضر فتابعت سيرها.

٥ ـ من لندن أيضاً، ١٩٧٣.

كنا أيضاً في فندق تطل غرفتنا فيه على الطريق العام. سَمِعْتُ قَرْعَ حديد بحديد. نهضت إلى الشرفة فرأيت أن سيارة كانت قد وصلت إلى مقطع الطريق ثم لم يستطع سائقها أن يقف في مدًى معينٍ فصدم سيارة كانت أمامه. رأيت السائقين ينزلانِ ثم يَقِفان دقيقة يتحدثان. بعدئذٍ أخرج كل واحد منهما دفتراً صغيراً من جيبه وكتب فيه بضع كلمات (أظنها تتعلق بشركات الضمان أو بأرقام تلفون أو بعناوين مكاتب). ثم إن كل واحد منهما عاد إلى سيارته وانتظر النور الأخضر حتى يضيء له لينطلقَ إلى وجهته.

عندئذ تذكرتُ سيرَ السيارات في بيروتَ، وكنت قد أُنْسِيتُ صورتَها نحو أربعين يوماً من غيبة لي في الجزائر وفي بريطانية.

١٩٨٠/١٢/٢٩ ١٩٨١/١/١٧

الجمع والطرح

حينما كتبتُ القِطعة «جدولَ الضرب» (السفير ١١/٤/٨١، ص ٩) لامني نفرٌ من الزُملاء وقَالوا: كيف تقولُ إنّ الناسَ لا يعْرِفون جدولَ الضرب.

فقلت لهؤلاء؛ لقد صانعتُ (داريت) الناسَ لَمّا جعلتُ نفراً منهم يجهَلون جدول الضرب. ولو أنني قلتُ ما يجب أن أقولَه لَنَسَبْتُ إليهِم الجهلَ بقواعدِ الجمع والطرح. وسألوا لماذا؟ فقلتُ لهم: آسمعوا:

جريدةُ الفاتيكان تصلّي إلى الله (تدعو الله) أن يَقِفَ القتالَ في لبنان، وبلاط وندسورَ يرجو أن يقفَ الاقتتالُ في لبنان ـ والبيتُ الأبيض يَسْعى لوقف الاقتتال في لبنان، والقصرُ الأحمر يبذُلُ جُهدَه لإحلالِ السلام في لبنان، وإمبرطورَ الصين، ومَلِك الهند، ووزيرُ السِّند وأميرُ البحْر وسُلطان البر وزعيمُ الشباب ورئيسُ الحي وشيخُ الضيعة، والمثقّفون والحِزبيون والمُستقلون ودهاقينُ الدنيا وأرباب الدين ورجال الزراعة والصِّناعة والتجارة، . . . كلُّ هؤلاء يُعلنون ويُصرّحون ويخطُبون ويكتُبون في سبيل إصلاح الحال وتقريب وجهاتِ النظر. . .

ومَعَ هذا فإن كثيرين من الناس يقرأون التصريحاتِ المكتوبة في ذلك واخبارَ المساعي المبذولة والبرقياتِ المتبادلة ويعلقون عليها بجِدٍ وحماسةٍ. ثم لا تزالُ البلاد في عامٍ واحدٍ وثمانين كما كانتْ في عام أربعةٍ وسبعين، في حربٍ وقتال.

قُلْ لي، الآن: أهؤلاء الذين يقرأون هذه الأخبار ويستمعون إليها في الراديو وفي التلفزيون يَعْرِفون الجمعَ والطرحَ ـ ودَعِ الآن جدول الضرب جانباً ـ. ألم يخطُرْ ببالِ هؤلاء أن يجمعوا بعضَ هذه الأخبارِ والأقوالِ إلى بعضٍ ويَرَوْا (بفتح الراء) مجموعها أو نتيجتُها؟

٨١/٥/٤ ١٩٨١/٥/٢٣

قطعة بلا عنوان

خطر في بالي عشرةُ عناوينَ لهذه القطعة . ولكني لم أَرْضَ أن أرفعَ فوقَها عنواناً من تلك العناوين لأنني لا أحب أن أسيء إلى أحد.

في عام قريب كنت راجعا من لندن بالطائرة. ومرت المضيفة بالمسافرين تسألهم ما يريدون. ووصلت إليّ وقالت: أتريدُ ان تشربَ شيئا؟ (وشركات الطيران كريمة جداً في الدرجة الأولى)، فقلت لها: شكراً ، لا أحتاج الى شيء. ثم مرت ثانية وقالت: أتريد أن تأكل شيئا؟ فقلت لها أيضاً: شكراً ما بي حاجة إلى شيء.

وجاء وقت الطعام في الطائرة فتناولت مقداراً من الطعام خفيفا كافيا ، كما أفعل حينما أجْلِس في بيتي إلى المائدة.

وكان إلى الجانب الآخر مني مسافر (يبدو انه تاجر، من أوراق كان يحملها ولا يفتأ يقلبها بين يديه) نادى المضيفة (قبل أن يجلس في مقعده) وطلب شيئا يشربه. وبعد بضع دقائق طلب أشياءَ يأكلها. وفي مدى أربع ساعات ونصف ساعة (بالاضافة الى نحو نصف ساعة قبل إقلاع الطائرة) لم يهدأ فكُّ هذا المسافر. ولما حان نهوضنا من مقاعدنا للنزول من الطائرة تناول قطعة حلوى فقضم نصفها ثم ألقى نصفها الآخر في الطبق أمامه ونزل على سلم الطائرة وحنكه الأسفل يتحرك (ونَسِيتُ أن أقول لك إنه في أثناء ذلك كله لم تهدأ السيكارة من الانتقال بين اصبعيه وفمه).

لقد لَفَتَ نظرِيَ (كما لفت نظرك أيضاً) أن هنالك أشخاصاً لا تكاد تراهم إلّا وهم يأكلون: في البيت ، في الشارع، في السيارة، في السينما، قبل

الجلسة في الجمعية أو في أثناء الجلسة، بين الدرس والدرس في المدرسة.
وقد رأيت مرة بعينَيْ رأسي نفراً جاءوا لزيارة مريض لهم في المستشفى (وفي مستشفى كبير جدا). فما كادوا يستقرون على مقاعدهم حتى أرسلوا أحدهم فرجع اليهم بطعام فجلسوا يأكلون كأنهم ما ذاقوا طعاما منذ شهرين . ولا أدري كم كان اهتمامهم بمريضهم في المستشفى.

لا أدري لماذا انتقلت بي مخيلتي إلى الزمن الذي كنا نسكن فيه في رأس بيروت وإلى الزمن الذي كنا نصطاف فيه في بقعة نائية من لبنان حينما كنت أرى نفراً من العجائز يجلسن ارضاً وأمام كل واحدة منهن خروف «تلقمه» باستمرار، وقد سمن ذلك الخروف حتى عجَز عنِ النهوض على قوائمه.

هذا المنظر الذي كان مألوفاً جدًّا في الخريف كان ينتهي في أول الشتاء ـ إذ كان ذلك الخروف يُعَدُّ لعمل «القورمة» لأيام الشتاء الباردة. ولم يكن ذلك الخروف ذا نفع في ميدانٍ آخرَ من ميادين الحياة الإنسانية.

١٩٨٠/١٠/٤

المجازفة بالحياة

سبق أن قلت ـ في إحدى هذه الكَلِمات ـ: ليس هنالك خطأ كبير وخطأ صغير. إن الخطأ خطأ إينما كان، وجميع الأخطاء واحدة في المقدار. ولكنّ هنالك نتائجَ لهذه الأخطاء والنتائج هي التي تكون كبيرةً أو صغيرة.

كان لنا زميل في صناعة التعليم كان رجلاً ناضجاً، وكان يعلم العلوم الطبيعية (والفيزياء خاصة) فقد هذا الزميل زوجته، وكان قد بلغ الستين من العمر.

ورأى هذا الزميل أن يتزوج ليستعين على «متاعب الحياة» بزواج جديد. دعانا إلى حفلة في بيته الجديد، وكان يبدو في أثنائها كأنه يحتفل بزواجه وهو ابن خمسة وعشرين عاماً. تزوج أرملة في الثلاثين من عمرها.

إن الرجل إذا كان فلاحاً أو حداداً أو نجاراً (يعمل أعماله اليومية بعضلاته) جاز له أن يتزوج وهو في الستين أو في السبعين أو بعد ذلك (أعرف صديقاً ولد لما كان عمر أبيه مائة عام وعامينِ، وعمر أمه سبعة وعشرين عاماً) ولكن المعلم الذي ينفق في أعماله اليومية من المادة السنجابية التي تغلف دماغه لا يجوز أن يفعل ما يفعل الحداد والنجار والفلاح.

كنت في الحين بعد الحين أرى هذا الزميل يريد أن يصعد السلم في المدرسة فيمسك بالدرابزين ثم يرتاح كل خمس درجات مرة.

وفي يوم من الأيام ارتكب خطأ أكبر.

كان في المختبر يعد تجربة لدرس الفيزياء فوقع أرضاً. فأسرع مساعده على التلفون ليستدعي أقرب الأطباء إلى بناء المدرسة. فرفض الزميل ذلك لأن هذا

الطبيب كان من قبل تلميذاً في الصف الذي يعلمه هو، وأصر على أن يُستدعى طبيب لم يحضر دروسه.

وآستجابتْ إدارة المدرسة لرغبة الزميل الكريم، ولكن الطبيب البعيد وصل بعد فوات الأوان.

أنا لا أقول إن الطبيب القريب من المدرسة لو جاء في الوقت المناسب لكان ذلك الزميل يحيا بيننا الآن (فأن الأعناق والأرزاق بيد الله). ولكن هذا الزميل ما كان على حق لما قام بتلك المجازفة: انتظار الطبيب البعيد حتى يصل.

دخلت المستشفى خمس مرات. وفي مرتين من هذه المرات تولى العناية بي طبيب كان تلميذاً لي. وفي إحدى تينك المرتين كانت الحالة التي أشكو منها نادرة جداً، وكانت مخطرة. لقد اجتمع حولي يومذاك عدد كبير من الممرضات وعدد مثله من الأطباء، وفيهم رئيس المستشفى نفسه، حتى إنني ما كنت أستطيع أن أبصر شيئاً مما كان حولي في الغرفة.

ولما أتمّ الطبيب الذي كان تلميذاً لي عنايته بي، هنأني الطبيب الكبير رئيس المستشفى ـ وكان قد حضر هذه العناية من أولها إلى آخرها ـ وقال لي: لقد وفرتَ على نفسك عملية جراحية.

١٩٨١/١٠/١٠ ١٩٨١/١١/٢١

غبار المتنبّي

المتنبّي سيّدُ الشُّعراء. وآختلافُ الناسِ فيه ـ على كَثْرتهم وتضارُبِ آرائهم ـ دليلٌ على رُفعةِ مَقامه. كان المتنبّي في بلاط سيف الدولة ومَعَه مائةُ شاعرٍ لم يثبُتْ إلى جانبه (على بَراعة نفرٍ منهم في قول الشعر) إلا أبو فراسٍ آبن عمٍّ سيفِ الدولة أميرِ حَلَب. ولولا مكانُ أبي فراسٍ من سيفِ الدولة (في القَرابة والحُكم) لَغطّى المتنبّي على أبي فراسٍ أيضاً.

وكان سيفُ الدولة يدفع للمتنبّي في كل عامٍ أربعةَ آلافَ دينارٍ على أربعِ قصائدَ (أو أقل)، فإذا قالَ المتنبّي قصيدةً خامسةً أو سادسةً أو أكثرَ، أعطاهُ سيف الدولة ألفَ دينارٍ على كلِّ قصيدةٍ بعدَ القصيدة الرابعة.

وغِيظَ الشعراءُ التِّسعة والتِّسعون وقالوا لسيف الدولة:

أنت تعطي هذا الشاعرَ (وكان آسمُ المتنبّي شَجاً في حُلُوقِهم) ألفَ دينارٍ على القصيدةِ الواحدةِ. ونحنُ مائَةُ شاعرٍ نَستطيعُ أنْ نمدحَكَ بمائةِ قصيدةٍ نأخذ عليها مائةَ دينار. فقال لهم سيف الدولة: «من أجل ذلك أنا أُفَضِّلُ المتنبّي».

ويَئِسَ هؤلاء من سيف الدولة فجاء أحدُهم إلى المتنبي وقال له. أنت تزعُمُ (بضمّ العين) أنّك أشعرُ الشعراء. أعْطِني قصيدةً من قصائدك وأنا أعارِضُها بقصيدةٍ أفضلَ منها. فقال له المتنبّي: حُبّاً وكرامةً. خُذْ هذه القصيدةَ «لِعَيْنَيْكِ ما يَلْقى الفؤاد وما لَقِي». فقال الشاعر: ليستْ هذه أفضلَ قصائدك، فأعْطِني غيرَها. فقال له المتنبّي: لا بأسَ، جرِّبْ حظَّكَ بهذه القصيدة.

ومضى الشاعرُ في مُعارَضَة هذه القصيدةِ بيتاً بيتاً (ويبدو أنّه لم يكن قد قرأها كلَّها من قبل) حتّى وصل إلى البيت التالي:

إذا شـاء أن يلهـو بِلِحيـةِ أحمقٍ أراهُ غُباري ثم قالَ له: آلَحقِ!

إنّ هذا الشاعر كان ذَكِياً. فلمّا وصلَ إلى هذا البيت أدركَ ما قَصَدَه المتنبّي. وَوَقَفَ دون إتمامِ معارَضَةِ القصيدة. ولكنّ نفراً كثيرين من أمثالِ هذا الشاعر ما زالوا (إلى اليوم) يَرْكُضون في غُبار المتنبّي ثمّ لا يَرَوْنَ شيئاً (من كَثْرَةِ الغُبار الذي يُخَيِّم عليهم). والذين لم يَلْحقوا المتنبّي في البراعة في الشعر لم يكونوا قدِ آتّخذوا العُدّةَ التي اتّخذها المتنبّي من قبلُ. من أجل ذلك أصبحَ المتنبّي حيثُ أصبحَ ثمّ بَقُوا هُمْ حيثُ كانوا.

١٩٨١/٢/٩

لَمَحات

نحنُ شِـدْنا الإِيـوانَ أيـامَ كِسْـرى وآنْتَقَمْنـا من صـاحبِ الإِيـوانِ.

ونَصَـرنـا العبّـاسَ فينـا على الـزّا بِ، ومِلْنــا على بـني مَـروانِ.

ونَـفَـرنــا للغَـرْب فـي طَلَب الـ ـمُلْكِ وأُبْنـا لِلشّـرق بـالسُّلطان.

وحَمَيْنـا الشُّعورَ في الغَـرب وَالشّـ ـرْقِ قَـديمـاً وفي بني عُثمـانِ.

فـإذا غـابِـرُ الـزّمـانِ أمـانٌ، وإذا مُـقْبِـلُ الـزّمـانِ أمـانـي.

١٩٣١

شيئان لا قيمة لهما في نفسيهما:
المال والذكاء

حينما يذكر الناس «الحرمان» فإنهم في العادة يقصِدون «قلة المال في أيديهم». وهذا رأي خاطىء. فإن الإنسان يستطيع أن يستغني عن كثير من حاجاته المادية ثم يكون أحسن صحة وحالاً ومكانة. «الحرمان هو أن يوهب الإنسان فكراً ثم لا يستخدم هذا الفكر في وجوهه الصحيحة».

أنا لا أُنْكر أن الجَد (بفتح الجيم) أو البخت أو الحظ.موجود، ولكنه أمر عارض في الحياة الإنسانية، وليس القاعدة.

هنالك شيئان لا قيمة لهما في نَفْسَيْهما: المال والذكاء. هذان رأسَا مالٍ عظيمان. ولكن إذا لم يحسن صاحبهما استخدامهما لم يكن لهما فائدة، وربما كانا نِقمةً (بكسر النون) عليه أي عذابا.

لعل البحث النظري في المحرومين والمجدودين (المحظوظين) قليل الجدوى. من أجل ذلك سأضرب لك مثلين مع شيء من الموازنة.

هنالك نفر من الناس يظنون أنهم يحبون الموسيقى. يشتري أحدهم مسجلاً وعدداً من شريط الغناء (الافرنجي، مثلاً)، ثم يدأب ليل نهار (أو ليلاً ونهاراً) على تكرارها ثم يجعل بوق المسجل إلى خارج مسكنه ويرفع الصوت إلى نهايته.

هذا المحظوظ المحروم يجهل شيئين: أحدهما أن للأصوات طبقات، فإذا رفعنا طبقه إلى نهاية قصوى بطل كثير من خصائص تلك الطبقة. كان صوت محمد عبد الوهاب يمتاز بالشجى (ببُحة خفيفة في الحنجرة). والعرب يحبون هذه الخاصة. فإذا أنت رفعت صوت «آلة التسجيل» فوق ما يجب، بطل أن يكون ما تسمعه صوت محمد عبد الوهاب أو الطبقة التي آلتزمها محمد عبد الوهاب في غنائه.

وأسأل أنا هذا الرجل: هل سبق لك أن حضرت «أوبرا» برلين؟ هل سبق لك أن حضرت حفلات موسيقية مألوفة (كلاسيكية) أو مُحدَثة (رومانتيكية) في غفاندهاوس في ليبزغ؟ هل سبق لك أن سمعت المغنية التي تسمى «الهزار»؟ هل جلست إلى رئيس المعهد الموسيقي تتكلم معه في عدد من وجوه العزف والألحان؟ هل سمعت أم كلثوم في عام ١٩٣٣؟ هل سمعت بأسمهان.

فإن قال لي: لا، لم أفعل، كان عندي معذوراً (لأنه ـ في الحقيقة ـ محروم). وإن قال: نعم، لم يكم معذورا: بل كان عندي مَلوماً. إنني أستغرب أن يسمع الإنسان الموسيقى الصحيحة ثم يطربه أن يسمع «ضجة من الخبط على سطح رقيق من الخشب أو المعدن».

هنالك نوع آخر من المحرومين: أولئك الذين يسوقون سيارات (لهم في الأقل، أو ليست لهم في الأكثر). إن هؤلاء، في العادة لا عمل لهم. إنهم يركبون السيارة لتضييع الوقت. أحدهم يدور في الحي ظهراً أو عشاء أو في منتصف الليل (هذا الشخص لا يفرق بين أوقات الليل وأوقات النهار، إذ التفريق بينهما لا قيمة له، ما دام الوقت نفسه لا قيمة له عند هذا الشخص).

وينطلق هذا الشخص بسيارته بسرعة هائلة عنده (سبعين كيلومتراً في الساعة أو ثمانين أو تسعين ـ لأن سيارته لا تستطيع أن تسير أكثر من ذلك، أو لأن المسافة التي يستطيع قطعها: مائة متر أو أكثر قليلاً أو أقل قليلاً ـ في شوارعنا نحن) لا تمكنه من ذلك، فبلوغ السرعة القصوى يحتاج إلى زمن. هذا الشخص في العادة (مثل الشخص السابق صاحب الآلة الموسيقية بصوتها العالي) لا يريد أن يسوق سيارة، بل يريد أن يقول للأفراد القليلين الذين حوله إنه يسوق سيارة.

كنا راجعين من لندن، وموعد اقلاع الطائرة الساعة الحادية عشرة والربع قبل الظهر. قبيل ذلك الوقت خرج إلينا قائد الطائرة وقال معتذراً: سنتأخر في

الاقلاع ربع ساعة (إن الطائرات الواصلة كثيرة ـ والمطار يستطيع أن يؤجل إقلاع الطائرات، ولكنه لا يستطيع أن يؤجل هبوط الطائرات) ولكن ـ وقد تابع قائد الطائرة كلامه ـ سنحاول استعادة هذا التأخير في أثناء سفرنا.

وبدلاً من أن تسير طائرتنا بسرعة تسعمائة وخمسين كيلومترا في الساعة، سارت بسرعة ألف كيلومتر. ووصلنا إلى بيروت في الوقت الذي تصل فيه الطائرة من لندن عادة حينما تقلع في الوقت المعين.

وفي أواسط العام الماضي (١٩٧٩) كان مؤتمر في فرنسا، ولكن عقد في منطقة العين (وهي أقصى بقعة استقر فيها العرب في فرنسا) قرب أورليان، على نحو مائة وسبعين كيلومترا جنوب باريس. فانتقلنا من باريس إلى العين بالسيارات (أعني بالسيّارات القوية) وعلى الجادّة (الأتوستراد). كان في كل سيارة كادايلاك (أو كادالاك، كما يقول بعضهم) ثلاثة ركاب والسائق. كنت ألحظ ابرة العداد تشير في الحين بعد الحين (وعلى مسافة عشرة كيلومترات أو أقل أو أكثر) إلى مائة وتسعة وخمسين (ولم أرها تبلغ مائة وستين). ومع ذلك فقد كان السائق يخفض السرعة مرة بعد مرة. ثم قطعنا الرحلة لأن المسافرين كانوا يحتاجون إلى شيء من الراحة ومن غير الراحة. وكذلك كانت السيارات...

ستقول لي: إن أولئك الذين يرفعون أصوات آلاتهم الموسيقية وهؤلاء الذين يسيرو ن بسيارتهم مسرعين على غير هدى، وهم يحدثون بها أصواتاً شديدة يزعجونك فتبغضهم. لا. إنني لا أحد انزعاجاً منهم، ولا أنا أحقد عليهم. إنني ـ في الواقع ـ أشكرهم لأنهم يتيحون لي فرصة جديدة ألتفت بها إليهم وإلى نفسي ثم أشكر الله مراراً على أنه خلقني كما خلقني.

١٩٨٠/١١/٨

كافورٌ الإِخشيديُّ

يكون الآباء في العادة مفتونين بأبنائهم، وخصوصاً الحكام الذين يسعون في أن يأتي أبناؤهم إلى الحكم بعدهم. وأول من سنّ هذه السُّنَّةَ السيئة في الإسلام معاوية بن أبي سفيان لما ضمن الخلافة بعده لابنه يزيد.

ومنذ ذلك الحين، منذ أيام معاوية ويزيد، نشأت مشاكل في التاريخ يعرفها جميع الناس. وأسباب ذلك كثيرة أحدها أن يزيد لم يكن في المقدرة الشخصية والاجتماعية والعلمية والسياسية وفي الصلاح للحُكم مِثلَ أبيه. وفي التاريخ أمثلة كثيرة من مِثلِ ذلك، أكتفي منها بمثلين اثنين.

١) كان آل الاخشيد يحكمون في مصر منذ ٣٢٤ للهجرة (٩٤٥ م)، وكان أولهم الإخشيدُ محمد بن طُغُجٍّ قدِ آشترى عبدا أو أسود رقيقاً يدعى كافورا (ويعرف باسم كافور ـ بكسرتين على الراء ـ الاخشيدي). وحكم من أبناء محمد آبن طغج اثنان انوجور وعلي. وتوفي علي وترك صبياً اسمه أحمد وعمره تسع سنوات، فانتهز كافورٌ (بضمتين على الراء) الفرصة واستبد بالحكم. وأشار نفر من المقربين لآل طغج على كافور بإقامة الدعوة (جعل الحكم في الظاهر على الأقل) لأحمد بن علي فاحتج بصِغَر سِنّهِ. ولا شك في أن كافورا قد نظر إلى مصلحته ثم كان على كل حال أفضل من طِفل عمره تسع سنوات.

٢) وكان للحَكم المستنصر المرواني (في الأندلس) ابن اسمه هشام رزق به على كِبَرٍ، وحرص الحكم على أن يأتي بعده ابنه هشام فأقام عليه وصياً، هو المنصور بن أبي عامر. ولما مات الحكم كان عمر هشام إحدى عشرة سنة. فاختار المنصور بن أبي عامر أن يحجب (يحبس) هشاماً في القصر وأن يلهيه بالترف

والنساء وأن يتولى هو الملكَ مكانَه (ظل هشام يدعى خليفة، ولكن لم يكن له من الأمر شيء) معَ أن المنصورَ كان في الأصل وزيراً.

وحكم المنصور بن أبي عامر في الأندلس ستة وعشرين سنة قام في أثنائها بخمسين غزوة إلى بلاد الاسبان لم ينهزم في واحدة منها قط، وكان من حسن حظ المسلمين في الأندلس أن جاء المنصور بن أبي عامر إلى الحكم ورد الاعتداء عن الأندلس زماناً طويلاً.

وقد قال ابن خَلدونٍ في مقدمته المشهورة: «وكان الحجاج بن يوسف والمنصور بن أبي عامرٍ وأمثالهما أحقَّ أن يُدعَوا (بفتح العين) في الملوك والخلفاء لا في الولاة والوزراء».

١٩٨٢/٤/٣

لَمَحات: اللغة العربية

هامَ المُحِبُّ بِوادي حُبِّها وَلَها، إذِ الحياةُ غَدَتْ من أجْلِها وَلَها.
وكم فتىً هامَ في جَنّانها ولَها لأنّها كَوْثَرٌ عَذْبٌ لِوارِدِها.
فيا هَنيئاً لِمَنْ قد رامَ مَنْهَلَها.

١٩٢٤

قبل الموت وبعده

دعني، هنا، من ذكر الأسماء.

عالم من علمائنا الكبار مرض في آخر حياته مرضا يسهل علاجه، ولكن العلاج كان لا يسير في الطريق المعبَّد.

تُوُفِّيَ هذا العالم الكبير من علماء بيروت.

وفي الصباح الباكر جاء رئيس الوزراء للتعزية به وهو يحمل خمسة آلاف ليرة (عام ١٩٤٤). في دفتري الذي كنت أُدَوِّن فيه ما أشتري للبيت (قبل أن نرزق أولاداً): هذه «الأغراض» (بقلم واحد، لأنني أستطيل تدوين كل غرض مع ثمنه)، وفي عام ١٩٤٤ نفسه.

هذه هي الأغراض (الوزن بالغرام): برتقال ١٢٠٠، بندورة ٦٠٠، باذنجان ٢٠٠٠، رمان ١٠٠٠، لحم ٣٠٠، سفرجل ٥٠٠، خبز (عدد ٥)، فجل (عدد ٢)، كزبرة (عدد ١). وكان مجموع الثمن ٦٢٠ قرشاً فقط لا غير. (وثمن هذه اليوم خمس وأربعون ليرة في الطريق الجديدة، لا في شارع الحمراء).

ولم يكتف رئيس الوزراء بهذا المبلغ، بل عين ابن ذلك العالم في وظيفة في الدولة وعين ابنته معلمة في المعارف (فيما أذكر). ولم يكن لذلك العالم غير هذين الولدين.

ثم توفي رجل معروف أيضاً، كان في وظيفة دقيقة في الدولة (لا تسلني عن اسمها، فالأمر يتعلق بالضمير والوجدان). لا أريد أن أقول لك ما الذي لقيه هذا الموظف في أيام خدمته، ولكن أريد أن أقول لك إنه أحيل مرة إلى المجلس التأديبي وأُخْرِجَ من وظيفِته.

وفي ذكرى أربعين هذا الموظف أقيمت حفلة تأبين جامعة وتكلم فيها نفر يحبونه ونفر لا يحبونه.

وفي هذه الحفلة منح هذا الموظف وساماً «تقديراً له بعد الوفاة».

لو أن رئيس الوزارة الأول منح ذلك العالم الكبير ذلك المبلغ الصغير (خمسة آلاف ليرة) لسارت معالجة المرض سيرها الطبيعي.

ولو أن رئيس الوزارة الثاني تذكر، وهو يعلق وساماً على «مخدة» باسم موظف ميت (بسكون الياء)، أن ذلك الموظف كان قد أحيل إلى المجلس التأديبي . . .

١٩٨٢/٤/١٧

لَمَحات

من قصيدة في اللّغة العربيّة أُلْقِيَتْ في جمعيّة العُروة الوُثقى في الجامعة الأميركية في بيروتَ عامَ ١٩٢٤ :

أمُّ اللُّغاتِ نُفَدّيها وتَفْدينا. والروحُ عَزّتْ، ولكنّا نُؤدّيها.
فيا رَؤوماً عَلَيْنا في تَبَدّيها، إذا آفْتَرَقْنا ـ حَنانَيْكِ ـ أمِدّينا
بِعُروَةٍ مِنْكِ وُثْقى لا آنْفِصامَ لَها.

الحُوار المُجدي

هذه القطعة ليست، عند التحقيق، من غبار السنين. إنها لا تنفض شيئاً من غبار الزمن، ولكنها تنفض أشياءَ كثيرةً من غبار هذا الوطن.

منذ أعوام كثيرة، أو منذ سبع سنوات على الأقل ـ ولنسم الأشياء بأسمائها ـ يتظاهر اللبنانيون بالدعوة إلى الحوار. فما دام في هذا الوطن، لبنان، عصبيات كثيرة، فلا يمكن أن تحيا هذه العصبيات المختلفة (كيلا أقول المتناقضة) حياة هادئة سليمة إلا بعد الاتفاق على قدر من الوفاق والتفاهم. ولا شك في أن الحوار يمكن أن ينتهي بالمتحاورين أحياناً إلى شيء من حسن الجوار.

فمنذ سبع سنوات يتداعى اللبنانيون إلى إقامة حوارٍ: المسلمون يدعون إلى مثل هذا الحوار، والنصارى يدعون إلى مثل هذا الحوار. والزعماء والرؤساء والمتطرفون يميناً والمتطرفون يساراً والمعتدلون وسطاً، والناصحون من العرب الآخرين ومن الافرنج يحثون الأنصار منا والخصوم على البدء بهذا الحوار.

ونشهد، في الفَنية بعد الفينة، على صفحة «المرياء» نفراً من كبار القوم يجلسون ويتحاورون. ولكنهم لا يتحاورون الحوار المطلوب، أيِ الحوارَ المجدي. وسبب ذلك أن كل واحد من هؤلاء لم يأت ليحاور عن قومه، بل جاء ليعرض نماذج من آرائه: تلك الآراء التي نسمعها في أوقات مختلفة في معان مختلفة ومَبانٍ مختلفة، وكأن كل محاور من هؤلاء وهؤلاء قد نسي اليوم ما قاله بالأمس.

وهذا الحوار لم يصل بالمتحاورين إلى نتيجة.

وأخيراً جاء رجل فبدأ حواراً صحيحاً ـ مع أنه لم يقصد أن يبدأ حواراً ـ وما دام هنالك رجل قد بدأ حواراً صحيحاً بعد أن وضع له قاعدة (وهذا هو المهم في

كل وجه من وجوه الحوار)، فقد أصبح عمله ذلك دعوة واضحة إلى الذين يريدون أن يتحاوروا حواراً نافعاً.

في مساء ٨١/٤/٢٢ (الثاني والعشرين من نيسان من هذا العام) ظهر في «المرياء» جوزف أبو خاطر ـ وهو المحامي والسياسي والعامل في جمع الصفوف، ثم عمل سفيراً وتولى في هذا الوطن مراراً وزيراً ـ وقال، في معرض الكلام على معالجة الأحوال الحاضرة: لا يجوز في مثل هذه الأحوال أن يختلف الباحثون على «المناصب والمغانم» (هاتان الكلمتان من كلامه).

هذا أساس صحيح واضح للحوار:

لا يجوز لأحد الجانبين ـ عند البحث في شؤون الوطن العامة ـ أن يتطرق إلى شؤون خاصة من حظ أهل جانبه في المناصب والمغانم.

هنا يبدأ الحوار:

لا يجوز أيضاً أن يفترض أحد الجانين أن الرئاسة الفلانية له وأن القيادة الفلانية من حقه (عُرفاً على الأقل) أو أن المنصِبَ في الأمر الفلاني له.

ثم لا يجوز في معنى الوطن أن يكون في أحد الجانبين موظفون من أحد الجانبين فقط، بينما يكون الموظفون في الجانب الآخر من الجانبين معاً.

وكيلا نضيع نحن والقارىء في مثل هذه الإشارات أضع للحوار المجدي هذه الأسس (والذي أعتقده أنْ لا مخالف لي في ذلك. وإذا كان أحد يرى أن هذه الأسس التالية غير صالحة، فهذه صفحات الصحف مفتوحة لإعلان الآراء):

- جميع المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات.
- جميع المناطق مفتوحة لجميع المواطنين.
- جميع المناصب في الدولة حق لجميع المواطنين إذا تساوَوا في الأهلية.

- جميع المناطق يجب أن تنال من عناية الدولة قدراً واحداً.
- ليس في الوطن امتيازات خاصة بجماعة دون جماعة.
- من العدل أن تنال كل جماعة من المناصب والمنافع (قدراً ونوعاً) ما تستحقه كثرتها العددية (فإن ذلك من الديموقراطية).

- يجب أن يكون الحكم في لبنان واضحاً: غير فاعل وغير مسؤول (كالنظام الملكي في بريطانية)، أو فاعلاً ومسؤولاً (كالنظام الرئاسي في الولايات المتحدة).

- لجميع ربوع الوطن حرمة واحدة: لا يجوز إذا حدث قصف مرة على الشرق (مثلاً) أن تقوم الأرض ثم لا تقعد، أما إذا كان القصف على الجنوب (مثلا)، يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع وشهراً بعد شهر وعاماً بعد عام، فلا يسمع صوت من الغرب ولا من الشرق.

أنا أُوَقِّعُ هذه الأسس، وغيرَها من مثلها أيضاً، فهل من محاور يوقع عليها، وحينئذ لا يبقى حاجة إلى حوار. إن القَبول بهذه الأُسُس - ما دامت هذه الأسس من حق الفريقين المتحاورين على السواء - يعني أن لا فضل لشرق على غرب ولا لغرب على شرق، ولا آمتيازات لأحد دون أحد، ولا ضمانات من أحد لأحد. إن مثل هذه المطالب لا تكون بين المواطنين ولا بين الأصدقاء والأحباب.

١٩٨١/٥/٤ ١٩٨١/٥/٩

النعامة الذكية

من المعروف في العلوم الطبيعية أن العين لا ترى. إن العين زجاجة، إذا كانت صحيحة نَقَلَتْ أشباح الأشياء الى الدماغ، والدماغ هو الذي يفسّر هذه الأشباح ويفهم ما تدل عليه، وعلى هذا الأساس نفسه نستطيع أن نقول: إن الاذن لا تسمع، ولكنها واسطة للسمع الذي يقوم به الدماغ أيضاً.

وهنا نأتي إلى مُشكلةٍ أشدَّ تعقيداً.

لا يكفي أن تكون العين سليمة صحيحة حتى تنقل الشبح إلى الدماغ نقلاً صحيحاً، بل لا بد من أن يكون الدماغ نفسه صحيحاً حتى يستطيع فهم تلك الأشباح التي تنقل إليه.

إن نفراً من الناس يَرْوُنَ الكلام والأمثال ولا يدرون ما يعني ذلك الكلام ولا ما تعني تلك الأمثال. هم يقولون، مثلاً أقسم فلان يميناً غموساً (بفتح الغين) ويقصدون يميناً صادقة شديدة (لأن اليمين مؤنثة، فإن الإنسان يقسم أو يحلف وهو يمد يمينة أي يده اليمنى). والصحيح أن اليمين الغموس هي اليمين الكاذبة.

وعلى هذا الأساس يَظْلِمُ هؤلاء النفر ذلك الطائر الذي لا يطير والذي نسمّيه نحن «النعامة» ويقولون عنها إنها طير غبيّ لأنها إذا رأت الصياد «دفنت» رأسها في الرمل كيلا تراه فتحسب حينئذ أنه هو أيضاً لا يراها. ثم هم لا يكتفون بذلك بل يخترعون مثلاً غبياً آخر ويقولون: «فلان كالنعامة»، ويقصدون أنه يتغافل عن الخطر المقبل عليه.

والحقيقة والواقع معاً أن النعامة ذكية جداً وأنها فوق ذلك يَقِظة (بفتح فكسر)، فإنها بين الحين والحين تضع أذنها على الأرض (ولا تدفن رأسها في الرمل). كما يظن أولئك النفر من الناس. أن النعامة إذا هي وضعت أذنها على

سطح الأرض استطاعت أن تسمع الحركات التي تحدث على وجه الأرض، ويبدو أيضاً أنها تفرق بين أنواع الحركات، فتعرف ـ مثلاً ـ وقع قوائم الحيوانات التي لا تؤذيها ووقع قوائم الحيوانات التي تؤذيها ـ وإذا هي سمعت صوت حركة سير (على الأرض) من حَيَوانٍ (أو من انسان) من طبيعته أن يريد بها شراً (مما تدلُّها غريزتها عليه)، فإنها تدرك الجهة التي يأتي منها صوت تلك الحركة فتفرّ هي في الجهة المقابلة لتبتعد عن الخطر قدر إمكانها.

من أجل ذلك، لا يجوز لنا أن نستمر في القول: فلان كالنعامة يدفن رأسه في الرمل كيلا يرى شيئاً ثم يحسب أن لا أحد يراه. بل يجب أن نقول: فلان ذكي يقظ كالنعامة يتنسم الخطر قبل أن يقترب منه الخطر ثم يفر من ذلك الخطر في الوقت المناسب.

١٩٨٢/٣/١٩ ١٩٨٢/٤/٢٤

عيسى بن مسكين

كان عيسى بن مسكين (توفي ٢٩٥ هـ = ٩٠٧ م) رجلاً صالحاً عالماً من أهل إفْرِيقِيَةَ (تونس).

مات قاضي البلد فطلب الوالي (ابراهيم بن احمد بن الأغلب) من عيسى آبن مسكين أن يتولى القضاء. فأبى عيسى. ثم إن الناس أجمعوا على الطلب من «عيسى بن مسكين» أن يتولى القضاء لأنه يصلح للقضاء، وقالوا له: إن القضاء واجب ديني، فإذا لم يتوله من هو أهل له كان آثماً.

عندئذ قال عيسى بن مسكين: «أنا أقبل أن أتولى القضاء على شرط: لا أزور ولا أُزار، ولا أهنىء ولا أعزي، ولا أستقبل ولا أودع. ثم أن الوالي وأهله وأنصاره عندي بمنزلة واحدة مع عامة الناس.» فقبل الناس منه ذلك فتولى القضاء.

* * *

لقد أصاب عيسى بن مسكين في طلبه ذلك. إنه كان يعلم أنه إذا قضى وقته في زيارات الناس وزيارات الناس له، وفي استقبال كل عائد من سفر وتوديع كل مسافر، فمتى يستطيع أن يتفرغ للقضاء بين الناس. وإذا كان للحاكم ولأهله وأتباعه مركز ممتاز عند القاضي، فما يبقى من قيمة القضاء بعد ذلك.

* * *

. . . كلما فتحت الجريدة في الصباح رأيت فيها تحرك رئيس الوزراة (مثلاً): حديث للراديو وآخر للتلفزيون. خطاب في النادي الفلاني، واحتفال في القاعة الفلانية، وسفر إلى هناك وحفلة على شرف فلان، وآفتتاح للمعرض الفلاني

ورعاية لآجتماع فنِّيّ. ثم هنالك الزائرون من قبل طلوع الشمس إلى ما بعد نصف الليل.

... لقد فتحت الجريدة اليوم فتذكرت عيسى بن مسكين، فكتبت هذه القطعة...

٨١/١/١٦

١٩٨١/٢/٧

لَمَحات

قـد شَهِدتُ اللَّهـوَ مَعسولَ الجَنى — وتَسلّيـتُ كمـا يَـعْـدو النَّـمِـرْ.

وشَـرِبتُ الخمـرَ من نـاجـودِهـا — ذهَبـاً مِـثـلَ الشُّعـاعِ المُنكَسِرْ.

هَـرِمَتْ في الـدَّنِّ حتّى بُـزِلَـتْ — فَهْيَ في أحشـائـهِ مـا تَسْتَقِـرّ.

تنفَـحُ النُّـدمـانَ منـهـا أرَجـاً — وتَـرُدُّ المَيْتَ حيّـاً قـد نُـشِـرْ.

كـم شَـرِبْنـاهـا بِلَيْـلٍ بـاردٍ — فَـرَمَتْنـا بِـجحـيمٍ مُـسْتَـعِـرّ.

وَهْيَ في اللَّيـلِ ـ ولا نَجْمَ بـه ـ — في نواحي البَيتِ صُبْحٌ قـد سَفَرْ.

١٩٣٢

لقاء رجلــين

جميع الناس يتكلمون الآن على القدس: العرب وغير العرب، في الشرق وفي الغرب. وهذه قصة رجلين أمام أبواب القدس:

لما اتّسع الفتح الإسلامي كان الروم يحكمون الشام (سورية، وفلسطين طبعاً، والقدس بطبيعة الحال). واتفق أن كان ملكَ الروم هِرَقْلُ العظيم.

كان في بلاد الروم مذهبان دينيان يتنازع أهلهما ويتقاتلون في الشوارع. وخطر ببال هرقل أن يأخذ أشياءَ من هذا المذهب وأشياء من ذلك المذهب ويوفّق بينها ليعود رعاياه كلهم أتباع مذهب واحد فَيَحِلَّ بينهمُ الوفاق والصفاء والسلام.

غير أن الذي حدث فعلاً أن المذهبين أصبحا بعمل هرقل ثلاثة مذاهب.

وأثار عمل هرقل عاصفة في بلاد الروم وفي البلاد الخاضعة لبلاد الروم. وكان في القدس بطريرك اسمه صفرونيوس يخالف هرقل في آرائه الدينية.

في ذلك الحين نفسه اتفق أن عمرو بن العاص كان يحاصر القدس لينقذها من حكم الروم الفاسد في كل جانب. وأدرك البطريرك صفرونيوس أن الجيش الرومي عاجز عن الدفاع عن المدينة، وأن محاولة الدفاع عن المدينة محاولة خاسرة لن يكون منها إلا الخسائر في النفوس والأموال.

وأرسل صفرونيوس يقول لعمرو بن العاص إنه يسلم المدينة للمسلمين بلا قتال إذا جاء خليفة المسلمين ليتسلمها شخصياً. فلما وصل الخبر إلى عمر بن الخطاب لم يجد مانعاً (وهو الخليفة المنتصر) أن يذهب بنفسه لتسلم المدينة من البطريرك صفرونيوس.

ولما عرف صفرونيوس بقرب قدوم الخليفة عمر بن الخطاب آستعد

لاستقباله وخرج إلى الباحة التي أمام باب المدينة مع رجاله وهم في ثياب من الحرير والديباج وفي حلي من الفضة والذهب والجواهر. ثم وصل عمر بن الخطاب في نفر من أصحابه في ثيابه العادية التي يلبس مثلها جميع الذين معه. وكان عمر بن الخطاب وخادمه يركبان جملاً واحداً.

ولما آقترب عمر بن الخطاب ومن كان معه من باب القدس لم يستطع صفرونيوس أن يَتَبَيَّنَ الخليفة من المرافقين له، فسأل متعجباً: أيكم الخليفة؟

٨١/١/١٦ ١٩٨٠/٩/٢٠

لَمَحات

أَمَرَ الوزيرُ بأنَّ نُزَجَّ بِسِجْنِهِ. هلّا يُزَجُّ المُجْرِمُ المُتشرِّدُ؟
في كَلِّ ناحيةٍ وكلّ قَرارةٍ جانٍ أثيمٌ أو شَقِيٌّ مُفْسِدُ.
ويُزَجُّ في السِّجنِ البَريءُ ويختبي خلفَ الخِيانةِ آبِقٌ ومُهَدِّدٌ.
وَيْحَ البِلاد، أليسَ تَمْلِكُ في الأذى والظُّلْمِ الّا أنّها تَتَجَلّدُ؟

١٩٣١/٦/١٩

الجد والمزاح

يظن نفر كثيرون من الناس أن المزح إنّما هو الهزل والهزؤ والإتيان بأقوال وأعمال لا يحمل صاحبها تَبِعة في إتيانها. وهذا طبعاً خطأ. إنّ المزح أسلوب من القول كالجِدّ (بكسر الجيم). وربّما كان المزح (كما يقول الجاحظ) أشدّ حرّاً من الجدّ نفسه. والغاية من المزح أن ننقل الرأي العنيف في قالب ناعم، وأن نأتي بالتلميح لعتاب قوم لا يَرْضَـوْنَ عن التصريح. غير أنّ أفضل المزح ما قَصَدَ إلى الإصلاح وتقويم الآراء من طريق المرح (براء غير منقوطة)، كما نرى في كتاب «كليلة ودمنة» من القِصص على لسان الحيوانات.

وفيما يلي ثلاثة أوجه اتّفق لي الاشتراك فيها:

(١) قال لي الأديب الكبير عمر فاخوري (وكان بيننا صداقة طويلة، ولكن غير عميقة): حروف آسمك مثل حروف آسمي، فقلت له: لا. في آسمي حرف علّة واحد. وفي آسمك جميع أحرف العلّة.

(٢) في عدد من المجتمعات (كالمآدب مثلاً) يفقد نفر من الناس أشياءَ من وَقارهم ثمّ يظنّون أن المزح مباح في كلّ حال. كنّا في مأدبة عامّة، وكان إلى جانب مائدتنا نفر يذهبون مثل هذا المذهب. فالْتَفَتَ واحد منهم إليّ وقال: مائدتنا أحسن من مائدتكم، مائدتنا عليها ستّات، فقلت له: بل مائدتنا أفضل لأنّ عليها سبعات.

(٣) والناس في المآدب العامّة طبقتان: طبقة يحبّ أفرادها أن يجلسوا إلى المائدة الرئيسة (ولا تقل: الرئيسية) أو قريباً منها ما أمكن. ثم هنالك طبقة من المدعوّين يحبّون أن يجلس الصديق منهم قرب صديقه ـ قريباً من المائدة الرئيسة أو بعيداً عنها.

اتّفق في مأدبة معينة أن كنا نفراً من الأصدقاء حول مائدة متطرّفة قليلة، وكان يجلس بجانبي صديقي الدكتور علي زيعور. وكذلك اتّفق أن فقد جانب من المدعوّين شيئاً من وقار المآدب الرسمية، فقال رجل من جانب قريب: طاولتنا أحسن الطاولات، إذ يجلس اليها رجال السياسة: رجال الكلمة النافذة في البلد. وقال آخر: نحن هنا على طاولة تجمع رجال التجارة الذين في أيديهم مفاتيح ازدهار الوطن. وشجّعت تلك الكلمات شخصاً فقال: نحن هنا أساتذة الجامعة، فردّ عليه شخص رابع بقوله: نحن هنا رجال الصحافة، رجال السلطة الرابعة.

حينئذ رفعت أنا صوتي وقلت: إنّ مائدتنا أفضل من كلّ مائدة سواها في هذا المكان وفي غير هذا المكان: مائدتنا يجلس إليها عمر بقرب عليّ.

١٩٨١/١/١٩ ١٩٨١/١/٢٤

القمح والشعير

ليس من الضروري ـ في سبيل معرفة ظواهر الأمور وبواطنها ـ أن تنتظر حتى يتراكم غبار السنين على كَتِفَيْـكَ، بل يكفي أن تنظر إلى الغبار المتراكم على أكتاف الآخرين.

إذا أنت فعلت خيراً في الحياة فلعلك لا تجد مَنْ يدرك قيمة عملك حق الإدراك أو بعض الإدراك. وربما كان هنالك من لا يدركه البَتَّةَ. ولعل هنالك أيضاً من يسيء إليك. أما إذا فعلت شراً فلا يمكن أن ترى من يكافئك عليه بخير ـ إن مثل هذا الافتراض مكافأة الشر بالخير مخالف للمنطق الإنساني وللعدل الإلهي.

والمثل المادي على ذلك:

إذا زرعت قمحاً فيمكن أن ينبت قمحك هذا نباتاً ضعيفاً أو نباتاً رديئاً أو لا ينبت أبداً. ولكن إذا أنت زرعت شعيراً، فلا يمكن أن ينبت من شعيرك قمح.

وهؤلاء الذين يزرعون الحِقد في كل بلد من بلاد هـذا العالم، مـاذا ينتظرون؟ ما الذي يريدون؟ هل يستطيعون أن يعيشوا في بلد زرعوا فيه الأشواك من كل نوع.

هم يظنون ـ لأنهم قِلّة في هذا العالم ـ أنْ لا أملَ لهم في حياة إلا إذا كانوا هم متحدين ثم كانت الكثرة حولهم مفرقة. هذا المبدأ صحيح ،إذا كانوا هم الذين يستطيعون أن يجعلوا الكثرة حولهم مفرقة ضعيفة. أما إذا كانوا يعملون بدافع من آخرين، فأنهم سَيَنْـطَوُونَ ـ لو أمكن أن ينجحوا ـ في استعباد أولئك الآخرين. ذلك لأنهم هم أنفسهم لا يدرون إلى أين سينتهي بهم مسيرهم.

منذ آثني عَشَرَ قرناً قال أبو نواس (ت ١٩٩ هـ):

ضلّ من يسعى إلى بلد غيرَ معروف مدى سفرِهْ.

. . . أظن أن مثل القمح والشعير واضح جداً.

٨١/٥/٣٠ ١٩٨١/٦/٦

لَمَحات

* مَنْ ذا الـذي كـان يمضي في الحـرب مِثْـلَ المَنـونِ؟
يَـمـيـلُ ذاتَ يَـسـارٍ فـيـهـا وذاتَ الـيـمـيـنِ.
ويَـنْـثَـنـي عـن قـتـيـلٍ فـي الـروم أو عن طَعينِ.
** قـد قِيـلَ فيـه كـثيـرٌ. وكُـلُّ مـا قـيـل ظَـنٌّ.
فـواحـدٌ قـال إنْسٌ؛ وآخَـرُ قـال جِـنٌّ.
* ومـا تـرى أنـتَ فـيـه؟ * واللهِ، كِـدتُ أُجَـنُّ.

١٩٣٢

متى يترك ابن رشد العلم؟

ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م) فيلسوف العصور الوسطى في الشرق والغرب وفي الإسلام والنصرانية، قال مرة: ما تركت العلم والمطالعةوالتأليف منذ عقَلت (منذ أدركت وأصبحت قادراً على فهم ما يقال) إلا في يومين: يوم زَواجي ويوم وفاة والدي».

كان ابن رشد ينظر في ذلك إلى حقيقة الحياة الإنسانية، وكان فيها قال أميناً مخلصاً. ويبدو أن هذا الرأي ليس رأي الكثيرين من الناس. في أيامنا هذه تكثر الدواعي إلى الاحتفال بالأحداث الكبرى في تاريخنا. وأول ما نفكر فيه في يوم الاحتفال أو في يوم الذكرى إغلاق المدارس:

اليوم ذكرى مولد فلان، اليوم ذكرى موت فلان، اليوم ذكرى المصيبة الفلانية واليوم ذكرى الفرحة الفلانية. ومصائبنا لا نهاية لها. وأفراحنا الموهومة لا نهاية لها أيضاً. وفي كل مرة تغلق المدارس آحتفالاً بالمصيبة أو بالفرحة.

أما دكاكين الفليبرز، أما دور السنيما، أما البارات والحانات والكازينات فهذه تبقى طول النهار وطول الليالي مُشرَعةَ الأبواب.

وحينما نطلق الأطفال والأولاد من صفوف المدرسة في ذكرى «استقلال مونتي نيغرو»، فإن التلميذ الصغير يخرج من باب المدرسة إلى دكان الفليبرز المجاور للمدرسة أو إلى أقرب دار للسينما. وحسبنا نحن «الكبار» أنّنا أغلقنا المدارس فرحاً بذكرى استقلال البرازيل أو كوريا الجنوبية أو الشمالية.

إن الاستعمار يصفق فرحاً ـ فرحاً حقيقياً ـ كلما أضاع العرب يوماً من أيام العلم، لأن كل يوم ضائع من أيام العلم يؤخر رقي العرب عشرين سنة.

ليس للعرب رقي إلا بالعلم وبالعلم الحقيقي الصحيح المفيد. وإذا كانت المدارس تعلم خمس ساعات في الأيام العادية، فأنا أقترح أن تعلم المدارس عشر ساعات في أيام الأعياد، حتى في يوم عيد الفطر، وفي يوم عيد الأضحى، وفي ذكرى المولد النبوي الشريف.

هذا إذا أراد العرب، أو القائمون على أمور العرب، أن يرتقي العرب أو أن يصبح العرب شيئاً في ميزان الحياة السياسية أو في ميزان الحياة الإجتماعية.

٨١/١/١٦ — ١٩٨١/١/٣١

لمحات: من شكسبير

أنــا إنْ أخْفَتَ الـحِمــامُ فُـؤادي ... وخَلَعْتُ الحيــاةَ عـن مَنْكِبَيَّــا،

لا تَـدَعْ زهرةً على النَّعْشِ فـوقي ... قـد كَساهـا الـربيـعُ زَهْـواً ورِيًـا،

لا ولا صــاحبــاً يَمُـرَّ بِقُــربي. ... حَسْبَـه مـا بكى وقــد كُنتُ حَيّـا.

ألـقِنـي حيـثُ لا يَـراني مُـحِـبٌّ ... عــاثـرٌ في الهــوى فيبكي عليّـا.

١٩٣٠

خمسة وستون عاماً في الصحافة (٦)

معظم الذين يكتبون في الصحف يكتبون كتابة خفيفة، ذلك لاعتقادهم أن الذين يقرأون الصحف يفضلون الأشياء الخفيفة، ثم لاعتقادهم أن ما ينشر في صحيفة سينسى غداً أو بعد غد.

أما أنا فقد حرَصت على أن أكتب دائماً أشياءَ من الجدّ قدر الإمكان، ولي على ذلك أدلّة منها الدليلان التاليان:

(١) إن عدداً كبيراً من المقالات التي كنت قد نشرتها في الصحف قد ضمّت إلى كتب نشرتها فيما بعد كما كانت قد نشرت قبل خمسين سنة أو معَ شيء يسير من التنقيح. في عام ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ نشرت في جريدة «الأحرار» سلسلة من المقالات في «تطور الغزل في الشعر العربي». وقد تناولها المستشرق عبد الرحمن نيكل واستشهد بها في مقدّمة كتابه «ديوان ابن قزمان» (عام ١٩٣٣) وذكرها ذكراً حسناً. وفي عام ١٩٦١ (بعد مقالاتي بثلاثين سنة) نشر أحد الكُتّاب المعروفين، وهو صاحب لقب علمي كبير، كتاباً عن الغزل في العصر الجاهلي. وكانت مقالاتي تختلف من كتابه في أمور:

* أنا قصرت مقالاتي على الغزل (صفات المرأة الظاهرة) وهو تناول الغزل والنسيب (بث الأشواق للمرأة) معاً.

* أنا قسمت الشواهد التي تناولتها أدواراً: الجاهلية ـ العصر الأموي ـ الطور الأول من العصر العباسي ـ الطور الثاني... ـ الطور الثالث... ـ الطور الرابع. أما هو فجمع كل شواهده في معالجة واحدة (وقد استشهد على عدد من صفات النساء في الجاهلية بشواهد عباسية ومعاصرة ومن شعر شوقي).

* كانت شواهدي أوسع مدى وأكثر دقة.

(٢) ثمّ إنّ كتباً كثيرة لي بدأت مقالات. مثال ذلك كتابي «عبقريّة العرب في العلم والفلسفة» (نشر عام ١٩٤٤) ونقل إلى الإنكليزية (عام ١٩٥٤)، وأصله مقال كنت قد كتبته ونشرته عام ١٩٣٨.

أنا لا أقصد أن أقول إنّ نضجي كان في عام ١٩٣٣ كما أصبح في عام ١٩٨١ (لو قلت هذا لما كان قولي صحيحاً)، ولكني أريد أن أقول إنّ الفرق بين العمل المتقن والعمل الذي يعمل هونا (بفتح فسكون: من قرب) فرق يسير جداً.

ربما كان للكتاب موضوعات معينة في أسلوب معين، وربما كان للجريدة موضوعات معينة أيضاً وفي أسلوب خاص. ولكن «معالجة» هذه الموضوعات كلها يجب أن تكون بِجدٍّ وإتقان. إن الفواكه مختلفة المنافع والروائح والطعوم، ولكن يحسن أن نأكل جميع هذه الفواكه ناضجة.

١٩٨١/١١/٣ ١٩٨٢/٢/٢٠

الأضحية ليست ركناً في الحجّ، بل سُنّة عامّة

الحج إلى بيت الله الحرام (الكعبة) في مكة المكرمة هو الركن الخامس من أركان الإسلام. ولكن هذا الركن الخامس فرض على المستطيع. والاستطاعة أنواع (بدنية وعقلية ونفسية واجتماعية واقتصادية) وربما أتيت إلى تفصيل هذه الاستطاعات في فرصة قادمة. ثم إن الحج فرض على المسلم المستطيع مرة واحدة في العمر. فإذا تطوع المسلم المستطيع في أداء هذه الفريضة مرتين أو أكثر (وكان في تطوعه هذا نفع للمسلمين) فهو خير له. أما إذا ذهب المسلم العادي (من الذين لا يتمتعون بالاستطاعتين العقلية والاجتماعية خاصة) ليقوم، مرة ثانية أو ثالثة، بالمناسك (بالتنقل بين الأماكن المختلفة في مكة وضواحيها) كما يفعل كثير من المسلمين، فإن لهذا المسلم أجرَه عند ربه، ولكنه لا يكون قد حقق الغاية الاجتماعية، التي هي جزء من الحج، كما قال الله تعالى (٢٢ : ٢٨، سورة الحج). «. . . ليشهدوا منافعَ لهم ويذكروا ٱسْمَ الله في أيام معلومات».

إن الكلام على الاستطاعة واسع جداً (ولعلي أعود إليه فيما بعد).

أما الآن فأريد أن أتكلم على الأضحية.

للحج أربعة أركان هي بحسب تقدم بعضها على بعض عقلا وشرعاً (وليس بين العقل والشرع في الإسلام تناقض ولا ٱختلاف).

الركن الأول: الاحرام (لف البدن بملاءة بيضاء غير مَخِيطةٍ ولا مصبوغة) كي يظهر جميع الحاجّين (على ٱختلاف أجناسهم ومقاماتهم وثَرَواتهم) بمظهر واحد يدل على حقيقة الإنسانية ولا يترك مجالاً لفخر أحدهم على أخيه المسلم ولا لحسد أحد لأخيه المسلم.

الركن الثاني: الوقوف بِعَرَفاتٍ، ووقته من الزوال (زَوال الشمس عن كَبِد

السماء) في اليوم التاسع من ذي الحِجَة إلى منتصف الليل: يقف الحاج في هضبة عَرَفَةَ حيث يستطيع (للدعاء ولاستماع خطبه من الإمام، ما أمكن). ولا يَصِحُّ حج الذين يتأخرون عن الوصول إلى عرفة قبل منتصف الليل (بين التاسع والعاشر من ذي الحجة)، ذلك لأن الوقوف بعرفة هو الركن الأساسي في فريضة الحج.

الركن الثالث: طواف الإفاضة: الطواف بالكعبة سبعة أشواط، بعد الإفاضة (النزول من عرفة: جبل عرفات). ومن الأفضل أن يكون هذا الطواف بعد النزول من عرفة مباشرة. أما إذا تأخر الحاج ـ لعذر ما، فإن هذا التأخير لطوافه إلى حين استطاعته لا يبطل حجه.

الركن الرابع: السعي بين الصفا والمروة. الصَّفا (الحجر الصلد الضخم) والمَرْوَة (الحجر الأبيض البرّاق) صخرتان يسعى (يهرول) الحاجّ بينهما سبعة أشواط تامّة متوالية (يبدأ بالصفا ويسعى إلى المروة، ، فيكونُ سعيه هذا شوطاً. ثم يعود من المروة إلى الصفا فَيَتِمُّ له بذلك شوط ثان).

الأضحية: ذبح بَدَنَة (من الابل أو البقر أو الغنم ـ الضأن أو المعزي) وهي سنة عامة للحاج ولغيرِ الحاجّ (والمذهبُ المالكيُّ يجعَل الأُضْحِيَةَ سُنّةً لغيرِ الحاجّ ولا يجعلها سنة للحاج)، فالأضحية إذَنْ ـ في المذاهب الخمسة: المذهب الحنفي والمذهب الحنبلي والمذهب المالكي والمذهب الشافعي والمذهب الإمامي (الجعفري) ليست ركناً من أركان الحج. ولكن بما أن الأضحية سنة عامة (على القادر على ثمنها)، سواءٌ أكان حاجّاً أو غير حاج، فمن المستحسن ـ إذا حج المسلم ـ أن يضحي بدنة (بفتح ففتح).

ولكن الذي أريده من هذا المقال، هو أن الطريقة التي يجري فيها الذبح مخالف للمقصود منها، فيجب أن ينظم ذبح الأضحيات في موسم الحج حتى

يكون في تلك الأضحيات تلك الفائدةُ التي قصدها الإسلام من سَنِّها.

واقترح لذلك طريقتين:

أ ـ أن يشترك كل سبعة في ذبح بدنة (جمل)، وهذا جائز.ثم يجعل ثمن الأضحيات الست الباقية صدقة تدفع للمحتاج ينفقها في وجوه معاشه (بدلاً من أن يذبح الحجاج ملايين الأضحيات في الحج، ثم يترك معظمها بالعَراء يفسُد بها الهواء وينتشر بها المرض ـ فيما ملايين الناس (من المسلمين ومن غير المسلمين) يموتون جوعاً في قارتي آسية وأفريقية .

ب ـ أن تنشأ شركة فتؤسس معملاً لتجفيف اللحم ولتعليبه فتأخذ تلك الأضحيات وتحفظها لتكون هي نفسها، أو تكون أثمانها، صدقة للمحتاجين من أهل الحجاز (وإذا لم يكن محتاجون في الحجاز، فتكون تلك الأضحيات المحفوظة أو تكون أثمانها صدقة على فقراء المسلمين في الأقطار المجاورة: في أفريقية خاصة).

منذ مدة طويلة سئل نفر منا رأيه في هذا الموضوع، فكثر الكلام في الطريقة الثانية، فقيل لنا: ولكن هذاالمعملَسيدور دولابه شهراً واحداً في السنة.

هذا صحيح وجوابي الآن:

اجعلوا من نشاط هذا المعمل شهراً واحداً للصدقة ثم أحد عشر شهراً للصناعة والتجارة وجففوا أنتم اللحم وعلبوه بدلاً من أن تستوردوا اللحمْ المجفف واللحم المعلب من أوسترالية والأرجنتين.

١٤/٩/١٩٨١ — ١٩/٩/١٩٨١ (ص ١٠)

(*) هذه المقالة لمناسبة اقتراب موسم الحج، ويتابع الدكتور فروخ الأسبوع المقبل نفض «غبار السنين».

حساب الأيام، ليلة الإسراء

أسهل فنون المعرفة على المتعلمين يجب أن يكون «الحساب»، ذلك لأن القاعدة التي يتعلمها التلميذ مرة تبقى في ذاكرته إلى الأبد، لا تتبدل ولا تتغير. أما التاريخ والسياسة والفلسفة فإنها فنون لا تستقرّ على حال: في كل مكان لها قواعد خاصة، وفي كل زمن لها أسباب معينة، ثم لها عند كل فرد من أفراد النوع الإنساني تأويل خاصّ.

في العام الماضي حينما كنا في السنة الأربعمائة بعد الألف (١٤٠٠ للهجرة) بدأ الناس يحتفلون بالعام الخامسَ عَشَرَ الهجري، لأنه في ظنهم قد حل بابتداء السنة الهجرية ألف وأربعمائة. وكنت قد فاوضت في ذلك نفراً كثيرين هنا، وفي أماكن أخرى - وكان فيمن فاوضتهم رجل كان له يد في التقرير الرسمي لبدء القرن الهجري الخامس عشر. ومع ذلك فمنهم من قنع ومنهم من لم يقنع. والحُجّة على ذلك كانت يسيرة سهلة هَيِّنَة: إنّ مرتبةَ الآحادِ تبدأ بالواحد وتنتهي بالعشْرة، ومرتبة العَشَرات تبدأ بأحدَ عَشَرَ وتنتهي بالعشرين، ومرتبة المِئات تبدأ بالعدد ١٠١ ونتهتي بالعدد ٢٠٠ الخ. ومعَ ذلك فقد ظل هنالك من لم يقنع.

ومثل هذا الخطأ لا يقع عند نفر من الناس في حساب السنين، بل في حساب الأيام أيضاً. العرب يبنون حساب الأيام والأشهر على القمر، على ظهور الهلال. وقد تعود العرب أن يبدأوا كل شهر برؤية هلاله بالعين المجردة، وجعلوا هذه الرؤية في المساء بعيد (بضم ففتح) غروب الشمس. فالشهر القمرى يبدأ إذن من مساء اليوم الذي يرى فيه هلاله ويبدأ طبعاً من لحظة رؤيته (في المساء). وكذلك اليوم (الذي هو مجموع النهار والليل) يبدأ (قياساً على بدء الشهر برؤية الهلال مساء) من غروب الشمس وينتهي بغروبها في اليوم التالي. فقبل غياب

الشمس نهار الخميس مثلاً (في الحساب الإفْرِنجي)، نكون لا نزال في يوم الأربعاء. لنأت الآن إلى حساب الإسراء مثلاً (والإسراء كان في الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب) لنأخذ السنة الهجرية الجارية (مقارنة بالأيام الشمسية):

الجمعة ٢٥ رجب (١٩٨١/٥/٢٩)

السبت ٢٦ رجب (٨١/٥/٣٠)

الأحد ٢٧ رجب (٨١/٥/٣١)

الاثنين ٢٨ رجب (٨١/٦/١)....

فعلى هذا، تكون ذكرى الإسراء في هذا العام (١٤٠١ للهجرة = ١٩٨١ للميلاد) ليلة السابع والعشرين من رجب (الأحد في ٨١/٥/٣١) لأن اليوم القمري يبدأ بليلته التي تبدأ هي بدورها بعد غياب شمس يوم الأحد في التعداد الشمسيِّ. بتعبير آخر: حينما ينتهي يوم الأحد في الحساب الشمسي بغياب شمس يوم الأحد يبدأ يوم الأحد بالحساب القمري، ويكون بدأه بمجيء ليلته قبل نهاره.

هذا تعيين ذكرى الإسراء. أما الاحتفال بذكرى الإسراء (الذي أقاموه في هذه السنة)، مساء السبت (في ٣٠ / ٥ / ٨١) فيمكن أن يكون في الليلة نفسها أو قبل ليلة أو أكثر أو بعد ليلة أو أكثر. المهم أن ندرك أن ذكرى الإسراء (من الناحية التاريخية والفلكية) كان في هذه السنة يوم الأحد في ٨١/٥/٣١) لا يوم السبت (في ٨١/٥/٣٠).

لا أريد أن أذهب إلى أبعد من ذلك، وإن كنت أتمنى على أخي وصديقي الأستاذ مواهب الفاخوري ـ وهو صاحب الخبرة الطويلة الصحيحة في الرياضيات والفلك وفي حسبان التقويم (الروزنامة) ـ أن يشرح لنا كيف يحسب هو بدء الأيام القمرية بالإضافة إلى الأيام الشمسية. إن في ذلك فائدة للقراء.

٨١/٥/٣١ — ١٩٨١/٧/٤

ملك الهند

قرأت إحدى النساء الفاضلات المثقفات (وهي من أقاربي) قِصة «امبرطور الصين» (السفير ٢٩/١١/٨٠، ص ٩) ثم قالت لي: إن لهذه القصة نهاية ثانية.

لم أشأ أن أكتب القصة نفسها بنهاية مختلفة عن النهاية التي كنت قدِ آخترتها من قبل. فبحثت عن قصة جديدة تُلائِمُ النهاية الجديدة.

أراد المهراجا (ماها: كبير، راجا: ملك) أو ملك الهند أن يطّلع على أحوال رعاياه الكثيرين في مملكته الواسعة. فتطوف في أقطار المملكة طويلاً فرأى فيها أحوالاً كثيرة تحتاج إلى عناية وإصلاح: هنالك بقاع يكثر فيها الجوع (لأنها بقاع قاحلة بطبيعتها) ـ هنالك طوائفُ من الناس تكثُـرُ الأمراض بينهم (لأن أحياءهم مكتظة بالسكان، كثيرة الفضلات) ـ هنالك مناطق يكثر فيها الموت (لأن الحيّاتِ كثيرة. فهي تلدغ المئات والألوف في كل عام) ـ هنالك أفراد أقوياء يستبدون بأهل القرى ويتسلطون على ما في أيدي الناس من مال وغلال ـ وهنالك مدن واسعة كثيرة السكان وليس في شوارعها قناديل تضيئها.

عاد ملك الهند إلى عاصمته فجمع وزراءه (وكانوا أربعين وزيراً) وعرض عليهم ما كان قد رآه في أطراف المملكةِ وآقترح لكل سوء في المملكة وجهاً من وجوه الإصلاح. ووافق الوزراءُ الأربعونَ على كلّ ما ذكَرَه الملكُ وآمتدحوا سَهَرَهُ على رعيّته واستصوبوا القيام بتلك الوجوه من الإصلاح.

ولا شك في أن القيام بإصلاح يحتاج إلى مبالِغَ من المال. وحسب الملك تلك المبالغ وساعده الوزراء الأربعون في الحسبان. فوصلت تلك المبالغ إلى عشرة آلاف ألف (عشرة ملايين) روبية. أقر الملك المبلغ كله وأمر بإخراجه من خزانة الدولة وإعداده للإنفاق على إصلاح أمور المملكة ورَفْعِ الضيم عن الرعية التي

تُغذّي خزانة الدولة بالضرائب المفروضة على المناطق وعلى الأشخاص.

وبعد أسبوع عاد الوزراء الأربعون وقالوا للمهراجا إن السكان كثيرون وإن البلاد واسعة وإن وجوه الإصلاح مختلفة عديدة. فإذا نحن جعلنا للإصلاح لجنة واحدة ثم عهدنا إليها بكل تلك الوجوه من الإصلاح طال الزمن على العمل وعجَزت اللجنة عن القيام بما يعهد إليها به. فمن الأصوب أن يقوم كل وزير (من الوزراء الأربعين) بالإصلاح المطلوب في المنطقة التي هو منها. فوجد الملك أن ما قاله الوزراء الأربعون منطقي وأن فيه تسهيلاً للعمل واختصاراً للوقت.

واقتضى ذلك بطبيعة الحال أن يوزع المبلغ المقرر على الوزراء الأربعين ليقوم كل واحد منهم بالإصلاح في منطقته.

وبعد أسبوع جاء الوزراء الأربعون بفانوس كبير وعلقوه على الباب الكبير من قصر الملك.

٨١/١/١٧ ١٩٨١/٢/١٤

كيف أقرأ الصحف

أعرف نفراً كثيرين جداً يقرأون الصحيفة آبتداء باسمها وآنتهاء باسم المدير المسؤول.

هم يفعلون ذلك لأسباب مختلفة، منها أنهم في العادة يقرأون صحيفة واحدة يوماً بعد يوم. أما أنا فآخذ جريدتين في كل صباح، وفي عدد من الأحيان آخذ ثلاثاً أو أربعاً. ثم يأتي عدد من المجلات العربية والأجنبية، فليس بإمكاني ولا بإمكان غيري أن يقرأ الصحيفة كلمة كلمة كما يفعلون وأقضي في قراءة الجريدة الواحدة أحياناً (١٦ ـ ٢٠ صفحة) ثماني ساعات.

أقرأ الجريدة على دفعتين: في الصباح أمُرُّ بِبُطْءٍ ببصري على الصفحات وأقف على عدد من العناوين. وبعد الغداء ـ حينما أستلقي للقَيلولة، أعود إلى الجريدة أنتقي منها ما أظن أني بحاجة إلى قراءته. أنا أقرأ الأخبار التي هي أخبار، لا الإعلانات التي تنشر على صورة الأخبار. وفي المقالات الطوال أحياناً عدد مفيد أقرأه (ويرجع تقدير ذلك إلى عوامل مختلفة).

كثيراً ما أسائل نفسي ـ أو أتبادل التساؤل ونفراً من اخواني الزملاء ـ عن هذه المقالات الطِّوال التي تنشر في عدد من الصحف يوم الأحد، أهنالك فعلاً من يقرأ تلك المقالات؟ تلك المقالات ليست طويلة فحسب، ولكن أكثرها لا يفهم: هاك مثلاً: يأتي ناشىء فينقل إلى اللغة العربية قصيدة لشاعر كبير مألوف أو شاعر آخر حديث (قل هو تي. اس اليوت). ما حاجتي إلى قراءة هذا؟ أنا أقرأ لشكسبير في لغة شكسبير. ثم لا تنس أن شاباً في العشرين من عُمُرِه لا يمكن أن يكون أميناً أو قديراً في نقل قصيدة نظمها شاعرها وهو في الستين من العمر. هذا شيء لا يعرفه عدد كثير من الناس.

ثم هنالك صورة وتصريح لرابوع بن خاموس في زيارة سادوس بن سابوع وقدِ آساتعرضا الأحوال الراهنة في الداخل والخارج وكانت وجهات النظر عندهما متفقة. وبعد يومين ترى في الصحيفة نفسها صورة ذلك الرجل الأول يشن حملة على الذي كانت وجهة نظره ووجهة نظر الأخر واحدةً. ثم هنالك المؤتمر الصحافي لفلان بعد رجوعه من البلد اليميني الفلاني. وفي الأسبوع التالي خلاصة مؤتمر صحافي آخر عقده في أقصى بلاد الشمال فلان ذلك نفسه. كل هذه أشياءُ لا أقرأها.

إذا كان في الصحف هذا المقدار من الأشياء التي لا أقرأها. فإنك تكون على حق إذا أنت سألتني: لماذا تشتري الصحيفة؟

أنا أشتري هذه الصحيفة لأنني إذا لم أجد فيها خبراً سيئاً، آطْمأَنَنْتُ إلى أن العالم لا يزال بخير.

حينما تفتح عينيك، يا صاحبي، في الصباح ثم تستطيع أن تنهض من فراشك وتسير على رجليك، فاحْمَدِ (بفتح الحاء) الله تعالى على نعمته التي اسبغها عليك. وآدفع ثمن جريدة. ثم تصدّقْ على المحتاجين بشيءٍ من المال أو بعملٍ نافعٍ أو بِكَلِمةٍ طيِّبة.

١٩٨١/١١/٣   ١٩٨٢/٢/٢٧

«ملاحق»

تعليق الدكتور أسامة عانوتي:

تذكرة لرائد التعليم الإسلامي *

عمر الداعوق.. حظوظ مئات الناس

من وحي[1] المقالة[2] التي دبجتها يراعة الدكتور عمر فروخ عن الخالد الذكر والأثر، المغفور له «عمر الداعوق» فأحسن الإحسان كله وفاء «لرائد الحركة التعليمية الإسلامية، ولا سيما في «المقاصد»، وعتاباً مني على القيمين على شأنها اليوم، الذين لم يقدروا الرجل حق قدره، فلسان حاله ـ رحمه الله ـ معهم قول الشاعر:

اعاتب ذا المودة من صديق	أذا ما رابني منه اجتناب
إذا ذهب العتاب فليس وُدٌّ	ويبقى الود ما بقي العتاب

* * *

كنت فتى يافعاً لما يتجاوزْ الثامنة أو التاسعة من سنيه الغضة، يوم طرق سمعي اسم «عمر الداعوق». وكان مدار الأحاديث عنه ثروته الطائلة، وحسن تدبيره واقتصاده ـ أعني اعتداله في النفقة ـ، ثم تبتُّله لخدمة «جمعية المقاصد».ثم قدر لي أن أراه رأي العين، وأنا في تلك السن الصغيرة، لما نهد إلى مشروع فذّ، بِدْع، لم يسبق إليه في لبنان، وربما في بلدان شرقية كثيرة، إذ أنشأ مدرسة ليلية لتعليم الأميين الذين يحول حائل ما بينهم وبين الدراسة النهارية المنتظمة (في مبنى

(*) من جريدة «السفير» (١٥/١٢/٨١)، ص ١٠.

(١) انظر مقالتي الموسومة بالعنوان الآتي: «الظلم العادل خالق العباقرة ـ عمر الداعوق وما بناه من صروح»، جريدة «الحياة»، العدد ٣٤٩٠، ١١/٩/١٩٥٨.

(٢) جريدة «السفير» في ٢٨/١١/١٩٨١.

مدرسة «عثمان ذي النورين» حالا)، وكان أن عهد بإدارتها إلى شقيقي المرحوم منير(توفي في ١٩٧٨/٤/٣). وكانت حفلات تلك المدرسة ـ التي ازدهرت ازدهاراً عجيباً ـ مما اجتذبني، ولا سيما أن «عمر الزعني» كان ممن يشاركون في إضفاء البهجة والفرحة على تلك الحفلات. ثمة بصرت بعمر الداعوق عياناً. فاوحي إلي سمته بوقار عفوي. ولا يزال عالقاً في مخيلتي من ذكرى مرآه: قامته القصيرة، ومشيه مشي الهَوْن والاتئاد.

ولم يكن من شأني بعد ذلك ، أن تصلني بعمر الداعوق صلة ما. ولكن القدر قادني ـ بعد سنوات عدة لاعايده في عيد الأضحى ، في خريف سنة ١٩٤٩ ، في قصره في «صوفر». كان ذلك في جمع لا محل لي فيه ، ولا صفحة لي تسوغ انتسابي إليه. وكانت تلك آخر مرة بصرته فيها. فقد توفي بعد ذلك ببضعة أسابيع!

وبين تينك المرتين كان يترابى ما يبلغني عن الرجل، ولعل الناس ـ على تجافيهم عن نصفته وقدره قدرة الحق ـ لم ينكروا عليه تفانيه في خدمة المقاصد، والغيرة على مصالحها تفانياً وغيرة لا زيادة وراءهما لمستزيد. وحسبك أنه كان يعمد إلى عصيف شجر الصنوبر (السيكون) القائمة في وسط غابة منه «مدرسة الحرج» فيوعز بجمعه فبيعه ، ثم ردِّ ثمنه إلى صندوق الجمعية!

لقد كان عمر الداعوق ينطوي ـ بلا مراء ـ على حظوظ مئات الناس. ولعل ما يبدو لنا، في ظاهره ظلماً هو العدل عينه!

أفكنت تسمع ـ لو تساوت انصبة الناس من الذكاء مثلا ـ بأفلاطون، وأرسطو والغزالي، والمتنبي والبيروني (بكسر الباء) وأديسون وباستور، وشوقي وعبد الوهاب؟

لو حرم العالم نبوغ النابغين، وعبقرية العباقرة لوقف الكون كله عند حد

ثابت من الركود والجمود، ومال ذلك إلى العدم. فربما كان ظلم الطبيعة عدلاً أحياناً، أو كان عدلها ظلماً لأنها لو عدلت بين البشر جميعاً، فاستوى في الثراء الخامل والمجد ـ والقوي والضعيف، لكان ذلك الظلم نفسه، بل لكان شرا من الظلم! ولو أنها حرمت نفراً من الناس قسطهم من قوة البدن أو رجاحة العقل، وأضافته إلى حظ سواهم، لما كان في هذا التدبير ـ وظاهره الاجحاف ـ سوء ولا عدوان، ولا شطط، فالطبيعة أدرى حيث تضع ثقتها. ولو أنها لم تعمد إلى هذا «العدوان» فاستمسكت بالمساواة جميعاً في قسمة المواهب لفوتت على البشرية نعما جمة ليست العبقرية أيسرها.

لقد كان «عمر الداعوق» يصدر في تصرفه وسلوكه جميعاً عن سدانة أمينة قوية على طائفة الهبات السنية التي استودعته إياها الطبيعة، ولقد زين هذا كله تدبير حكيم. وفي ظني أن ما أخذه الناس عليه، مما حسبوه فرطات منه، إنما كان ـ في واقع الأمر ـ حسناتٍ املاها عليه اتزان تفكيره، وبعد نظره فكأنّه كان مصداق قول القائل عن علم الإمام الموسوعي «ابن منعة» (كمال الدين أبي الفتح موسى بن يونس): «ما هذا من كلام أبناء زماننا»[٣]!.

لقد كان يضع الأمور حيث ينبغي أن توضع، ويقدم البر بالجماعةَ على البر بالأفراد. وما مدارس تعليم المسلمين في القرى إلا نبتة غرست بذرتها يداه. ثم حلت بلبنان أزمات فلم تأخذه فورة الحماسة في مجابهتها (رئاسة الحكومة الأولى التي أُلْقِيَتْ إليها مقاليد الأمور عند أفول الحكم العثماني عن البلاد، قضايا «معاشية» في مطلع الأربعينات، الخ...).

كان في انفاقه معتدلاً: لا إفراط ولا تفريط، ولكنه بذلٌ خالٍ على كل حال من المنّ، «خال من الكدر»، كما يعبر أبو حيان التوحيدي[٤]، فقد كان سمحاً في

(٣) «وفيات الأعيان» ٥/٣١٥ (ط. دار الثقافة بيروت، تحقيق إحسان عباس).
(٤) «المقابسات»: ٤٧١ (ط الإرشاد، بغداد، ١٩٧٠ تحقيق محمد توفيق حسين).

ما ينفح، سواء أقل أم كثر.

ومن عجب أن من أخذوا عليه، في هذا الشأن، ما أخذوا، كانوا أضن بالنفع، ليس بمالهم فحسب، بل حتى بالجهد! وكأنّ أبا حيان كان يراهم بعينيه كما قال: «وقد شاهدنا من يمدح الجود ويحث عليه، ويحسّنه، وهو أبعد الناس من القيام به والعمل بحكمه[5]».

كان «عمر الداعوق» آية في الخلق الاجتماعي، وكانت «المقاصد» وهي بضعة[6] منه عنوان هذا الخلق وقد تبتّل لخدمتها فاختصها بكيانه كلهِ، ووقف عليها سعيه وجهده خالصَينْ كليهما، فإذا أضفت إلى هذا كله خبرته الفريدة في ما تحتاج إليه مشروعاتها، قطعت يقيناً بأن الزمن ضنين بمثله في هذا المجال، وفي مجالات كثيرة أخرى.

لم تفته فرصة اجتماعية ليكرم «المقاصد» ـ من حر ماله ـ في مأدبة، أو في طالب مُجلٍّ (وما أكثر ما كنا نسمع ونرى في حفلات «التخريج المقاصدية» من جوائز عمر الداعوق من الساعات الذهبية للطلبة المتفوقين)، أو هيئة إدارتها، أو جمعية متخرجيها.

على أنه لم يأمن غولة الحظ، ولم تستبد به سورته[7] (بفتح السين وسكون الواو) أو يأمن شرته[8] (بكسر الشين وتشديد الراء المفتوحة). وإنما ظل دؤوباً، جلوداً، يُغِذّ السير، ويواصل الكدح، مسخراً طالعه المجدود في رفد تجاربه.

كان عقله مهيمناً على سلوكه جميعاً، فلم يتخلَّ عنه مرة واحدة ويتبعْ

---

(٥) المصدر نفسه: ٨٧.

(٦) البضعة: تعني، هنا «القطعة من اللحم» (المرجع، للعلايلي: ١/٤١١).

(٧) يقال: «سورة الخمر: حدتها... (و) حميا دبيبها في شاربها.. وسورة السلطان: سطوته واعتداؤه» («لسان العرب» مادة: «س و ر»).

(٨) الشرة: «النشاط والرغبة» (لسان العرب، مادة: ش رر).

عاطفته. وبهذا العقل المشارف على غده، الناظر إلى يومه، بنى «الداعوق» ما بنى من صروح العلم، والاقتصاد، والبر.

* * *

لقد كان عمر الداعوق، نسيج وحده حقاً. وأحسب أن أمداً طويلاً سينقضي قبل أن تقدم الطبيعة على ظلم عادل آخر، فتنسل مواهب كثيرين وحظوظهم وتحبسها في فرد واحد ذلك أن الاضطلاع بعبء العبقرية شاق، عسير لا يقوى عليه إلا أمثال «عمر الداعوق»!

د. أسامة عانوتي

٢ ـ تعليقٌ ثانٍ للدكتور أسامة عانوتي

في ذكر المشنوق والنقاش
كلام القلب يقرع القلب

شد ما اسعدني الدكتور عمر فـروخ ـ كرة اخـرى ـ بمقالتـه[1] الاخيرة عن المربيين الكبيرين : الاستاذ عبدالله المشنوق والدكتور زكي النقاش . فادني حقـه الشكر، لانه نبهني، مرة اخرى[2]، الى اداء واجب، والتنويه باحسان، مصـدقا قول الشاعر:

ســاشكر لا اني اجـازيـك نعمـة   بشكـري ولكن كي يقال لـه شكـرا!

وخير من ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «من دلـل على خـير، فله مثل اجر فاعله»[3].

فقد ايقنت ـ بعد طـول شك وامتـراء ـ انه لا يـزال في دنيانـا اولو، فضـل مصداقا لقول من قال: «لا يعرف الفضل الا ذووه»، واولـو علم وبصيرة: فـالميز

---

* من جريدة السفير ٢٨/١٢/٨١ (ص ٩).

(١) انظر عدد «السفير» يوم ٢١٢/١٢/٨١

(٢) مقالتي عن «عمر الداعوق» في السفير يوم ١٥/١٢/٨١
ومقالة الدكتور فروخ عنه في «السفير» يوم ٢٨/١١/٨١

(٣) النووي : «منهل الـواردين شرح ريـاض الصالـحين»: ١/١٦٨ : ١/١٦٨ (دار العلم للملايـين . الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٠ ضبطه وشرحه الدكتور صبحي الصالح).

(٤) البلاء: من «بلو»: «الامتحان والاخبار، (انظر مادة روز في «لسان العرب».

بين الناس، بعضهم من بعض، يقتضي البلاء والاختبار، وما كل من رام تجـربة الناس وروز[٥] ما عندهم استطاع الى ذلك سبيلا، ما لم يؤت موهبة مخصوصـة، فكيف اذا اتصل الامر بالخلق، وجانب كبير منه خبيء، مكنـون؟ وبالعلم، ولـه اربابه؟

وما انطقه تعبيراً جرى على السنة عامتنا: «فلان عيار» يطلقونه على الخبير، الحاذق القدير على الحكم والتقويم، أي الوزن والتقدير. وهو معنى تجد اصله في فصحانا: من «العيار»[٦] (بكسر العين وفتح اليـاء المخففة)، اي الـوزن والكيل فكأننا نقول: «فلان عياري» (بكسر العين وتخفيف الياء الاولى أمـا الياء الأخيـرة فمشددة حكما، لانها ياء النسبة) نسبة الى العيار، او «معيـاري»، أي مقسط[٧]، وزان بقسطاس[٨].

* * *

لا ازعم ان معـرفتي «المشنـوق» و«النقــاش» هي أعمق وأشمـل من علم الدكتور فروخ بهما، وان كنت قد خبرت الاستاذ المشنوق، أكثر ما خبرته في مجـال الصحافة، التي اتجه اليها بعدما اعتزل التعليم، ردحاً من الـزمن، ولكني الفيت في مقالته عنهما ما وافق ما الم به من امرهما، فان كان ما اورده تردادا لجوهر عجالة الدكتور فـروخ، فما ذلـك الا لكي يثق الاستاذان الكبيـران ان فضلهما ـ كـما قال

(٥) الروز: التجربة، الامتحان، الاختبار.

(٦) انظر مادة «ع ي ر» في «لسان العرب».

(٧) من «اقسط يقسط فهـو مقسط، اذا عدل»، فـالمقسط هو العـادل. وهو من اسماء الله الحسنى، اما «قسط» (الثلاثي) فيعني عكس ذلك تماماً: «قسط يقسط، فهو قاسط، اذا جار»، والقسط (بكسر القاف) من معانيه: العدل، وهو مصدر يوصف به، كـما في قولـه تعالى: «ونضـع الموازين القسط ليوم القيامة» («سورة الأنبياء»: ٢١ الآية ٤٧)، انظر مادة «ق س ط» في «لسان العرب».

(٨) القسـطاس: «هو اقوم الموازين» (مادة «ق س ط» في «لسان العرب».

(٩) التوثيق، هنا، بمعنى: «الحكم على شخص بانه ثقة فيما يروي ويحدث ويخبر» («المرجع للعلايلي»: ١/ ٦٦٠).

ابن المقفع ـ «كالمسك يستر، ثم لا يمنع ذلك رائحته ان تفوح»! واذا كان ثمة زيادة لمستزيد على ما ساقه الدكتور فروخ، فانما هي توثيق كلامه والتأمين[١٠]، عليه.

فقد بلوت، عن كثب، مواهب المشنوق، فازددت اقتناعاً بما بلغني، تواترا، من فضل الرجل على التعليم في «المقاصد» واروع ما انجاب عنه فضله على التعليم هناك انه خرج بالتدريس من نطاقه التعليمي الصرف الى دائرة التربية وشتان ما بين التربية والتعليم! ثم انه ـ فضلا عن مهابته مديرا ومفتشا، والمحيته والمعيته، مربيا ـ اضفى على «المقاصد» جوا اجتماعياً بدعا، فكانت حفلات «المقاصد» ومحاضراتها مهوى الافئدة.

إنّنا لا نستطيع أن نسلُكَ المشنوق في عِداد المدرّسين والمُربّين العاديّين. إنّه ينتمي الى رَعيل الروّاد والمؤسّسين، فهو ـ كما كان بعض قُدامانا ـ إمام مِحراب هذا الباب.

ثم خلف المشنوق (بفتح القاف) النقاش (بضم الشين) فعرفته في هذه الساحة معرفة امكنتني من الوقوف على مزاياه ومكارمه، وراس فضائله خشية الله ومخافته، واخلاص عظيم، من هنا كان اسلوب النقاش في الادارة والتعليم معا (اذ كان يدرس مادة التاريخ ـ في ما اذكر الى جانب ادارته المعهد) مطبوعاً بطابع التفاني في تأدية الواجب، لا حسيب ولا رقيب عليه الا نفس اطهرت بالخشوع الى الله تعالى: قولاً وعملاً، سرا وعلانية، فكان فيه للمعلمين والتلاميذ اسوة حسنة، وقدوة متبعة.

كان النقاش آية في الدقة والامانة، ورعاية المصالح التي تولاها، فلا غرو

---

(١٠) التأمين، هنا يعني «اتخاذك الثقة لرعاية ما تعهد به اليه» و«ادخال الطمأنينة» فكأنك اذ تقول: التأمين على كلامه تعني تصديقه.

ان يقترن عهده في ادارة «المقاصد» والتدريس فيها بالانضباط والنظام المهيبين.

ان الحديث ليطول عن عبدالله المشنوق وزكي النقاش، ما طال الحديث عن المواهب والفضائل، وخدمة النشء ببذل النفس، وهل انفاق عشرات السنين في التربية والتعليم المخلصين الا انفاق اعز ايام المرء وانضرها، والسخاء بذخر الجسم والعقل؟

أن هي الا كلمة عجلى تعقيباً على كلمة صادرة من قلب الدكتور فروخ، جبرت خاطري، وانعشت في املا مصداقاً لقول «سوار»:

«كلام القلب يقرع القلب، وكلام اللسان يمر على القلب صفحا»[١١]، وقول زياد بن ابي سفيان (ابن ابيه): «اذا خرج الكلام من القلب وقع في القلب، واذا خرج من اللسان لم يجاوز الآذان»[١٢]!

د. أسامة عانوتي

---

(١١) ابن عبد البر: «مختصر جامع بيان العلم وفضله» ص ٩٨ اختصار الشيخ احمد عمر المحمصاني، الطبعة الاولى، مطبعة الموسوعات، مصر ١٣٢٠ هـ).

(١٢) المصدر السابق: ص ٩٨.

٣ ـ تعليق للدكتور علي زيعور

سبتيات الدكتور فروخ
نحو سيرة ذاتية

سبتيات الدكتور فروخ الاسترجاعية شديدة الغنى. ثم إنها نتاج آخر يزيد في تقديري لهذا الصديق سلوكاً وعطاءات. إننا لا نتفق على بعض الأشياء الفكرة، وهناك مواقف لنا تتباعد. وهذا أيضاً غنى. لكني أعرف الموسّع عن الكثير مما كتبه ملخصاً في «السفير»، فأشهد أنه قصد النفع والعظة وليس الغسل أو التفخيم الذاتي أو المَثْلَنَه. وفي السيرة التعليمية ثم التعليمية والكتابية للدكتور عمر صدى، بل شواهد على نضال فئة في بلدنا لتأمين الشعور بتوكيد الذات، وللرد على التجريحات الحضارية، ولرسم مشروع مستقبلي تأييسي وخلاق.

لم ينفذ الدكتور فروخ كثرة من تمنياتي عليه في أن يعطينا معرفته عن مواضيع تبدأ بأسد رستم أو أنيس فريحة، وتمر بزكي النقاش وحتى بجمعية خريجي المقاصد على سبيل المثال. وما زلت أتمنى عليه أن يكتب أكثر وأزود آرائه في التربويات، وفي التعاملية، وفي الآدابية... فبذلك يضيف لَبنَةً إلى عطاءاته، ومن ثم يسهل أكثر وأكثر الكلام في النسق الفكري المتكامل للدكتور عمر فروخ.

كان يردّ دائماً بنضج ألحظُهُ في مسودّاته، وفي خطه، وحتى في استعماله لنظره وحركات يديه.

اقترحتُ منذ عامين إقامة حفلة تكريمية له. وأنا الذي لم يحبّ قط إلقاء

الخطب والمشاركة في محاضرة عامة وندوات وثناءات، وَعَدتُ نفس بمخالفة التعودات دوماً لذلك الموقف والوعد القريبين.

يُسْتَساغ أخذ تلك «الأحاديث السبتية» مكثفاً أو نواة السيرة الذاتية (السير ذاته/ أوتوبيوغرافيا) للدكتور عمر والتي ستظهر لاحقاً. وعلى ذلك فهي توضع في تراثنا بين أعمال جليلة نلقاها في كتاب الوصايا للمحاسبي، والمنقذ من الضلال للغزالي، و. . . ، و. . . حتى «الأيام» لطه حسين.

والشغوف بالمقارنات، وبمعرفة الذات في مرآة الآخر أو في النظر الازائي الشمّال، يضع عطاءاتنا في المجال المذكور على مهاد عام تبدو فيه «اعترافات» القديس أوغسطينوس، و «اعترافات» جان جاك روسو (ت ١٧٧٨)، حتى نصل إلى كثرة كثيرة في «الذمة العالمية» للأدب السيرذاتي.

لا تظهر روح أمة أو روح حضارة هنا تختلف عن الحال هناك أو هنالك. الإنسان واحد، ولا سيما الذي يعرض لا لحياته فقط بل وعبرها لهموم الجماعة. يسعى لتحقيق الذات المثالية لنفسه وأهله. ونتوقع من كاتبنا الشجاع أن يستمر فيقدم «سيرته الذاتية» كعمل فني، وكتاريخ، وكموضوع لآرائه ومواقفه.

د. علي زيعور

من جريدة «السفير» (٨٢/٢/٢٠، ص ١٠)

٤ ـ موجز حياتي

قبل مولدي كانت أسرتنا تسكن في «المدينة»، أي في وسط مدينة بيروت. كان منزل الأسرة في «زاروب الشيخ رسلان، وكان هذا الزاروب (الطريقُ الضيّق الطويل) «عَقْدا» أو ممرًّا مسقوفاً. ولم يكن يفصل مدخل الزاروب عن الباب الشَّمالي للجامع العمري الكبير غير «سوف الفشخة» (سُمِّي كذلك لِقِلّة عرضه ـ والكلمةُ آراميّةُ: فشح، بالحاء المهملة بلا نقطة: وَسَّع الإنسان ما بين رِجليه). لا تزال هذه الصورة في ذاكرتي لأنّ جَدّتي كانت تأخذني معَها لزيارة أقاربها وأقاربنا الذين كانوا لا يزالون يسكُنون في المدينة.

وكانت «مدينة بيروت» حتى ذلك الحين (أواخرِ القرن الثالثَ عَشَرَ الهِجريِّ والتاسعَ عَشَرَ الشمسي ضيِّقَة الرُّقعة: تمتدُّ من شرقِ البُرج (شرقاً: سينما الأمير اليوم) إلى باب ادريس (غربا)، ومن السور ـ عصور (جَنوباً) إلى مقرُبة من شارع الزيتونة وشارع المرسلياز اليوم ـ عند المرفأ (شَمَالاً).

لقد كان خارجَ هذه الحدود بيوتٌ متفرّقةٌ وسكانٌ أيضاً. ولكنّ الذين أرّخوا لموت الشيخ يوسف الأسير (١٣٠٧ هـ = ١٨٨٩ م) قالوا: «... صُلّي عليه في الجامع العُمَرِيِّ الكبير ودُفِنَ في جبّانة الباشورة خارجَ «مدينة بيروت». كانت مِنطقة الأوزاعي، مثلاً، مسكونةً، ولكنّها كانت في ذلك الحين قريةً تسمّى «حَنْتوس»..

مولدي:

كان مولدي في يوم آثنين على القطع، وفي قلبِ الربيع، وفي أوّل آرتفاع النهار.

لمّا جرى الاحصاءُ الأوّل والأخيرُ في لبنان، سَنَةَ ١٩٣٢، كان والدي رئيسَ

لجنة في مِنطقة رأس بيروت، ويبدو أنّ مولدي قد جُعل عامَ ١٩٠٦ . وأحبَبْتُ أنا أنّ أُعيّنَ «هذا» المولد بدقّة فجعلته في ١٩٠٦/٥/٨ . ولكن إذا أنا تذكّرتُ عدداً من الأشياء وقِسْتُ الماضي بالحاضر فيمكن أن يكون مولدي في يومِ الاثنين من أواسط الربيع، ولكنْ قبلَ سنتين.

أمّا مكانَ مولدي في بيروتَ الكبيرة فكان في بيت يقوم في «بستان فرعون» (المكان الذي بُنِيَ فيه، فيما بعدُ، «قصر هنري فرعون» (على بعدٍ يسير من القشلة (القشلاق: مركز الجنود) والذي يسمّى اليوم «السراي الكبير».

كان في بيتنا في ذلك الحين جَدّي عبد الرحمن (نحو ١٨٤٥ ـ ١٩١٧) ووالدي عبدالله (نحو ١٨٧٠ ـ ١٩٤٦) وعمّي حُسين (نحو ١٨٨٠ ـ ١٩٣٦) وعمّي حسن (نحو ١٨٨٦ ـ ١٩٦٦).

كان جَدّي، في أوّل أمرِه، نَجّاراً وكان أُمّياً. فلمّا رُزِقَ آبنَه البِكْرَ أحمدَ (وكان أحمدُ قد تُوُفّيَ قبلَ مولدي) علّمه جَدّي ذلك العلمَ الذي كان مألوفاً في ذلك الحين. ثمّ عاد جَدّي فتعلّم منه القِراءة والكِتابة والحِساب. ولمّا وُلِدتُّ كان جَدّي «قوّاصاً» في القُنصلية الألمانية وكان ـ لشخصيّته ولمعرفته العامّة (ولعلّه كان يَعْرِفُ شيئاً من لغةٍ أجنبية ـ من الذين رافقوا الأمبراطور غليومَ الثانيَ في رحلته من بيروتَ إلى دِمَشْقَ، عام ١٨٩٦.

ومعَ أنّ جَدّي قد نشأ أُمّياً، فقد علّم جميع أولاده ذكوراً وإناثاً. وكان والدي خاصّة يتقن العربية والتُّركية والفَرنسية، وربّما كان يَعْرِفُ غيرها أيضاً ـ فقد كان من الذين زاروا أوروبّة في أواخِر القرن التاسع عَشَرَ، كما كان، قبل الحرب العالمية الأولى، موظّفاً في مكتب البريد النَّمساوي (وكان مركز هذا البريد: البوسطة النمساوية) في خان أنطون بك (شرق مرفأ بيروت).

وأستطيع أن أقولَ إنّ بيتَنا كان فيه علمٌ، وكان فيه مكتبةٌ أيضاً. وبما أنّني

كنت الصبيَّ الوحيدَ في بيتنا مُدّةً من الزمن، فقد آنصرفتْ عِناية جَدّي ووالِدَيّ وعَمّيَّ إلى الاهتمام بتربيتي. والتربية (الصحيحة) هي إعداد الطِّفل لحياته المقبلة كي يكونَ آعتمادُه في أعماله على نفسه. علّمني جَدّي الصَّلاة وقِراءةَ القرآن والسِّباحة وشِراء «الأغراض» من السوق. ودلّني أبي على الحياة الإجتماعية وعلى نفر من أصدقائه وحَضَرتُ مَعَه وبإشرافه في عدد من المقاهي كمقهى كوكب الشرق (في البرج) و«قهوة خريستو» في مِنطقة الزيتونة، وشاهدتُ في رُفقته التمثيلَ والرَّقص أيضاً (بديعة حامض، على القَطْع، في قهوة خريستو، وراقصةً أخرى في كوكب الشرق لعلّها بديعة مصابني). من أجل ذلك نشأتُ لا أُعاني شيئاً من تلك الرَّغبة التي يُعانيها عادة كثير من الأيفاع (الذين لهم بضعَ عَشْرَةَ سَنَةً من العمر). وحضرتُ وَحْدي تمثيل جورج أبيض وتمثيل كشكش بيه (بك) - نجيب الريحاني - ومنذ ذلك الحين الباكر (أوائل عَشر العِشرين من هذا القرن) انصرفتْ نفسي عن مُشاهدة «هذا» الهَزْلِ الذي يدور على آحتقار القيمة الإنسانية.

في السنوات الأخيرة بَرَزَ شخصٌ آنتقل من عمله في المصرف إلى التمثيل الهزلي. وقدِ آشتهر عندنا شُهرة كبيرة. وسمع به أولادي فَرَغِبوا في أن يشاهدوه، وكان يمثّل أشهَر رواياتِه عند الناس. لم أشأ أنا أن أذهبَ معَهم، فذهبوا برُفقة والدتهم. ثمّ إنّهم لم يُبدوا رَغبتهم في حضور رواياتِه مرّة ثانية.

كانت مدرستي الأولى عند «الشيخة حليمة» (حليمة الفيل) - كان بيتها في الزاروب إلى شرق جامع البلاط - لا أذكر، لصغر سنّي يومذاك، أنّني تعلّمت عندها شيئاً سوى «الرَّغبة في العلم».

وفي عام ١٩١٠ آنتقل والدي من بيت جَدّي (شرق السراي الكبير) وآسْتَقْلَلْنا في بيت في مِنطقة عين المريّسة(*). دخلتُ «مدرسة لجنة التعليم» (وكانت

تقع مباشرة شرق جامع عين المريّسة). وأنا أيضاً لا أذكر شيئاً من العلم تلقّيتُه هناك. ثمّ لا أذكر من الطلاّب سوى جميل قبّاني (الدكتور جميل قبّاني(*) ـ طبيب الأسنان) لأنّه كان طِفلاً مملوءَ الجِسْم يمشي في الاحتفالات المدرسية على رأسِ المَوْكِب في بِـذّة عسكريـة.

وفي أواخر ذلك العام نفسِه آنتقلتُ إلى «دار العلوم» (مدرسة الهنود، لأصحابها عبد الجبّار خيري وأخويهِ عبد الستّار وعبد الغفّار). كانت تلك المدرسة تحتلّ النصف الشَّمالي من المربّع القائم اليوم بين الطريق الصاعد من شارع كلمنصو (غرباً) والطريق الصاعد من شارع كلمنصو إلى مدرسة الصّديق لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية (شرقاً). وفي دار العلوم كنت في أدنى صفوفها ولا أذكر من معلّميها سوى الشيخ محمد ناصر. وأذكر أيضاً أن عبد الجبّار خيري (مدير المدرسة) نفسَه قد دَخَل علينا مرّة وأعطانا درساً كاملاً. كان رجلاً أجرد (لا شعرَ في وجهه) طويلاً. ولا أزال أذكر صورته وهو جالس على كرسيّ ورجلاه ممدودتان أمامه ويداه تكـادانِ تَمَسّان الأرض. أما تلاميذُ الصفّ فلا أذكر منهم سوى خليل هبري (رحمه الله) ومحمد شبقلو (مدّ الله في عمره) وطالبا آخر من بيت الحصّ.

وفي ١١/٢/١٩١١، لمّا ضربتِ البوارج الإيطالية مدينة بيروت، حجزتنا المدرسة، نحن الطلاّبَ الصغارَ، في الطابق الأعلى من المدرسة، ولم تسمحْ لأحدٍ منّا بمغادرةِ بنائها إلاّ إذا جاء وليّ أمره وأخذه.

ومن الطلاّب الكبار الذين لا أزال أذكر أنّني كنت أراهم: سعيد دبّوس، عبدالله دبّوس، محيي الدين النصولي، أنيس النصولي، أحمد اللاذقي، منير االلاذقي، ورجب تميم.

ويبدو أنّ دار العلوم قد أغلقت أبوابها قبل الحرب العالمية الأولى (بأسباب سياسية، في الأرجح ـ فقدِ آتُّهِمَ عبد الجبّار خيري وأخواه بهواهم مَعَ الإنكليز).

وفي عام ١٩١٣ انتقلت إلى المدرسة الابتدائية التابعة للمكتب السلطاني (المكتب السلطاني هو اليوم ثانويّة البنات(*) لجمعيّة المقاصد). ومع أنّ المدرسة الابتدائية كانت في بناء مستقلّ إلى الغرب من المكتب السلطاني، فقد كنا في المناسبات الكثيرة نأتي إلى المكتب السلطاني نفسه. وكان عمّي حسين «سر مبصّر» (رئيس النظّار) في المكتب السلطاني - وهذا الذي شجّع أهلي على إرسالي من منطقة عين المريّسة إلى المكتب السلطاني (في منطقة البسطة التحتا). وفي هذه المدرسة الابتدائية التابعة للمكتب السلطاني كان الشيخ راشد عليوان يعلّمنا اللغة العربية. وكان معنا في ذلك الحين عارف الحبّال (رحمه الله).

ثمّ نَشِبَتِ الحربُ العالمية الأولى. ولا أعلم السبب الذي نُقِلَتْ به هذه المدرسة الابتدائية الرسمية إلى بناء آخر يقع مباشرة جَنوب المكتب السلطاني، كان اسمها «سكزنجي نمونة (المدرسة النموذجية الثامنة). وهنا أيضاً لا أذكر أنّني تعلّمت شيئاً كثيراً - لأنّ الأساتذة جُنّدوا فيمن جُنّد - وكنا نحضُر إلى المدرسة ولكن التدريسَ كان قليلاً. ومعنى هذا بالإضافة إليَّ أنّ سِنّي الطبيعةَ أصبحت أعلى من سِنّي التعليمية بأربعِ سنوات. ولم يكن ذلك سيّئة، فإنّني كنت بعد ذلك أستوعبُ العلم (في الصفوف الابتدائية) بسرعة ووضوح.

وانتقل سكَنُنا عام ١٩١٥، إلى رأس بيروت (على مقربة من المنارة)، فلم يبق بالإمكان أن أذهب إلى المكتب السلطاني. فذهبت إلى مدرسة الشيخ يوسف الحَلواني (وكان لها اسمٌ مكتوبٌ على رُقعة صغيرة لا أذكره الآن). وكانت إلى الجنوب الغربي من السفارة الألمانية اليوم - غرب الطّرف الشمالي من شارع السادات. في هذه المدرسة ختمت القرآن وتعلّمت العربية وشيئاً من الفرنسية (على الشيخ عُثمان العيتاني، وأعتقد أن معرفته بالفرنسية لم تكن أحسنَ من معرفتنا كثيراً). ثم قرأنا كتاب «كليلة ودمنة» ودروس التاريخ الإسلامي للشيخ محيي الدين

(*) البسطة التحتا - جنوب مركز الإطفائية.

الخيّاط. ولم يبق لي «صف» في هـذه المدرسة فانتقلت إلى المدرسة الرسمية «وتعرف بـاسم مدرسـة المعمل »، لأنها كـانت قرب معمل الداعوق (عمر الداعوق) إلى غربِ مخفـر حُبيش اليوم، مبـاشرة لا يفصل بينهما إلاّ طريق فرعية.

هذه هي المدارس الرسمية والمحلّية التي حَضَرتها إلى عام ١٩١٩ . وأستطيع الآن أن أقول إن ثقافتي الأولى في الدين واللغة العربية والخطّ كانت نتاجَ هذه المدارس. ولا أستطيع أن أقول إنّ الأساتذة الذين «كانوا يعلّموننا في هذه المدارس» كانوا من نُبَغاء العُلماء. ولكنّي أستطيع أن أقولَ إنّهم كانوا يحملون رسالة العلم في ضمائرهم وفي أعمالهم. هذه قاعدةٌ في التعليم. ليس من الضروريّ أن يكونَ المعلّم دائماً أحسن من طُلّابه ذَكاءً وأوسعَ (في النتيجة الأخيرة) عِلماً. ولكنْ لا بدّ من عنصر الإخلاص في المعلّم حتّى يستفيدَ الطُّلاب منه. إنّ سُقراط أستاذ أفلاطون لم يكنْ أوسع علماً ولا أعمقَ تفكيراً من أفلاطون، ومَعَ ذلك فإن أفلاطونَ قد أجرى معظم آرائه على لسان سُقراط. وأفلاطونُ كان أستاذَ أرسطو، ولكنّ أرسطو كان مخالفاً لأفلاطون في مُعْظم آرائه، وكان أثرُ أرسطو في العالَمِ الواقع (في العلم والاختراع، وفي تفريع العلوم وفي السياسة الواقعة) أوسعَ وأعمق من آراء أفلاطون التي لجأ إليها الخياليّون النظريّون، فلا هم بلغوا فيها مبلغَ أفلاطون (في المنطق والشمول) ولا هم حَلّوا مُشكلةً من مشاكل البشر. لقدِ آقتصرتْ جُهودُ هؤلاء الذين ظنّوا أنفسهم سائرين في طريق أفلاطونَ على الجَدَل الصُّوري (أو الشَّكلي) ممّا لا حقيقةَ له في الحياة الإنسانية.

وفي عام ١٩١٩ اجتمع نفر منّا متقاربون في السنّ: فؤاد قاسم ومحيي الدين المحمصاني وعبد القادر البرّاج وأخوه رفيق ثمّ عبد القادر حصرم (رحمهم الله جميعاً) وصبحي المحمصاني (مدّ الله في حياته) وطُفنا على المدارس في بيروت: المدارس الفرنسية والمدرسة الإيطالية (وكانت بإدارة سعيد سنّو، رحمه الله) وغيرها

من المدارس المحلّية من تلك التي نشأت على بقايا المدارس العثمانية أو من تلك التي كانت موجودة من قبلُ، فوقع اختيارنا جميعاً ـ من غير أن نعلم ذلك، في ذلك الحين، سبباً ـ على الجامعة الأميركية. كان فؤاد قاسم ومُحيي الدين المحمصاني أكبر سنّاً فدخلا رأساً إلى «الكلّية السورية الإنجيلية» (لم يكن آسمها قدِ آنتقل بعدُ إلى «الجامعة الأميركية في بيروت»). وأمّا أنا ومن بَقِيَ من الرفاق فدخلنا «مدرسة رأس بيروت» (المدرسة الابتدائية التي كانت تابعة في مناهجها للكلّية السورية الإنجيلية، ولكن إدارتها وميزانيّتها كانتا مستقلّتين، في الأغلب). ولكن لم نثبُتْ كلُّنا في «مدرسة رأس بيروت». غيرَ أنّي أنا وصبحي المحمصاني ثَبَتْنا، وكانت ثقافتنا العامّة ومعرفتنا بفروع العلوم الابتدائية وافية، ولكن كان ينقُصُنا معرفةٌ باللغة الإنكليزية. من أجل ذلك اجتزنا جميع المرحلة الابتدائية وصفّين من صفوف المرحلة الثانوية في عامين.

ولقد نَعِمْنا في مدرسة رأس بيروت بعناية كبيرة لأنّ الصفّ الثانوي كان في ثلاثةُ تلاميذَ فقط: أنا وصبحي المحمصاني وتلميذ آخَرُ يونانيّ الأصل اسمه خريستو وُرواكي الحاجّ ينّي كوكوذاكي (لم أره منذ مدّة طويلة جداً).

وبعد الحرب العالمية الأولى كانت الحاجة إلى المعلّمين كبيرة جداً، فكانت المدارس تأخذ من المعلّمين من تيسّر لها. ولا أريد أن أكتُمَ القارىء الكريم أن آثنين من المعلّمين الذين كانوا يعلّموننا في «مدرسة رأس بيروت» لم يكونا على المستوى العلميّ المطلوب، وكنّا نحن ـ في ذلك الحين البعيد، وفي تلك السنّ ـ أكثَر علماً، في عدد من الموضوعات، منهما. وسأضرب مثلاً واحداً.

منذ ذلك الحين، عام ١٩١٩، بدأت أجمع طوابعَ بريدٍ. ومنذ العام التالي (١٩٢٠) بدأت أُراسل «عناوين» يبيع أصحابها، في انكلترة والولايات المتحدة، طوابع بريد. ولا شكّ في أنّ «رسالتي» في ذلك الحين كانت ضعيفة. ومَعَ ذلك

فقد طلب منّي معلّمنا في اللغة الإنكليزية أن أكتب له «صورة رسالة تجاريّة» ففعلت.

وفي العام المدرسي ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ انتقلنا، أنا وصبحي المحمصاني، إلى الجامعة الأميركية (وكان اسمها قد تبدّل فأصبح الجامعة الأميركية في بيروت ـ بعد أن كان، كما رأينا من قبل، الكلّية السورية الإنجيلية). وقد قدّمنا امتحان دخول إلى الصفّ الثالث الثانوي ونجحنا (وهذا يدلّ على أن مدرسة رأس بيروت لم تكن جزءاً من الجامعة الأميركية، وإلّا لَمَا آحْتَجْنا إلى تقديم امتحان دخول. غير أنّني أنا دخلت الدائرة الاستعدادية العامّة، ودخل صبحي المحمصاني إلى الدائرة الاستعدادية الخاصة Junior (لأنّه كان أصغر سناً). والتلاميذ الذين يفترقون في الدائرتين الاستعداديتين العامّة والخاصّة يجتمعون في الصفّ الخامس من الدائرة الأستعداديّة العامّة. وقد كنت، أنا وصبحي المحمصاني في فرقة واحدة أيضاً.

كان في الجامعة الأميركية في ذلك الحين قانون. في حفلة التخرّج (من الدائرة الاستعدادية) يكون خطيبُ الحفلة في اللغة العربية الأوّلَ في اللغة العربية، وفي الانكليزية الأوّلَ في اللغـة الانكيزية، وفي اللغة الفرنسية الأوّلَ في اللغة الفرنسية. ولقد حَرَصْتُ أنا ـ في السنوات الثلاث الأخيرة من الدائرة الاستعدادية ـ على أن أكونَ الأوّل في اللغة العربية. وكنت على مثلِ اليقين أنّني سأكون أحدَ خُطباء الحفلة.

ولكن قبل فرصة الربيع من عام ١٩٢٤ (ونحن في السنة الخامسة والأخيرة من المرحلة الثانوية)، بَدّلتِ الجامعةُ هذا العُرف وقرّرتْ أن يَخْطُبَ في حفلة التخرّج الثلاثةُ الأولون في جميع الدروس. هذا القرار أفقدني الحق في الخطابة في حفلة التخرّج. ولقد أغضبني ذلك بلا شكّ.

وآقتربت نهاية العام المدرسيّ، فلم يكن هنالك مشكلة في آختيار خطبيبي

اللغة الإنكليزية واللغة الفرنسية: سُمِّيَ صبحي المحمصاني (وكان الأوّل في الصفّ، ومعدّله آثنانِ وتِسعون ونصف في المائة) للغة الإنكليزية، وسُمّي قسطنطين زريق (وكان الثاني، ومعدّله واحد وتسعون ونصف في المائة) للغة الفرنسية (لأنّه كان قد جاء من دمشق وانضمّ إلينا في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية ـ وكانت لغة التعليم في سورية في ذلك الحين الفرنسية إلى جانب العربية).

ولكنّ المشكلة تبدّت في تسمية خطيب اللغة العربية (وآعفوني من ذكر الأسماء). الثالث في الصفّ أرمني (مثلًا) لا يحسن العربية. وكان الرابع يونانياً أو يهودياً. وجيء إلى الخامس والسادس وما بعدهما. مات والد أحدهما فآضطر إلى الانسحاب من الحفلة للاشتراك في مأتم أبيه (وكان من بلدة في الجنوب)، ومرض آخر... (واعفوني أيضاً من تعداد تلك الأحوال).

وفي ١٩٢٤/٦/٢٦ (وكانِ يوم أربعاء فيما أذكر) كنت مع نفر من الرفاق نلهو في حدائق الجامعة (قرب الدائرة العلمية)، فإذا نفر من التلاميذ يبحثون عنّي، فقال لي أحدُهم: أجِبْ الأستاذ نصّاراً (نجيب نصّار من بلدة عين كسور، أستاذنا في اللغة العربية، توفّي ١٩٣٠). فذهبت إلى لقائه في الدائرة الاستعدادية. فأخذني ووقف بي عند نافذة تطلّ على البحر ثمّ قال لي: أعِدَّ خِطاباً لحفلة التخرّج وآعْرِضْه عليّ غداً. كنت لا أزال غاضباً من تبديل العُرف في خطباء الحفلة، فقلت له: لا أريدُ أن أخطب. فقال لي: آسمع يا عمرُ (وكان الأستاذُ نصارٌ كثير العناية بالأناشي التي أكتُبها وقد نشرَ لي عدداً منها في الصحف ـ وبفضله دَخَلْتُ مَعْمعانَ الكِتابة في الصحف):

ـ نحن الآن في آجتماع للمعلّمين، وقد شَهِدَ فيك الدكتور فيليب حتّي شهادة طيّبة فقال: عمر مؤرّخ الصفّ. ونحن لم نجد خطيباً في اللغة العربية.

وقد قال رئيس الدائرة الاستعدادية المستر وليم هول: إذا لم يخطب عمر فرّوخ في حفلة التخرّج فأنا أرى أن نلغي الحفلة هذا العام. كان هنالك إشاعة هي أن الجامعة الأميركية تعتني باللغتين الإنكليزية والفرنسية. فإذا أُلقيت في حفلة هذا العام خطبة بالإنكليزية وخطبة بالفرنسية، ولم تُلْقَ خطبة بالعربية (أو خطبة جيّدة بالعربية) ثبتت هذه الإشاعة. ثمّ قال لي الأستاذ نصار:

ـ إذا لم تُقِمِ الجامعة حفلة في هذا العام فستقيم حفلات في العام القادم وفي الأعوام التي تلي العام القادم. أما أنت فليس لك فرصة للوقوف على المنبر إلا هذا العام.

وفي اليوم التالي قال لي الأستاذ نصار: أرني نص الخطبة. فقلت له سأُلقيها أمامك. وألقيتُ ما كتبتُ غَيْباً على المنبر (وكان ذلك تجربة طبعاً) وعُنوانها «لا للشهادة» (أقصد أنّي ما تعلّمت لأحصل على ورقة اسمها شهادة، بل لأكون مثقّفاً).

وفي اليوم الذي تلا (٢٨/٦/١٩٢٤) حينما صعدنا إلى المنبر لنأخذ أماكننا، وقف مدير الدائرة الاستعدادية يعرّف بنا ونحن نمر أمامه (في المنتدى) الكبير ـ الكنيسة):

صبحي محمصاني (الأول، معدّله اثنان وتسعون ونصف في المائة). فضجّت القاعة بالتصفيق. قسطنطين زريق (الثاني، ومعدّله واحد وتسعون ونصف في المائة)، فاستأنف الحاضرون التصفيق. ثم قال: عمر فرّوخ (ولم يذكر مرتبتي في الصفّ ولا معدّل علاماتي، فقد كانا بعيدين عن المرتبة الثانية). ومع ذلك فقد استمر التصفيق.

هذه لَمحات سيمرّ عليها قريباً ستّون عاماً، وإنّي لأرجو أن ينتفع بها التلاميذ وأن ينتفع بها أيضاً آباءُ نفرٍ كثيرين من التلاميذ ـ أولئك الآباءُ الذين يريدون أن

يخفّفوا عن أولادهم كلّ تعب في الحياة أو أن يصل أولادهم إلى غاياتهم بأسهلِ وسيلة وعن أقربِ طريق: من ذلك مثلاً أن هؤلاء الآباء يريدون أن يحصل أولادهم على هذه الورقة التي تسمّى شهادة ثمّ لا يهمّهم أتعلّم أولادُهم أم لم يتعلّموا. إنّ هؤلاء الآباء جهّال وكارهون لأولادهم. إنّهم قصيرو النظر.

ولكنّ الحديث هنا طويل.

١٣ - ٨١/١٠/١٦

٥ ـ من أحداث حياتي منذ عام ١٩٢٨

ـ ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ : في مدرسة النجاح (نابُلُس، فلسطين) لتعليم التاريخ والجغرافية واللغة الإنكليزية (وأنشأتُ فيها فرقة للكشّافة).

ـ ١٩٢٩ ـ ١٩٨٣ : في مدارس جمعيّة المقاصد الخيريّة الإسلامية في بيروت (علّمت فيها آبتداء من «الحديقة الرابعة: أدنى صفوف التعليم» إلى صفوف البكالوريا). وقد علّمت اللغة العربية بفروعها وآدابها واللغة الإنكليزية واللغة الفرنسية وتفسير القرآن والفِقه (الأسرة في الشرع الإسلامي) والخطّ والحساب والتاريخ والرسم والفلسفة وتاريخ العلوم عند العرب (وكان عبدالله المشنوق: مدير كلّية المقاصد: مدرسة البنين الأولى: ثانويّة الحرج) كلّما آحتاج إلى مَلء أحد الصفوف (لغياب معلّمه أو لِفقدان مَنْ يعلّم فرعاً من فروع العلم ثم لم يجد معلّماً له، أرسلني إلى ذلك الصفّ. علّمت الفلسفة الإسلامية، مَعَ أنّي لم أكن من قبلُ قد تعلّمتها).

ـ منذ ١٩٣١ بدأت نشر الكتب المدرسيّة والأدبية مستقلاً أو بالاشتراك مع زُملاء لي في التعليم وفي غير التعليم.

ـ منذ ١٩٣٢ عضو في لجنة وضع المناهج للتعليم الثانوي في لبنان وعضو في لجان التصحيح في الامتحانات الرسميّة (لآداب اللغة العربية وللفلسفة ولتاريخ العلوم عند العرب). وقد كنتُ أُدعى مرّة بعد مرّة إلى التصحيح في امتحانات البكالوريا الفرنسية (للغة العربية).

ـ ١٩٣٥ ـ ١٩٣٧ تابعت دِراستي العُليا في ألمانية لنيل إجازة المشيخة (شهادة الدكتوراه).

ـ ١٩٣٦ في أثناء عطلة الشتاء في المانية، ذهبت إلى باريس وحضَرت (أربعين يوماً) دروساً نظامية في الصوربون وكليّة فرنسة ومدرسة الدراسات العليا.

ـ ١٩٣٨ أصبحت عضواً في جمعيّة آتحاد الشبيبة الإسلامية (بيروت) وهي جمعيّة اجتماعية «تعمل في الحقل السياسي» (ولكنّها ليست جمعيّة سياسيّة). إنها تبحث في شؤون المسلمين من جميع النواحي، ولكنْ لا يجوز لأحد من أعضائها أن يقبل مَنصِباً سياسياً.

* قبل عام ١٩٣٨ كان جميل بيهم (ت ١٩٧٨) رئيساً للجمعيّة. وكانت الرئاسة عقدة في الجمعيّات (يريد كل رئيس أن يكونَ حَلُّها له وحدَه بِحَسْبِ ما يرغب). آقترحت أنا أن يكونَ للجمعية «مديرٌ مسؤول» يمثّل الجمعيّة لدى السلطة وينفّذ المقرّرات التي يتّخذها الأعضاء في الجلسات. أمّا رئاسة الجلسة فتكون بالدور بين الأعضاء (ويحقّ للمدير المسؤول أن يترأس الجلسات مرّة بعد مرّة، ولكن لأنّه عضو من أعضاء الجمعيّة، لا لأنّه مديرها المسؤول). ومنذ ذلك الحين أصبح الدكتور محمد كنيعو «المدير المسؤول» لجمعية آتحاد الشبيبة.

* كان لجمعيّة اتّحاد الشبيبة الإسلامية اليدُ الطولى في تأليف الوزارة الأولى (عام ١٩٤٣) في عهد الاستقلال. كانتِ المنافسة شديدةً بين أربعة أشخاص: سامي الصلح وآبن عمّهِ رياض الصلح وعبدالله اليافي ومحيي الدين النصولي. جمعناهم معَ آخرين في نادي الجمعيّة (وكان بناء لجمعيّة المقاصد، في سوق

الخضار، شمال شرق بناء المالية: المالية التي كانت في أول شارع فوش). وبعد أن تعذّر جمعهم على رأي واحد، جمعهم حسين سجعان (مدّ الله في حياته) في غرفة جانبيّة وأسمَعَهم كَلِمات حَمَلَتْهُمّ على أن يُجمعوا على واحدٍ منهم (رياض الصلح).

* ثمّ إنّ جمعيّة اتّحاد الشبيبة تطوّرت إلى «المجلس الإسلامي» (لأنّ أعضاء الجمعيّة هم الذين أصبحوا أعضاء المجلس) مَعَ تبديل يسير. وكان في قانون المجلس الإسلامي أنّه لا يجوز لعضو من أعضائه أن يقبل مَنصِباً سياسيّاً. وإذا ظهر أن هذا المَنصِب ضروريٌّ للأمّة، فيجب حينَئِذٍ أن تكون الموافقة على ذلك بالاجماع. وفي عام ١٩٦٤ (فيما أذكُر) عُرِض على حسين العويني رئاسةُ الوزارة (وكان رئيساً للمجلس الإسلامي). لم يكن بدّ من أخذ الموافقة على ذلك بالإجماع. صوّتت أنا ضدّ الاقتراح. وحاول نفر من إخواني إقناعي بالموافقة، فلم أقنَعْ (كنت أعتقدُ أن ذلك ليس في صالح الأمّة، وأنّ صالحَ الأمّة في غير ذلك). ولَمّا أصرَّ نفرٌ من إخواني على رأيهم، حلَلْتُ لهم المشكلة بأنْ أُغادرُ أنا الجلسة ثمّ يعاد التصويت فينجح الاقتراعُ بإجماع الأعضاء الحاضرين. من ذلك الحين «دخل المجلس الإسلامي في السياسة المحلّية» وخَسِرَ قُدرته على «مراقبةِ المجرى السياسي في البلد». ثمّ رأيت أنا أنْ أستَعْفِيَ من المجلس، لأنّني لا أرى أن أعمل في حقول السياسة المفلوحة بكلّ آلة والمزروعة بكلّ أنواع النبات.

- ١٩٣٨ - ١٩٤١ أصدرت مع نفر من الزملاء والأصدقاء مجلّةِ «الأمالي» (أسبوعيةً ثقافيةً) ثمّ وَقَفْتُها عن الصُّدور لأنّ جميعَ أمورها أصبحت متعلّقةً بي وحدي، ولأنّها كانت قد بدأت تمَنعني من نَشاطي الصحيح في التعليم وفي التأليف وتحاول زَجّي في تيّار السياسة.

ـ ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ أُستاذ زائر لتاريخ الخِلافة الأمويّة وتاريخ الخلافة العبّاسية في دار المعلّمين العالمية في بغداد.

ـ في هذه الأثناء كنت قد عَقَدت عَقْد قِراني. وفي ١٩٤٠/١١/٥ كانت حفلة الزواج. تزوّجتُ آمنةَ بنتَ أمين حلمي من بيروت. ورُزِقْنا خمسةَ أولادٍ: أُسامةَ (١٩٤٤) ومروانَ (١٩٤٦) ومازناً (١٩٤٨) ولينةَ (١٩٥٢) ولَميسَ (١٩٥٦).

ـ منذ ١٩٤٦ عُضوٌ في نَقابة المعلّمين في لُبنان. وقد قَصَرْتُ جُهودي على «خدمة التعليم والاشتراك في وضع قوانين المعلّمين والدفاع عنها في اللجان وعند المراجع الرسميّة لرفع شأن «صناعة التعليم» (ولذلك كان يتّهمني كثيرون بأنّني «لا أُحبّ المعلّم»، لأنني لم أكن أخْدِمُ الذي جاء إلى التعليم لأنّه لم يستطعْ أن يعمل في ميدانٍ آخَرَ من ميادينِ الحياة ثمّ كان يريدُ أن تَتَحطّمَ القوانينُ كلُّها عطفاً عليه أو رَغبة في تنفيذِ مصلحةٍ له). ولم أرغَبْ في المناصب في النقابة. ولكن في عام ١٩٦٨ قُمتُ بشِبْهِ آنقلابٍ في نقابة المعلّمين وأخذتُ رِئاسة النّقابة لأُنْقِذَ «قانون المعلّمين». ذلك لأنّ نفَراً من المسيطرين في النقابة كانوا يتباطئون في خطواتهم جَرّاً لَمصالحَ شخصيةٍ يقتضي آحترامُ ذِكْراهم ألّا تُذْكَرَ الآنَ. ولمّا صدرتِ التعديلاتُ التي أغْنَتْ عن وجودِ النَّقابة عُنصراً فاعلاً (في صِناعة التعليم)، لا في الاستفادة من منحة الدولة)، تركتُ رِئاسةَ النّقابة (بعدَ ثمانيةِ أشْهُرٍ، وكان بإمكاني الاستمرارُ إلى تَمامِ العامِ أو أكثَر من عام).

ـ ١٩٤٦ عضو المؤتمر الثقافي (العربي) الأوّل (بيت مري: لبنان) ثمّ توالى حضوري مؤتمراتٍ مختلفةَ البرامجِ في لبنان وسوريةَ والعِراق والسُّعوديةِ العربية وبلاد الخليج ومِصْرَ والسودانِ وليبيا وتُونِسَ والجزائر وباكستانَ وفرنسةَ.

ـ ١٩٤٨ عُضْو اللَّجْنة الوطنيّة

* عضو الوفد (اللبناني) الرسمي للدورة الثالثة لمنظّمة الأونسكو (بيروت).
* عضو المجمع العلمي العربي بدمشق.
* عضو جمعيّة البحوث الإسلامية (بومباي: الهند).
* وسام المعارف من الدرجة الأولى.

ـ ١٩٥١ ـ ١٩٦٠ أستاذ زائر في جامعة دمشق للتاريخ الأموي وتاريخ الأندلس.

ـ عضو المجلس الإسلامي (راجع عام ١٩٣٨: جمعيّة اتّحاد الشبيبة الإسلامية).

ـ ١٩٦٠ ـ ١٩٦٨ عضو جمعيّة أصدقاء الكتاب.

ـ ١٩٦٠ عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة.

ـ منذ ١٩٦١ أستاذ محاضر في جامعة بيروت العربية في التاريخ العربي (في جانبه الحضاري وفي تعليل التاريخ) ولتاريخ العلوم عند العرب.

ـ ١٩٦٥ عضو جمعيّة البرّ والإحسان وأحد ممثّليها في مجلس الإدارة من جامعة بيروت العربية.

ـ ١٩٦٨ وسام «نجم باكستان» من رتبة قائد أعظم.

ـ ١٩٧٠ جائزة رئيس الجمهوريّة التي تمنحها جمعيّة أصدقاء الكتاب (بيروت) «على مجموع آثار مؤلّف لبناني تميّزت بالجودة وصدرت باللغة العربية».

ـ ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ أستاذ زائر لتاريخ العلوم عند العرب في كلّية التربية (بالجامعة اللبنانية).

ـ ١٩٧١ وسام الأرز الوطني (لبنان) من رتبة فارس.

ـ وسام محمّد اقبال (باكستان).

ـ وسام الاستحقاق (شنقيط: موريتانيا) من رتبة ضابط.

ـ رئيس جمعيّة البر والإحسان.

ـ ١٩٧٠ ـ ١٩٨٢ أستاذ زائر للاشراف على رسائل الأستذة (الماجستير) في كلّية الآداب من الجامعة اللبنانية.

ـ عضو المجمع العلمي العراقي.

ـ عضو الجمعية التاريخية (حلب ـ سورية).

الفهرس الهجائي

لأعلام الأشخاص

ح = في الحاشية

م = مكرّر

ج ـ خ

د ـ ز

س ـ ظ

ع ـ غ

ف ـ ق

ك ـ ل

م

غبار السنين

هذه لَمحاتٌ متفرّقةٌ ـ ولكنْ متتابعة ـ من حياة المؤلّف سَرَدَها بنفسه، وجعل كلَّ لمحةٍ منها متّصلةً بحدَث من أحداث حياته، أو بحالٍ من أحوالِه، أو بأمر شَهِده بنفسه؛ ثم رأى في ذلك كله حقيقةً ثقافيةً أو فائدة اجتماعية:

«... ومعَ أنني لم أقْصِدْ أنْ أَمَسَّ فِي أثنائها معنىً سِياسيًّا، فقد رأى نفرٌ من القُراء أنّ فيها مَعانيَ سياسيةً واضحةً ولكنْ رَفيقةً».



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع